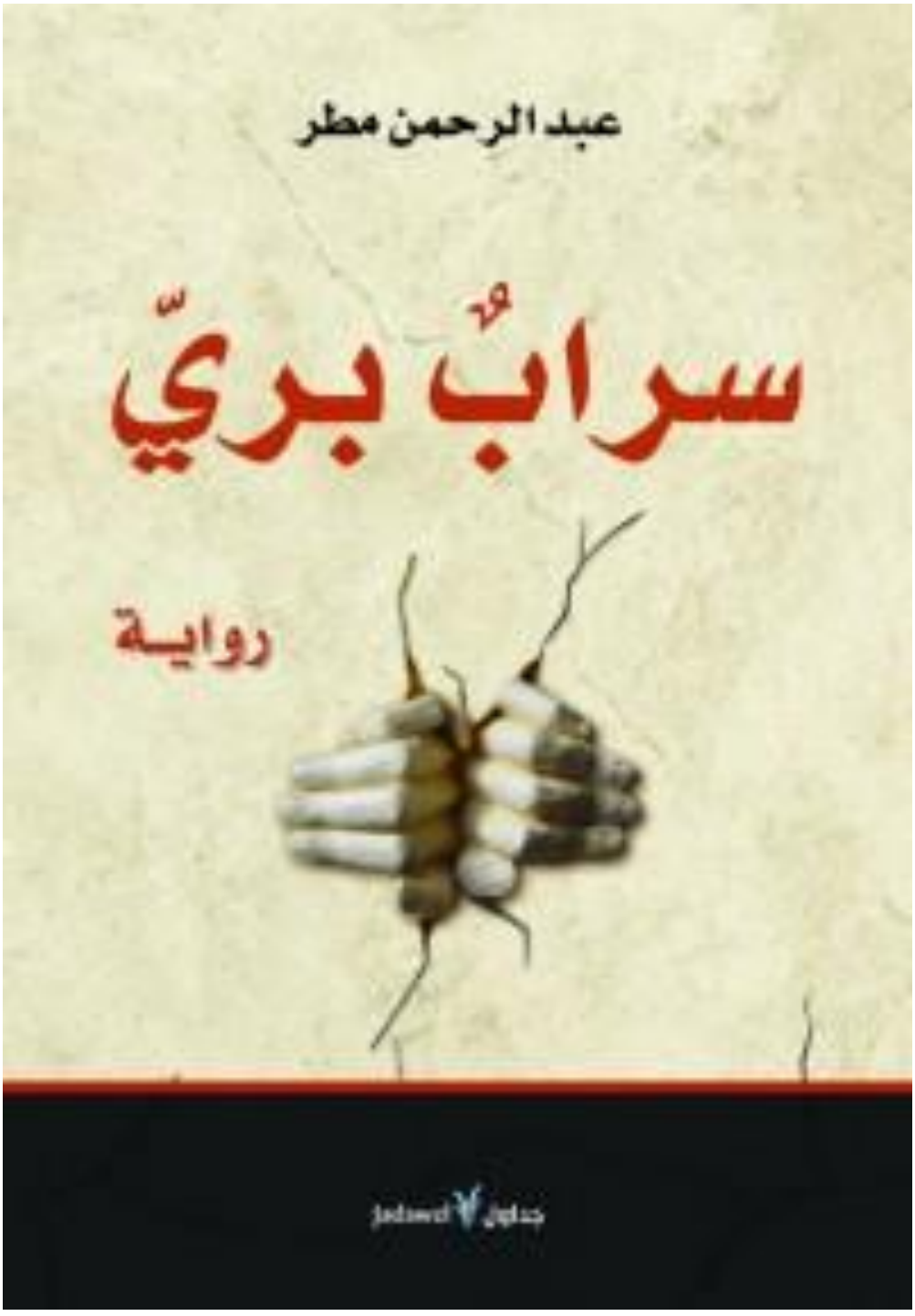
عبد الرحمن مطر
سرابٌ بريّ
رواية

الكتاب: **سرابٌ بريّ.. رواية**
المؤلف: **عبد الرحمن مطر**

جداول
للنشر والترجمة والتوزيع
رأس بيروت ـ شارع كراكاس ـ بناية البركة ـ الطابق الأول
هاتف: 746638 1 00961 ـ فاكس: 746637 1 00961
ص.ب: 5558 ـ 13 شوران ـ بيروت ـ لبنان
e-mail: d.jadawel@gmail.com
www.jadawel.net

الطبعة الأولى
شباط / فبراير 2015
ISBN 978-614-418-268-0

جميع الحقوق محفوظة © جداول للنشر والترجمة والتوزيع
لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

طبع في لبنان

Copyright © Jadawel S.A.R.L
Caracas Str. - Al-Baraka Bldg.
P.O.Box: 5558-13 Shouran
Beirut - Lebanon
First Published 2015 Beirut

تصميم الغلاف: محمد ج. إبراهيم

إلى

العسف والجور
القهر والحرمان
رباعية الإذلال ..

علّها تنأى عن درب أحلامنا !

الجزء الأول

1

موتٌ يتهاطل من السماء، لاتعرف من أين تأتي به الغيمات العابرة. شئ ما أشبه ببوابات الجحيم التي تنفتح فجأة فتلقي حممها على الناس، هل كانت حقاً شبيهاً لها، أم أنها اللهيب الذي لايُبقي ولايذر شيئاً في البلاد: الإنسان والطير والحجر، تخلّف رائحة الحرائق، حيثما نظرت أو أشحت بوجهك، كي لاترى الأجساد المتناثرة أشلاؤها في العلوّ بلا دماء. وحده الغبار الحارق القاتل، يلوّن ما كان صافياً - قبل هنيهة - بالرماد! تتسابق اليك أصواتٌ، لايمكن أن تُنسى، إلاّ حين تكون أحد أولئك الذين تطايروا، تلتفت محاولاً اكتشاف جهة الصوت، فيناديك عمود الدخان من بعيد، يدلك على نفسه، يتلاحق الصوت مرتدّاً في الفضاء الرحيب، لاحقاً الطائرة التي كانت هنا قبل قليل تلّوح للصغار الذين ترقب عيونهم ما ستلقي به.

لم يعد هنا أحد..مازال الغبار ينثال في المكان، الصورة ليست بعيدة عمّا حدث في تفجيري الحادي عشر من سبتمبر، كتلة الدمار هائلة، العمارات لفظت كل شئ. يقترب رويداً رويداً، يفتح ويغمض عينيه، ويحاول أن يحمي أنفه بطرف سترته، لكن رائحة الشواء..شواظ اللحم الآدمي، تنخر مسامات الجسد، فيما تموء الروح كقطة حبيسة تحت أنقاض البيت الذي لم يبق منه أحد سواها.

تحوم الهيليوكبتر دورتين واسعتين، ثم تضيّق دورتها الثالثة، حتى يخيل أنها تتوقف لحظة في الجو، ثم تقذف حملها، ليسقط برميل المتفجرات حيث شاءت الأقدار. في المدينة لامفرّ من أي شئ، الموت يتربص بك، ولم يترك الأرياف تنعم بذلك الهدوء الذي لايقطعه صعود الشمس التدريجي، وهي تفرش حرارتها ونورها على الحقول التي صارت تمتلئ على مدّ النظر بشقائق النعمان.

بقايا حديقة صغيرة، تحوطها من الجهات الثلاث بقايا عمارات سكنية، وتقابل الطريق العام والمدرسة من الجهة الرابعة. يتقدم خطوات عجولة وخلفه يتراكض شبان صغار ورجال بأعمار متفاوتة نحو الأبنية، ترددت خطاه في التقدم، وقف حائراً، كأن قدميه كُبّلتا الى الأرض فجأة، وابتلعت الدهشة لسانه، من منظر الجثث التي تملأ الساحة، ومن هول الخراب!

حافّة البركة هي كل ماتبقى منها قائماً، جفت المياه منذ أمدٍ، و بسبب العطش ذابت شجيرات الورد. جلس على الدرجة الوحيدة ساهماً، دون أن تاخذه حركة الشباب

النشطة في محاولة إنقاذ من تبقى أحياء. لكن الأصوات كانت تتناهى إليه على بعد أمتار. يتذكر ثلاثة أصوات فقط: امرأة تستغيث وطفل يبكي وقطة تموء..ثم لم يعد يسمع شيئاً ولاتلتقط عيناه أي مشهد. عاد الى مسمعه هدير الطائرة التي خلّفت وراء عبورها مشاهد أرغفة الخبز الملوّنة بالدم، لم يحتمل تلك الظهيرة أن يلتقط رغيفاً ظل مرمياً على كتف الطريق دون أن ينتبه إليه العابرون، والجوع يفتك به، يتلوى من شدته، لكن العطش صرفه بعيداً عن الجوع، هل ثمة خبز هنا؟

أمامه في المشهد المشحون باختلاط الأشلاء والبقايا التي نثرها التفجير من البيوت، دولاب دراجة، بل عربة يتعرف اليها من خضار حولها، لا أثر للبائع وصوت أزيز الرصاص يقترب ويشدّ انتباهه، عما يغرق فيه وينتشله فينتفض. كانت طلقات مدفع الحوّامة التي عادت مجدداً تحاول تمشيط المكان من أي أثر للحياة، ممن لم يدرك روحهم البرميل الذي فتت كل شئ. ركض..تعثرت قدماه بالحجارة وسقط فوق جثة، أحس بدفئ دمها الذي تخفيه طبقات الغبار الإسمنتي، كفّه على الجرح، يمسح بها وجهه وينهض راكضاً والرصاصات تزّخ من حوله، والشباب يلوّحون له بالإسراع نحوهم.

ارتمى على الركام بين أرجلهم ينزّ جبينه عرقاً، على الرغم من برودة الطقس، تنتابه موجة جديدة من ضيق التنفس، يشير بيده الى جيبه، الى بخاخ الفينتولين..لاشئ فيها، يصرخ الفتى الذي يقلّبه، يحرّك الهواء أمام أنفه وهو يستشنق بشدة متلاحقة مع تصاعد ضربات القلب.

ذاكرته الآن، تُفرغ على الرصيف الذي يتكور فوقه جسده، مشهد تلك الرصاصات التي تداركها راكضاً، عند الكوع في حرستا، وهو يفرّ من محاولة اعتقال جديدة، منحه الخوف والرعب من الوقوع في براثنهم، قوة هائلة لتحدي الموت الذي رآه بأم عينيه متربصاً به. أفلت وغاب في الزحام البعيد، خلف الكنيسة الصغيرة، في الحارات التي انتشلته فيها يدٌ خيّرة، سحبته من ساعده بقوة نحو باب أُغلق خلفه، وأقعى يلتقط أنفاسه تحت الدرج.

في تلك الظهيرة كانت حوّامتا الجيش، تدوران في سماء المنطقة الممتدة مابين حرستا والقابون، وعربين وجوبر وزملكا، وهما تمشطانها، برشقات متواترة متدافعة من صليات المدافع الرشاشة، فيما يتصاعد الدخان من الجهة الشمالية الشرقية الممتدة عبر البساتين حتى دوما.

بدأ انهمار المطر بقطرات خفيفة متئدة، كخطوة طفل يتعلم المشي، في أرض الدار، قبل أن تزهر رائحة الموت على حين غرة..ثم تسارع الانهطال شآبيب تغسل المكان، وبدأت تتوضح أمكنة الضحايا وأشكالهم، والصورة الأخيرة لموتهم. اعتدل وهو يرى المكان قد امتلأ بالناس، مسعفين ينقلون من به رمق، وآخرون يجمعون الجثث على

مقربة منه. عيون رجل ممدد مفتوحة خال أنها تستنكر جلوسه، مد كفه وأسبل رمشيه على الفاجعة، هل تراه كان يرى موت أحد من أسرته أمامه أو بين يديه؟ أخذه صراخ رجل كان يقف وسط الساحة، عند البركة تحت المطر، في حضنه طفل رضيع مدميّ وهو يرفع وجهه ويده الى السماء مناجياً:

-يارب والله صغير..ماذا فعل! الله لايخليك يابشار..

قلبه ملوّع وكلماته حارة، كانت تشق روح عامر، وهو يفيض بالغضب، هرع يساعد الشباب في نقل الجرحى الى السيارات التي وصلت للتو، وما أن انطلقت أولاها، حتى اصطادتها الطائرة من بعيد، فانقلبت الى يسار الطريق، تحت رشقات المدفع الرشاش، وهي ترفع العلم الأبيض. لم يستطع أحد الإقتراب، ولم يخرج أحد لدقائق طويلة قبل أن تغادر الطائرة، ويبدأ انسلال السائق ومرافقه زحفاً على الأرض، ناجيان. في الخلف مات ثلاثة جرحى، وبقيت امرأة تنزف وتئن.

" زخّ الرصاص ياحيف..

ياحيف.. "

ترمي به هذه الكلمات التي يترنم بها، الشاب الذي يحمل معه جريحة، الى عمق المرارة والمأساة التي تكبر كل وقت بالدم، أضلاعه لم تحتمل، والفتى يواصل غناءه ويعلو صوته أكثر فأكثر..صدره يجهش، وينطق لسانه مردداً : " يااااحيف "!

الرصاص الذي أطلقته عناصر الأمن والجيش في مظاهرة درعا، وفي احتجاجات الساعة بحمص، لم تكن عبثية، إرادة الإجرام العليا هي من قتلت هذه الطفلة، وهي من قررت خنق الروح الوثابة نحو الحرية، لكن الشعور العظيم بلحظة الحقيقة مع المستقبل، قد ولد، ولن تتراجع الروح عن خلاصها.

الطفلة القتيلة بين يدي أبيها، ومناجاته تحت المطر، تشبه حدّ التطابق نور الرضيعة اللبنانية التي قضت بهجوم اسرائيلي على تجمع للنازحين في مقر الأمم المتحدة، عام 1996. أية صلة تجمع القتلة..مالفرق بينهما؟

-كأني أعرفك ياعم!

توقف الشاب عن الغناء ليسأله، وهو يضم عينيه محاولاً التذكر، كان هائماً في وادٍ بعيد من مشاهد الألم، هائماً في أيام مرّت وأخرى ستأتي وسط هذا الخراب العميم والدم، بالأمل. هل ثمة أمل ينهض كالفينيق من وسط هذا الرماد؟

أعاد عليه السؤال، لايتذكر: انا من العفيف..وانت؟

-من الرقة.

-والله لازم نعرف بعض، لست غريباً عني، أنا حازم!

شدد على مخارج الحروف دون تردد. قال له عامر أنه كان يسكن في الشام، شورى،

قبل أن ينتقل للعيش في حرستا.
-مالذي جاء بك الى هنا.
فرّ حازم بجلده بعد أن تعرّض للإعتقال والتعذيب، وعندما أفرج عنه، قرر الإلتحاق بالجيش الحرّ. لم تعد استعادة التفاصيل مهمة في حياة السوريين، فكل حدث بكليّته صار معجوناً بالألم. سحب حازم سيجارة وأشعلها بروية، يتأمل دخانها المنفوث في الهواء المتصاعد من فمه وأنفه مثل غيمة حارقة!
يراقب بطرف عينه، ملامح وجهه وهو يحكي، ويحرك يديه مع الكلمات، ولفافة التبغ تتناوبها أصابع كفه اليسرى مع شفتيه، تمتصها بشغف. يحاول أن يربط الصوت مع الصورة علّه يهتدي لمحدّثه الذي لم يتوقف عن سرد حكايته، وكيف كان نازلاً من بيتهم بعد صلاة الجمعة، مع أمير.
-أمير خالد؟
-تعرفه ؟
-الآن عرفتك..
رائحة الدم التي يعيد المطر انبعاثها الآن، وهذا الفتى الذي يحدثه، تذكّره بغرفة التعذيب التي كانا يرقدان تحت شبّاكها في الجناح الخارجي، أو المهجع 37 في فرع الخطيب. الكثيرون ممن خرجوا أحياء منها، جرجروا بقايا أجسادهم، تسيل دماءها على أطرافهم، في خطى أقدامهم الحافية التي تطبع شكلها الدامي على الأرض. كان الصمت المشبع بالهلع، وبانكسار الروح، والأسى، يخيم على مايفوق المئتين وخمسين معتقلاً تكتظ بهم الحجرة كيفما اتفق!
حازم في التاسعة عشرة، آثار التعذيب في خاصرته، ثقبان غائران في الجسد الطري، أحدثهما إغماد سبطانة الكلاشينكوف، أثناء التحقيق في فرع الأربعين، بالجسر الأبيض. والجرح الطازج بعد مرور ثلاثة أسابيع – كما رآه - مايزال ينزّ دماً وقيحاً دون أن يُعالج. كان عليه أن يعترف بالإشتراك في المظاهرات، وفي المشاركة بصنع وحيازة متفجرات مع أمير، بعد اعتقالهما في جادة ابن المقدم.
لم ينكر اتهامه بالتظاهر، لكنه اضطر تحت القتل والتعذيب المبرح، أن يعترف بكل ما أجبره المحقق عليه.
-أين أمير ؟
-لا أعرف، أخذونا ولم نلتق بعدها أبداً في فرع الأربعين، ولم يحوّل معي الى الخطيب. ربما أخذوه الى العسكري أو الجوية..أميرعنيد ويمكن راح فيها. سكت قليلاً وهو يمج سيجارته، ثم استطرد: وأنا بقيت عندهم ستة أشهر..بين نجها والقابون وعدرا.
أمير حقاً عنيد لم يتخلف عن أي مظاهرة كانت تحتج على النظام، أو تطالب

بإسقاطه، في العفيف وشورى جادات، وفي جوار محي الدين بن عربي، يصعد الجبل، وينسل من حين لآخر الى ركن الدين. هو شعلة وقادة من الحيوية والذكاء، نشط، لايقدر على البقاء متفرجاً فيما يغلي الغضب بين ضلوعه:
-عيب أبقى في البيت والناس تموت!
- الله يحميك.
يغمزه أبيه، فيما يصعد الدم الى عيني عمّه عبدو:
-والله انت وابنك مجانين.
-انت كأنك أعمى..لابصر ولابصيرة.
يتحرك خالد من مكانه في غرفة أمه، يشير بإصبع يسراه الى صدر عبدو الذي يضع صورة الرئيس:
-أنت مريض..الله يشفيك.
خالد شديد النقمة على النظام الذي اعتقل أبيه لسنوات، خرج مصاباً بمرض عضال نتيجة للتعذيب، منتصف السبعينات، فهجر دمشق، ومن ثم مات مبكراً في الكويت، ودفن هناك. خالد يرى البلد والدنيا اليوم، بعيون أمير الغائبتين منذ عامين! ينزل الدرج بخطوات هادئة، ليتردد في البيت صدى إغلاق الباب، ويدفع نفسه في الطريق.

في المسافة الممتدة من أمام مدرسة البزم، حتى جامع بن عربي، يروح ويجيئ أبو محمد الملقب بالسلطان، وهو ينادي طوال الوقت دون أن يلقى جواباً من أحد :
- " ليش ..لك ليش ؟! "
زحام السوق عند الظهيرة، لم يمنع الباعة الذين يعرفون حكاية السلطان، من مناكفته، والرد عليه بكلمات ملغومة غامضة أحياناً ومبتورة، وملطّفة بنكتة تغلفها ضحكة عابرة، لكنها كانت توفر للناس بعض البوح، عن هموم وأفكار لايجرؤ أحدٌ القول بها.
تعب السلطان حتى تم تعيينه مهندساً زراعياً، لكنه لم يهنأ. بعد أقل من شهرين طلبه مدير المصلحة في آخر الدوام، وسلّمه بلاغاً بمراجعة الفرع 279، وقبل أن يضعه في جيبه، امتدت يدٌ من خلفه اختطفت الورقة، وصاحبها يهمس له: تفضل!
كأن الرقم 7 سحري، تغرم به أجهزة المخابرات: درويش، عبدالوهاب، مروان، ابوالتوت، هيثم، والسلطان كلّهم قضوا سبع سنوات. ثمة مايزال مخفياً في غياهب الظلمة منذ ربع قرن..ربع قرن من الاعتقال والسجن والتعذيب والمرارة..ياإله الكون!
خرج السلطان شخصاً آخر، فاقداً كل شئ. دون أن يريحه الموت، لكنه لم ينس تلك

العبارة التي قلبت حياته:
" سنخلع صور فرانكو
عن جدران دمشق ! "
يحنّ لترددها بين الحين والآخر، وكأن في دخيلته سرٌّ هامسٌ، كلمّا لاح له أبو أمير حثّ خطاه بالسؤال: عرفت شو صار ؟!
-اتركنا من فرانكو..يستر عرضك!
يرفع صوته، يتحرّج من السؤال والجواب، والمجاملة، وهو يشعر بعيون أبو علاء بياع الألعاب تدور في محجريهما ذات اليمين وذات الشمال، وأذنيه تتعقبان ذبذبات الحروف التي تسعى لالتقاطها من المارة. كأنه يبثّ صوتاً وصورة كل مايرى ويسمع للمخابرات. كم أبو علاء في هذا الحيّ..بل كم أبوعلاء، وأبو مهيار، وأبومحمود وأبو ابراهيم..في هذا البلد!
الريح تشتد مع اقتراب المغيب، والعتمة تلقي بشباكها من جهة الشرق، يعاود المطر الانهمار بغزارة أكثر. ثمة كلاب تعوي..يرتفع نباحها كما تقترب هي، وعمليات الإنقاذ تتناقص، ولم يعد هناك أمل بأحياء جدد..والجثث توضع على أنساق ثلاثية متساوية.
مال حازم إلى كتفه وغفا من شدة التعب والبرد، ضمّه دون أن يتمكن من إغماض عينيه عن مشهد الخراب، وهو يعيش تلك اللحظات التي كان ينزل فيها الدرجات الأربع نحو قبو المعتقل في فرع الخطيب، تأخذه حكاية السلطان الى أهوال التعذيب، ويحاول أن يتخيل ماذا حلّ ياترى بأمير! هل بقي هناك أم ذهبوا به الى أمن الدولة! رأسه يؤلمه، ربما يؤلمه حقاً. لكنه إحساس يلازمه كلما فكر كيف " أوقفني على الحائط، ثم طلب مني أن اتحرك قليلا ، كنا سبعة موقوفين وصلنا للتو من فرع الخطيب ، الى إدارة امن الدولة - الفرع 285، أمرّ بجانبه كل يوم ، على الطرف المقابل ، مختلساً النظر بزاوية عيني الى السور والبوابة وآثار الإنفجار.
لم أفهم أنه يقصدني بكلامه ،هائماً كنتُ..مغمض العينين، مكبّل اليدين الى خلف..لم أكن موجوداً حيث جسدي. رمى شيئاً نحوي، فأخطأني.
فجأةً..ركلَتُه على إليتي رفعتني بقوةٍ من مكاني، وقذفتني فوق صاحبي فارتمينا. أخذ يركلني بجنونٍ وهو يعوي بالسباب والشتائم، أنهَضَني من ياقة قميصي بقبضةٍ ضخمة، وأنا مثل ريشة..وهو يوقفني وينهال على خدّي كفّاً وراء آخر ..
لم أفتح فمي بكلمة، ولم تصدر عني نأمةٌ أو آهةٌ..وأتعجب الآن من نفسي ، كيف احتملتُ ذلك، وكنت بين يديه وتحت قدميه مستسلماً..ليّناً وهشّاً تماما.
أوقفني في المكان الذي يريد مجدداً، وفك العصبة عن عيني، سدد نظرته القاسية اليّ وقال: أنظر إليّ..حرك فمه المغلق ، ثم قذف بصقتة في عيني، فملأت وجهي ..لصقه

بالجدار، ومضى عني. غير أن صفعة قوية على رقبتي طرقت رأسي بشدة على الحائط ،خلتُ فيها أن جمجمتي تهشمّت، أو أنها صعقة كهرباء، أفقدتني بصري وتوازني للحظة، وسمعتُ آهةً عميقةً متألمةً تخرج من بين ضلوعي.. نعم من حشايَ..وتجرح بحرقتها بلعومي ..ثم ابتلعتني عتمة مديدة " .

حرارته ترتفع رغم برودة الجو، يمسح حبّات العرق المتوالدة على جبينه، ويحسّ بدوار خفيف يعتصره من معدته، وتقلّص مرير يلوي أحشائه. أي وقت هذا الذي يعيد أمامه لحظات ،وساعات.. وأيام التعذيب في معتقل الأمن الخارجي بطرابلس ؟
-ياااااه..وين كنت أنا ؟
ينتفض حازم، كمن لسعته عقرب، وهو يتخيل أن الجرذان والكلاب، تستعد لاقتحام المكان، قبل حلول الظلام، وعليهما تدبر أمر الفرار في الحال!

2

صفعة واحدة فقط، قوية ومفاجئة، كانت كافية ليسقط بين أرجلهم، غائباً عن الوعي.
أخيراً فتح عامر عينيه، وجد نفسه يقف وسط زنزانة إنفرادية، رحبة قليلاً، بالقياس لما خبره فيما بعد عن الزنازين ذات السمعة المشينة، والصيت المرعب الذائع عنها، بين أوساط الناس، والحكايات التي تروى عنها وتصفها بأنها ضيقة ومظلمة، رطبة بلا تهوية إلى حدّ الاختناق. كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة فجراً، حين أمر الضابط، فريق التحقيق، بإغلاق الملف المفتوح منذ ظهيرة الأمس، وأضاف بصوت خافت وهاديء، مع زفرة طويلة:
- خذوه.
تُرك وحيداً كي يرتاح، بعد هذا العناء الطويل من التحقيق..كان أشبه بالوقوف أمام بوابة جحيم، لا مفر من عبورها. عاش لحظات لا يدري تماماً، كيف مرّت، لقد أُحكم إغلاق الباب الحديدي عليه، وترك القفل يتدلى محدثاً جلبته المميزة، في المكان الصامت، ثم تبعه إغلاق بابٍ ثانٍ، ثم بدأت الأصوات تخفت تدريجياً، ولم يعد يسمع سوى خطوات تبتعد فوق الممر الطويل المرصوف بالحصى، إلى أن غابت تماماً..وعمّ السكون والظلام معاً، دفعة واحدة.
أصابه ما يشبه الذهول، شيء ما كأنه تشكّل داخل حوافّ الجمجمة، انجذب إليه شعره، أحسّ به يلتف حول أذنيه وجبينه، مثل وخز إبر خفيف، بدأ حاراً، ثم صار بارداً، وببطء سرى في جسده نحو الأطراف. كان يشعر به ولكنه لا يعرف ما هو، تراخت أصابعه وسقط كيس الملابس الصغير على الأرض.
أصبح بإمكانه الآن، أن ينظر من حوله، لاكتشاف الزنزانه، بيته الجديد! بعد أن سُمح له برفع العصابة عن عينيه، وأن يحدّق في المكان جيداً دون رقيب – ربما - يحصي حركته الآن من ثقب ما.. كما كان عليه الوضع قبل قليل فقط، لا يجرؤ على رفع رأسه حتى، أو أن يحرك يديه، الشيء الوحيد الذي استطاع رؤيته من تحت العصبة، هو حذاءه الأسود، الذي بقي يلمع، وظل ينتعله حتى الساعة. وشيئاً فشيئاً بدأت عيناه تأتلفان الظلمة. مدّ ذراعيه على الجنبين، كي يحدد موقعه في الغرفة الصغيرة، وقبل

أن تلامس أصابعه الحائط خلفه، لمح شقاً طويلاً في الجدار المقابل، يتسرب منه الضوء، اقترب بحذر شديد خطوة واحدة، ثم أخرى، دون أن يرفع قدميه عن الأرض، سحبهما سحباً خفيفاً فوق ما بدى له فراشاً ممدوداً تحته، فاكتشف نافذة كبيرة مغلقة، مثلما اكتشف أنه يمرر نوراً وهواءً نقياً بارداً..ودون تردد، حرك رأسه إلى الأعلى والأسفل عدة مرات، أمام هذا الشق كي يغسل وجهه بالضوء، وينعشه بالهواء، فاستعاد بذلك بعضاً من توازنه النفسي، ليفتح عقله وقلبه على المصيبة التي وقعت فوق رأسه.

سارع بالابتعاد عن النافذة، خشية أن يكتشف الحراس تلصصه عبر الشق، اهتدى إلى فراش في الركن المحاذي للنافذة، رمى جسده فوقه، وتمدد بكامل ثيابه، دون أن يرمي حذائه ، كان جسده الذي هدّه الخوف والقلق والتعب، توّاقاً للراحة.

ما كاد يطبق جفنيه، حتى انتفض جسده، ونهض مذعوراً وخائفاً، كفيه تنفضان عن رأسه ووجهه وثيابه شيئاً ما، لإبعاده عنه، أحس به يمرّ فوق عنقه.. ثم لم يستطع اكتشافه، أغلب الظن انه حشرة مما تمتليء به الزنزانة الفارهة! حشرات تدبّ من حوله، وتطير مارةً بأذنيه، دون أن يراها في تلك العتمة الموحشة. ارتجف قلبه من الحشرات والزواحف، تملكه الهلع تماماً، المكان موحش، ولا حركة لأحد في هذه الساعة المتأخرة التي تقترب من الفجر، والشقوق الطويلة تسمح بمرور الزواحف، وربما عقارب وأفاعي .. دون أن يعترض طريقها شيء، أو أحد ما.

في هذا المكان المسكون بالرعب، توجد فتحتان كبيرتان مميزتان ، صارتا ملجأه إلى الهواء النقي والضوء، والتلصص على الفناء، أولاهما شق النافذة، والأخرى تحت الباب الحديدي المقفل، وكلتاهما تسمحان بدخول كل شيء إلى الغرفة، كان مجرد التفكير في ذلك، يُذهب النوم عنه، وينسيه ما هو فيه أصلاً، من بلاء.. وكل ما حدث له قبل ساعات قليلة فقط ، ليبدأ الفزع التهامه شيئاً.. فشيئاً.

تكوّر في زاوية الزنزانة، ركبتاه إلى صدره، ويديه فوقهما، استعداداً لمواجهة الخطر الداهم، أما عينيه، فقد جهد لابقائهما مفتوحتين عن آخرهما، تحدقان من حوله يمنة ويسرة، أمامه، وفوقه دون أن تميزا شيئاً لشدة السواد. بقي في حالته تلك، حتى شعر بالبرد يتسلل إلى أوصاله، وينال منه، ثم بدأ يرتجف وهو يضمّ ثيابه إلى جسده بحثاً عن الدفء، ولم تلبث حرارته أن ارتفعت، أخذ العرق يتصبب من جبينه، وأحس أن الحمّى التي وّلدها الرعب، قد أدركته.

- انهض.

انتفض من غفوته، وما زال الكرى يغالب جفنيه، فرك عينيه، كان الضوء يملأ الغرفة، عاجله الحارس بالسؤال:

-تريد شيئاً؟

- لا. أجاب ببرود، فعلت وجه الحارس دهشة استنكار.
- تريد الحمّام؟
- لا.
نظر الحارس إليه بإمعان، ماداً رأسه للأمام قليلاً، وقد رسمت شفتيه وحاجبيه علامات استغراب. هزّ رأسه، وأخذ الباب معه. دفع المزلاج ثم أحكم إغلاقه بالقفل. لم يتحرك من مكانه، لكنه بدأ يستيقظ رويداً، وأخذت خمرة النوم المعشعشة في رأسه بالتلاشي، نظر إلى ساعته، إنها الرابعة والنصف : ما يزال الوقت مبكراً. جال ببصره في الغرفة المضاءة، وحطت عينيه أخيراً على كيس الثياب الذي اصطحبه من البيت، وقرر خلع البذلة السوداء والقميص الأزرق، وارتداء المنامة. أخيراً خلع حذاءه، وضعه بأناةٍ قرب الفراش، باتجاه الباب، وعلّق ثيابه على أكرة النافذة. تمدد ، وعاد يكوّر جسده، بحثاً عن الدفء، أغمض عينيه في محاولة للنوم، وسط الضوء هذه المرة.. لكنه لم يستطع. شرد ذهنه، وغامت الدنيا في عينيه الدامعتين، ولم تمض سوى دقائق فقط، حتى تهاطلت دموعه بصمت، ارتجفت شفتيه، وارتعش فكيه واصطكت اسنانه، وهو يحاول كتم النشيج الذي أخذ يعلو حتى صار جسده يهتز مع النهنهات.
بكى بحرقة. غسلت الدموع وجنتيه.. ترك روحه ترتاح من شدة القهر الذي بدأ يبني أعشاشه في ضلوعه، تمنى لو أنه شجاع بالقدر الذي يفتح فيه صدره، بشقٍ طويلٍ من الحلق حتى السّرة، يزيح الضلوع، وينتزع القلق، والخوف، والقهر من داخله مرة واحدة.. وإلى الأبد. لا يتذكر الآن، أنه بكى بكل هذا الألم، من أجل شيء ذي معنى، شيء له قيمة، يستحق أن تبكيه الرجال، كالحرية. بلى، تذكر أنه بكى في أربعة حزيران 1982، ليس من أجل خليل حاوي، صحيح آلمه موت شاعر أحبه، لكن "إسرائيل" اجتاحت لبنان! ثم تتالت البكاءات لضياع بلدان ومدن وأسماء.. فجأة لمعت في ذهنه فكرة أخرى:
- لماذا أبكي الآن؟
لم يكلف نفسه عناء البحث عن الإجابة، يدركها في قرارته، ولكنه يريد أن يغيّر الموضوع، أو ربما أن يزيف حقيقة الأمر، فأسباب البكاء قد تتعدد، وتتضافر، وتتراكم، ثم يرمي بها خلفه! جفف دموعه بمنديل أبيض، منديل ورقي من بقايا مناديل الحرية.. ناعم ومعطر!
أخذت عيناه تمسحان المكان أمامه، بشرود، تعرّف إلى شكل الباب: تلمسه ضغطه بكفه، تحسس برودته، فلم يتحرك أو يحدث أي اهتزاز، اتكأ إلى الجدار ومرر أصابعه فوق مفتاح المصباح، أطرق برأسه ملياً، ثم عاد ليتفحص الزنزانة. كانت نظيفة، أدهشه ذلك، فراش أرضي أزرق، نافذة واسعة، وفي الزوايا العليا ثمة بيوت

صغيرة للعناكب.
يبدو المعتقل حديث البناء: الأرض بلاط، والجدران مطلية بالأبيض، والنصف السفلي باللون المائل للأصفر اللمّاع، وللنافذة ألواحٌ زجاجيةٌ من الداخل تليها قضبان حديدية، ثم ألواح خشبية. وكل ذلك، كي تكون مكاناً مريحاً للضيف، الذي إما رأى نجوم الظهر، قبل أن يدخل هذا المكان، أو أنه سيراها لاحقاً.. ويعدّها مراراً، بعد أن ينال حظه من التدليك، والرفس، واللكم، مع وجبة مميزة من الشتائم. عاد إلى فراشه، رفعه لتسوية المكان، فاكتشف صفاً طويلاً من الصراصير والزواحف الأخرى، تروح وتجيء بمحاذاة الجدار. هاله المنظر، وأخذ ينفض الفراش، ويطرد تلك المخلوقات التي يخشى أن تنكد عليه مقر إقامته الجديد، كانت من الكثرة لتنتشر في الغرفة، وتطير، وتحط على الجدران، رمى كل شيء، ونفخ متأففاً:
- ماذا فعلت؟ هل أنا بحاجة لمثل هذا الآن؟
أعاد كل شيء إلى مكانه مكرهاً، الفراش البالي الرث، الغطاء الرقيق الممزق، وهذه الرائحة النتنة التي تفوح منهما. كان الفراش ضيقاً، وقصيراً، وكذلك البطانية. ولم تكن هناك وسادة! تمدد، فظلت قدميه خارج الفراش، أخذته الحيرة والارتباك، وهو يفكر بوضعه هذا!
- هذا هو الانقلاب! انقلاب بعينه!
أحسّ بالرهبة وهو ينطق بكلمة "انقلاب"، رددها أكثر من مرّة، تطلّع حواليه ليتأكد أنه لوحده، ثم أعاد نطق الكلمة عامداً، بصوت خفيض، حتى لو كان للحيطان آذان، فهل يضير الشاة شيئاً بعد ذبحها، كما قالت أم الزبير بن العوام لولدها؟ وهاهو الآن هنا. وقع المحظور، وقضي الأمر، واعتقل. انقلبت أموره وأحواله رأساً على عقب، من الحرية إلى المعتقل، ومن الشقة المريحة والسرير الدافيء، إلى هذه الزنزانة المقرفة، والفراش النتن. من الوفرة، إلى الحرمان والعدم.. والله وحده يعلم ما الذي سيأتي فيما بعد.
فجأة، خطر له أنه مراقب داخل زنزانته هذه، منذ أن دخلها. تملكه إحساس، بأن كل شيء في هذا المكان يراقبه، ولابد أن تكون هناك عيناً ترصده، وتسجل حركته. اعتدل في جلسته، وعاد ينظر مجدداً في الزوايا، والباب والنافذة. نهض وتقدم نحو الشباك بهدوء، حدق فيه، ثم انتقلت عيناه إلى المصباح المستطيل فوق الباب، وتمعن فيه جيداً، يريد أن يكتشف الكاميرا، أين هي؟
-لا شيء، ولكن لابد أن هناك وسيلة ما، لمراقبتي. ألا يراقبونني يا ترى؟ إنها داخل علبة النور بالتأكيد، موقعها المميز، يشير إلى وظيفة المراقبة، وشكلها قادر على إخفاء أي جهاز للتصوير، أو التنصت! لكن ما الذي يمكنني فعله هنا؟
عاد إلى مكانه، ورمى رأسه فوق ركبته، زفر زفرة طويلة خرجت من أعماقه، ثم

تأوه بحسرةٍ وألم. انتشلته أصوات المفاتيح تدور في الأقفال، رفع رأسه، والباب يفتح عليه. أطل الحارس بجسده النحيل، ورأسه الأصلع،يسبقه دخان سيجارته قبل أن يخاطبه آمراً: تعال.
رمى إليه بعصبة العين السوداء، وطلب إليه أن يغطي عينيه جيداً ويلحق به.
- أريد الحمام.
انتبه الحارس لوجود الساعة في معصمه، كانت ساعة جميلة أنيقة لامعة، مطلية بالذهب! قال له دون تردد:
- هات الساعة، ممنوعة.
- لكنهم لم يأخذوها.
- هاتها.. ضع العصبة، هيا. قال بحدّة.
- والحمام؟
- هناك، الحمام عندهم.
أدرك أن الحارس، لن يصبر عليه أكثر من ذلك. كانت العصبة كالنظارة تماماً، دائرتان من القماش الأسود السميك، ولكنه ناعم، متصلتان بمطاط قماشي. يسهل تثبيتها فوق العينين. وضعها، وتقدم باتجاه الباب.
انتظر، قال الحارس، تأكد من إحكام العصبة على عينيه. تأبط يسراه، واقتاده خارج الزنزانة، ثم خارج المبنى. سلك طريقاً متعرجاً لخطوات قليلة، قبل أن يمضي به في خط مستقيم فوق أرض مفروشة بالحصى. لم يسمع أي صوت، أو حركة لأي شيء في المكان، سوى انزياح الحصى تحت الأقدام، وهي تمضي إلى المجهول. أثار الهدوء دهشته، وتساءل في نفسه: أين تراه، وفي أي مكان من المدينة هو الآن؟ أحس بندى الصباح الربيعي. مرت به نسمة ناعمة، حملت إليه دفقة من الهواء النقي، خففت من توتره الداخلي، واضطرابه النفسي قليلاً. لم يتحدث إليه الحارس، سوى مرتين: إنزل درجه، إركب درجتين.
- إلى أين يمضي بي؟!
أوقفه الحارس بعد قليل، ثم وضع القيد في معصميه. نبهه إلى وجود درجتين، عليه أن يصعدهما بحذر. دفعه إلى الأمام قليلاً، ثم أداره بيديه آمراً أن يجلس بلا حراك.

3

الفجر والبحر!
فتَنَتْه صورة التلاقي في المدى البعيد، كان الهدوء يبعث في النفس الراحة والانتعاش، والمدينة الغافية على كتف الماء، بدأت تدبّ فيها حركة الناس والسيارات، دونما أي ضجيج. حضّر قهوته، وقبل أن يجلس إلى الطاولة أيقظ زوجته وطفليه، ثم شرع يعدّ نفسه للكتابة، أخذ رشفتين لذيذتين من القهوة الساخنة الفوّاحة بالهيل.. وهو يرمي بصره نحو البحر القريب، عبر النافذة، والشمس تطلع رويداً.. رويداً خلف شجرات النخيل والعمارات المقابلة، من بعيد.
الأوراق البيض تدعوه إليها، تغريه بالكتابة.. والطاولة النظيفة الخالية ، تشعره أكثر، بتلك العلاقة الحميمة بينه، وبين أوراقه، وهذا الركن الهاديء، فجراً في منزله. نقل القلم بين أصابعه، ووضعه فوق الورق، وعندما رفع رأسه قليلاً رأى باخرة ركاب، تشق طريقها إليه مباشرة عبر الميناء الذي يقع تحت مدى نظره، فتح النافذة، فانسرب هواءٌ باردٌ نقيّ مشبعٌ بكل ما يحمله صباحٌ ربيعي، في أوائل شهر نيسان. تخيل نفسه واحداً من المسافرين في البحر، انتشى، وأحسّ بالزهو، وهو يتخيل الأبواب تفتح أمامه، يضع ختم الدخول أو الخروج على جواز سفره، يشدّد قبضته على تذكرة الركوب، تمرّ به وجوه، وعيون، وتشير إليه أكفٌ تلوّح مودعة، على أمل اللقاء، أو مرحّبة، فرحة تنتظر هداياها من المسافر العائد.
نهض إلى النافذة، وأمعن النظر في آخر خط للبحر مع السماء، في الأفق البعيد.. وأغمض عينيه براحةٍ تامة على المشهد الآسر. كان يزاوج بين عشقه للبحر والسفر معاً. وأخذ يستعيد ساعات رحلته الأخيرة التي نقلته بين عواصم ثلاث، وقارتين، وبحرين.
لم يمض على عودته من بغداد سوى يومين فقط، حتى أرسل إليه "المهندس" يطلب جواز السفر، وصوراً شخصية، كان عليه أن يودعهما لدى مكتبه، دون أي سؤال. في الأمر سفر، ولكن إلى أين و متى؟ فلا يمكنه معرفة شيء الآن: " هكذا هم ..، كل شيء لديهم عاجل، وطارئ، وسريّ، خاصة إذا كنت تعيش في دولة تحكمها طغمة ديكتاتورية راديكالية، عسكرتاريه، ويمكنني أن أضيف من مصطلحات الغرب والشرق ما أشاء.. جميعها تعبر عن الواقع، منفردة، ومجتمعه.. لا يهم! ". بعد ثلاثة أيام، عقدت الدهشة لسانه، وضع سماعة الهاتف، وقد أذهلته المفاجاة، مكالمة

منتصف الليل أبلغته أن يكون جاهزاً صباح الغد، للسفر صحبة "المهندس".
- ما الأمر؟
قطع صوت شام شروده، لم يجب، لكنها عادت تلحّ:
- ماذا يريدون؟!
- أسافرغداً.. إلى الكويت.
انفرجت أساريرها، ولمعت عيناها فرحاً، قفزت نحوه ، التصقت به قائلة:
- سوف ترى كم هي جميلة، تذّكر كلامي، وأنت تسير في شوارعها.
- انظري في المفارقة قبل ذلك: بالأمس كنتُ في بغداد، وغداً في الكويت! وبينهما ما صنع راعي البقر..
- وما دخلك أنت في هذا؟
- أخاف أن أشعل حرباً جديدة!
وعلت ضحكتان مجلجتان في المكان، غير أن تنهيدة حسرةٍ وأسى ندّت عنه، صمت هنيهة وأطرق:
- عليّ أن أرتب أوراقي وأموري، لا وقت لديّ. غداً سنغادرعلى متن طائرة خاصة!
- وبذلك تكون أول واحد في عائلتك يركب طائرة خاصة.
- أضيفي ذلك إلى القائمة، لا تنسِ.
وعادت الضحكة إلى وجهيهما، وارتمت الشفاه إلى بعضها تضفي جواً من الألفة والسكون، والبهجة الأثيرة.
اقتربت السفينة من الميناء، وأخذت تستدير نحو الرصيف وصفيرها المتقطع يملأ الأفق. وما زالت عيناه مأخوذتان بسحر الفجر، غارقاً في ذكريات أيام الكويت، ستة أيام بنهاراتها ولياليها، ليغادرها إلى دمشق، فيمضي ليلة لاهثة بين شوارعها وحاناتها، تحِفّ به نساء ثملات عابثات، دون أن تثيره، أو تحظى بإعجابه، أياً منهن، رغم جمالهن، وسطوة عطورهن، وأنوثتهن الفيّاضة على الطاولات والكراسي، وزبائن حانة الفاندوم.
- أنا نغم..
تقدمت منه، انحنت بجسدها على حافة الطاولة، وحدقت بعينيه بجرأة أربكته. لم تنتظر أن يدعوها للجلوس، أحاطت أصابعها بكأسه، وقالت:
- أريد كأساً.
- اطلبيه!
- عرق.
أشار للنادل كي يلبي طلبها، وتابع خطواتها نحو البار، تملّى جسدها، خصرها الناحل، وقوامها الممشوق، كان لها صدر طافر، وردفين رجراجين، وشعر أصفر

لبشرة أقرب إلى السمرة! تناولت كأسها والتفتت بوجهها إليه، غامزة، باسمة، تحييه، وعندما همّت بالعودة إليه، أشاح بوجهه نحو النافذة، يكحِّل عينيه بليل دمشق الجميل، مأخوذاً بلألأة الأنوار على سفوح قاسيون.

عاد إلى أوراقه البيض، وقهوته، وراح يكتب بهدوء، وصفاء ذهني، في نهار رائق. أمضى وقتاً طويلاً في التأمل والتفكير والتذكر، وها هي شام تقف خلفه تحتضن كرسيه، بعد أن غادر رامي وريم إلى المدرسة.

- تشرب قهوة؟

- اشتقت لقهوتك. .

- فقط؟

أمسك بكفيها، وطوى ساعده خصرها، جذبها بحنوٍّ ولطفٍ إليه، قال هامساً يشمّ أنفاسها: وإليك.

قبلته، جلست على فخذيه فاحتضنها، سرى الدفء في أوصالهما، وألهب العناق جسديهما التواقين لزهورٍ بريةٍ في فضاء لا حدود له.

- اتركيني أعمل.

- تعال.

نهض يتبعها تاركاً خلفه الأوراق والذكريات، والشمس الطالعة لتوها من فراش الليل. حلق ذقنه، أخذ حماماً دافئاً، ثم ارتدى ثيابه، وربطة العنق الجديدة التي ابتاعها من فتاة صينية، تفرش بضاعتها في حديقة عرنوس، عند قدمي الصنم الأجرب المنتصب منذ سنوات موغلة بالتعب. كانت قهوته جاهزة، ومع أول رشفة دقّ جرس الباب. دخلت سلام تحييه بصخبها وضجيجها المعهود. وبدأت أسئلتها تنهال عليه وهي تأخذ قهوتها.

- أين أنتِ أمس؟!

أشعلت سيجارة، وأخذت نفساً عميقاً، ثم نفثت الدخان إلى أعلى، فتشكلت غمامة فوق الطاولة.

- لو جئتكم طردتموني.. غمزت شام، وأضافت: تركت لكم الجوّ.. أختي.

التفتت نحوه وعادت تسأله، وهو يجيب باقتضاب، وقد تهيأ للخروج:

- رحلتك كانت ناجحة !

- جداً، أكثر مما تتصورين.

- واضح، سيماهم على وجوههم.. عزّ يا عمي.

عبارتها الأخيرة، أثارت انتباهه، حقاً ينتابه الآن شعورٌ بالعزّ، كانت زيارته ناجحة، على صعيد العمل تحقق إنجاز مهم، بما أضافت إليه على المستوى الشخصي، لقد تقدم خطوة مميزة إلى الأمام. خطوة ثانية، بعد صدور كتابه الأخير، إحساس

بالرضى والفخر، أخذ به.
- أنتِ على حق، هذه أيامُ عزّ، وشعوري لا أقدر على وصفه.
حمل حقيبة أوراقه، ومضى خارجاً من البيت، الساعة تقترب من الثانية عشرة والنصف ظهراً، اتجه نحو السيارة في المرآب المقابل للعمارة، وفيما هو يعبر نحو البوابة، مال عليه جمعة الغاني حارس المرآب، وهمس في أذنه:
- جماعة يسألون عنك.
- أي جماعة؟
لمعت عينا جمعة وهو يهز رأسه نفياً لمعرفة الجماعة التي تسأل عنه، وأدرك الخوف الذي بثته عيون الغاني، لكنه لم يأبه، أومأ له برأسه، طمأنه، دفع في يده قطعة النقود، وانطلق بهدوء تتبعه دعوات جمعة.
لم يتوقف عند ذلك الأمر، كانت وصلت إليه معلومات متفرقة، لكنها مؤكدة، بأن عدة أشخاص، وسيارتان صغيرتان تتناوبان مراقبته وتعقبه حيثما تنّقل، منذ عدة أشهر. كان مؤمناً بقرارة نفسه، أن نشاطه ومقالاته، رغم جرأته الظاهرة، لم تكن تشكل خطورة كبيرة على الدولة، وأن ما يقوم به، وأفكاره التي يجاهر بها، ليست سوى محاولة جدية للمساهمة في التغيير نحو الأفضل. يدرك أيضاً، أنه بات في الفترة الأخيرة مزعجاً، ومقلقاً، وأن احتماله بات على مضض..ولكنهم لن يلحقوا به الأذى.
هكذا كان تقديره للموقف، لأنه كان يجانب الضرر والتشويه المتعمد في ما يقول ويكتب، كانت قناعته كبيرة، بأن الأجهزة الأمنية، تراقب أنشطته الثقافية والسياسية، ومقالاته، وتحتمل قسوته وجرأته في تناول بعض القضايا.. إلى درجة النفور منه، وشدّ النواجذ. فكّر وهو ينعطف بسيارته يساراً، عكس اتجاه السير، كيف يمكنه تفادي الازدحام الشديد للشوارع، في ساعة الذروة هذه، وكيف يصل إلى مكتبه لإنجاز عمل عاجل.
قبل أن يغادر "المهندس" الكويت باتجاه فيينا، تقدم منه معتذراً:
- لم تمنحنا السفارة النمساوية، تأشيرة دخول لك، كنتُ أرغب بمرافقتك لنا.. الأيام قادمة، وعلى كل حال، أنا بحاجة لجهودك في طرابلس لإنجاز ما اتفقنا عليه، والتحضير لجولة جديدة..أنت تعرف محبتي للشعر..وأن تكونَ رفيقَ سفري، خيرٌ من هؤلاء - وأشار إلى مرافقيه - الذين يهتمون بكل شيء، إلاّ الأدب والفن..
- ليس اهتمامهم، هذا كل ما في الأمر.
- إنها مسألة إحساس.. ذوق.
توقف قليلاً، شعر بضيق يتملكه، كأن ثمة معاناة تنغص عليه عيشه الميسور، وقد توفرت له أحوال مادية، واجتماعية عالية، فوق الريح.. مال، وجاه، وسلطة. نظر إليه مجدداً، ودعاه لتناول القهوة، وراح يحدثه في شؤون الأدب، والكتابة، كشف له

عن هوايته في كتابة الشعر، وعاد للتذمر من مرافقيه:
- تصور..أحياناً وأنا أجلس إلى مقهى باريسي، المطر يهطل، وكل ما حولي جميل، موسيقى ناعمة، وجوه باسمة، ألفة تدغدغ مخيلتي، فلا أتوانى عن كتابة نصّ، على ورق المقهى، أحبُ أن يقرأ أحدٌ ما في تلك اللحظة ما كتبته، أو يسمع ما أقوله، فلا أجد أحداً..
حدثه بحرقة عن مرافقيه "المتعلمين" المنشغلين عن شعره، وأفكاره، وخواطره، بلعب الورق، أو المشتريات، وأشياء أخرى كثيرة لا تمت إلى عالم الإبداع، والروح، بأية صلة.
-أريد أن أقول لك شيئاً..في الحقيقة هي خدمة، أريدها منك.
صمت قليلاً، وكأنه يعبر أعماقه، بحثاً عن إشارة تطمئنه إلى أن طلبه مرحبٌ به ومجاب، قبل أن يُكمل:
- قرأت بعناية، بعضاً من أعمالك الشعرية، وأطلّعتُ على كتبك. أفكر بأن أضع أمامك كتاباتي، وستكون أول من يراها، أريد اهتمامك بها، مراجعتها، وإعداد ما يصلح منها لنشره في كتاب، سكت هنيهة: ثقتي كبيرة بك.
- أنا على استعداد، تلزمنا جلسة خاصة لذلك.
- ..ونتفق على كل التفاصيل .
وضع كفه بكفه يودعه، ونهض مغادراً قاعة الفندق باتجاه المطار، دون أن يلتفت خلفه.
الشارع الذي يقطنه ضيق ومزدحم، ولا تزيد المسافة التي يتوجب عليه تجاوزها مئتي متر، وبعد لم يخطو سوى أمتار. احتفظ بهدوئه، لا توتر ولا قلق. فضّل تجاوز التقاطع نحو الطريق الساحلي المفضي إلى غايته بعيداً عن الإزدحام. شعر بأن السير قد توقف تماماً، نظر في المرآة خلفه، فوجد طابوراً طويلاً من العربات تنتظر، وأمامه سيارة واحدة، جيب كبيرة تسدُّ عليه منفذ الخروج. أدار جهاز التسجيل فانبعثت موسيقى كارل أورف في سيمفونيته الشهيرة "كارمينا بورانا" الأثيرة لديه. لمح في المرآة شاباً، يشق طريقه بالمرور عبر السيارات ويتقافز بينها دون حرص. استهجن في نفسه لامبالاة الشاب، وهو يعرّض حياته للخطر. راقبه وهو يقترب منه ثم يعترض سيارته أمامه، ويلتفّ نحوه. انحنى إليه، ونقر بإصبعه على النافذة بلطف، حيّاه، وأشار له أن ينزل زجاج الشباك، ثم مدّ يده من الفتحة الضيقة مصافحاً:
- الطيب على السلامة، أستاذ عامر.
- الله يسلمك.. أهلاً!
لم تَطُل دهشته لهذا الغريب الذي يقف إليه، لم يتمكن من التعرف إلى شخصه، ولا يتذكر أنه أحد معارفه، كرر عبارته الترحيب به.

- أطفئ محرك السيارة.
فتح عينيه دهشة وهمّ بالكلام، لكن الغريب، بحركة لم يرها، شهر مسدساً في وجهه، وأضاف آمراً:
- كما قلت لك.. إفعل، وانزل من السيارة، دون ضجيج.
- كيف؟!
- كما سمعت دون شوشرة.. تفضل.
تسارعت دقات قلبه، وأحس بالحرارة والدم يصعدان إلى وجهه ورأسه، كل شيء أصبح أمام عينيه غمام. عاجله صوت الغريب، حازماً هذه المرّة، ملوّحاً بالمسدس:
-هيا!
أطفأ محرك سيارته، ترك مفاتيحها، وترجل منها، وما أن وطئت قدمه اليسرى الأرض، حتى أمسك به من رسغه وجرّه بهدوء خارج العربة، لوى يديه إلى الخلف، أسند جسده ووجهه إلى السيارة، وأغلق القيد على معصميه. في الأثناء،شابٌ آخر يقفز داخل السيارة ويشغّلها. نظر حوله، أراد أن يصرخ، أن يستنجد بأحد، لم يكن هناك أحد على الإطلاق. عادةً ما يتجمع شباب الحيّ في الركن المقابل له تماماً! لكنه الآن يرى اثنان غريبان يحدقان إليه، تفصله عنهما أمتار قليلة.
- من أنتم، ماذا تريدون؟
لم يجب الغريب على أسئلته، كل شيء تمّ بسرعة وهدوء تام، وبواسطة شخص واحد فقط، تم اختطافه من الشارع، في مركز المدينة، ساعة الذروة، وفي وضح النهار.
- طيب، اسمحوا لي إخبار البيت.
- فيما بعد.. اطمئن.
قاده إلى إحدى السيارات المتوقفة في الطابور خلفه، سيارات بيضاء صغيرة متشابهة، ودفعه إلى المقعد الخلفي: تفضل أستاذ .
لحظة، وامتلأت مقاعد السيارة عن يمينه ويساره، وأمامه. التقت عيناه بعيني السائق الذي ملأت وجهه وعيناه ابتسامة عريضة، وهو يرحب به.
انطلق طابور السيارات، وبدأت العربة التي اختطفته ، تشق طريقها بيسر وسهولة، وسط الزحام الشديد، نحو المجهول، تقف عند إشارات المرور، تجتاز الناس بصورة طبيعية تماماً، دون اكتراث. كان يتابع حركة الشارع، الناس والسيارات، ينظر إلى الأبنية والأشجار، والمركبة تنساب في طريق يعرفها تماماً، عبرها بقدميه مئات، بل آلاف المرات، وفي سيارته، إلى بيته أو عمله. إلى أماكن واتجاهات كثيرة في المدينة. مرت السيارة بقصر الشعب، الذي كان ذات يوم قصراً للملك ومن قبله "بالبو" الحاكم العسكري الإيطالي. وانحرفت مع الطريق يساراً نحو جسر الإذاعة.. الإذاعة التي كان يحلّ ضيفاً على بعض برامجها، فيما مضى.

اكتشف على الجسر، أن السيارة التي كانت تسدّ الطريق أمامه، ضمن الموكب الذي يرافقه الآن مع عربات أخرى اثنتان، ثلاث، لا يعرف. تجاورت السيارتان، تبادل ركابها التحية، وإشارات النصر! ثم تخاطَبَ السائقان عبر جهاز الإرسال يطلب منه الأمانة. وعبر النافذة، رمى شيئاً أسود لم يتبينه، التقطها أحدهم بمهارة، ومررها إلى الخلف. وقبل أن يصل الموكب إلى تقاطع الطرق الرئيسية المؤدية إلى الجامعة، خاطبه الغريب:

- أخفض رأسك.

استجاب، وبعد لحظات وضع عصبة سوداء على عينيه. تلك هي الأمانة! لم يعد يرى شيئاً البتة، لا الشارع، ولا الناس، ولا الشجر، ولا حتى الضوء. صار رأسه، تماماً بين ركبتيه، وأهمّ من ذلك كلّه لم يعد يعرف، إلى أي مجهول يمضي به الخاطفون.

4

اقتيد بضعة خطوات إلى غرفة جلس فيها على مقعد خشبي، فُك قيده، ووضعت كفيه على ركبتيه ثم أعيد القيد إلى معصميه، وأُسند ظهره إلى الجدار. كان كتفيه يؤلمانه بشدة بسبب تقييد يديه إلى الخلف لأكثر من ساعة. بقيت العصبة على عينيه، في ظل صمت يلف المكان. لم يكن هناك أي صوت داخل الغرفة، ولم يتحدث إليه أحد.

مضى وقتٌ، وبين الفينة والأخرى، يسمع خطى قريبة منه، على الحصى.همهمات، أو أحاديث خافتة بين أشخاص لا يراهم، ولم يكونوا قريبين منه. اعتقد أنه في وضع المراقبة والملاحظة، أو أنهم تركوه مرمياً هنا، هكذا عمداً، فيؤدي به الحال إلى التوتر. كان هادئاً، لكن داخله تعتمل فيه الأفكار والوسوسات، وصار كالقابض على الجمر. يحاول أن يفكك الرموز والأشياء التي حلت به، ليفهم لماذا هو هنا الآن. يحاول جاهداً أن يبقى متماسكاً على الأقل، حتى تنجلي صورة الأمور أمامه، فيعرف لأي شيء اختطف. وتساءل في نفسه: ما عساهم فاعلين فيه، وكيف السبيل لاخبار زوجته وأطفاله، بما هو عليه الآن.

أصابه وجوم شديد، وعلا الشحوب سحنته، أحسّ بأن وجهه قد ضمر، ونشف منه الدم. أخذت خفقات قلبه تتسارع وتضطرب، وبدأ البرد يسري في جسده، تصطك أسنانه، وتهتز قدميه، صار التوتر والقلق يسيطران عليه تماماً، والوقت يمر بطيئاً.. بطيئاً.. ويكاد الانتظار والصمت يقتلانه. ضيق التنفس يزعجه، وأنفاسه تعلو وتتقطع، نوبة جديدة من الربو بدأت بالسعال الحاد، إلى حدّ الاختناق دون أن يتمكن من سحب بخاخة الفينتولين من جيبه، وأَخْذِ جرعة عاجلة من الدواء.. يداه المقيدتين وعينيه المعصوبتين، جعلت منه شخصاً عاجزاً، وأيضاً بلا قيمة.

- عندك السكر؟

سمع صوتاً يسأل، لم يجب أحد.

- قلت لك عندك السكر؟

أحس بالصوت فوق رأسه أكثر حدّة، لم يفهم معنى السؤال.

نفى بصوت واهن، متهدج، خرجت الحروف من حلقه، مخنوقة العبرة، وهو يحاول أن يُظهر هدوءاً وتماسكاً، لم يبق منهما إلاّ النذر اليسير، خيط رفيع لن يلبث وأن ينقطع أمام استمرار حالته هذه. وفجأة امتلأ المكان بالضجيج، أصوات، وأشخاص يدخلون، يتحدثون إلى بعضهم بصوت عالٍ، وبعبارات متناثرة، وآخر يرفع عقيرته بالمواويل، بصوت أجش، يرنّم أغنية شعبية شائعة، وثالث يلحّ على صاحبه أن يعطيه سيجارة، ويحلف له بالله أنه نسي علبة الدخان في البيت، وكذلك الولاعة..!

- يا شباب، يا شباب.. لحظة. نادى أحدهم، ثم أضاف متسائلاً: آه.. ضيف، يبدو أنه ضيف جديد.
- منذ زمن لم يزرنا ضيوف..
- لنرحب به إذن.. ما رأيكم؟!
مدّ أحدهم يده إلى ذقنه،ودفع رأسه إلى أعلى بقوة ثم لكزه بقبضته على الكتف، فاصطدم رأسه بالجدار: من جاء بك إلى هنا؟
- لا أعرف.
- كيف لا تعرف، ألم ترهم؟
لم يجب،اكتفى بهزةِ رأسٍ نافية.
- يعني أنك لا تستطيع تمييزهم إن رأيتهم ثانية.
- أبداً.
أجاب بسرعة، دون تردد، كاذباً. صورة اثنان منهم لا تمحى من مخيلته، وقد تبقى حتى يموت. الأول مَنْ اعتقله، والثاني مَنْ رحبّ به في السيارة التي اقتيد فيها.. هناك أشياء وحوادث وأشخاص، لا يمكن نسيانهم.
- ماذا فعلتَ؟
- لم أفعل شيئاً..
صرخ بصوت عالٍ، وانفعال شديد:
- كذاب، إذن، لماذا جاءوا بك؟ وأضاف بهدوء مشبعٌ بالسخرية: أم.. أتوْ بك من الجامع يا..مسكين؟
أجفلته العبارة، وأربكته، بل إنها ملأت قلبه بالرعب وسارع بالقول:
-لا.. لا أبداً، أي جامع؟ أنا لا أصلي حتى!
انفجر الجميع ضحكاً، وراحوا يرمونه بتعليقاتهم اللاذعة ، وينعتونه بأقذع الصفات، وأبشع الكلمات، باستهزاءٍ وسخريةٍ مرّة. كان خائفاً أن تلصق به اتهاماتٌ ما أنزل الله بها من سلطان، كالعادة.. وبكل بساطة يمكن اعتباره عضواً في تنظيم سياسي إسلامي أصولي متطرف، ومحظور..كالجماعة الإسلامية المقاتلة، مثلاً. وتلك العبارة كافية لتجلب أجله، وأجل عياله، من اليوم حتى أبد الآبدين. قفزت الى ذاكرته، لوهلة..حكاية ميخائيل المتهم بالإنتماء للإخوان المسلمين.
فجأة انهالت صفعة حادة ومؤلمة على خدّه الأيمن، فمال معها. وأخرى على الأيسر، فمال من شدتها.. وامتدت كفان نحو ياقة سترته فأنهضته، ثم أعادته إلى مكانه، بعد أن سمع صوتاً ناهراً..فربّت على كتفه، وتركه. لكن فوهة مسدس باردة، حطت على عنقه، تحت الأذن:
-إذن أنت تارك للصلاة.

لا إرادياً، أجاب كاذباً للمرة الثانية:
- لا والله، لا!
- والله حيرتنا معك..مرّة لا تصلي، ومرّة تحلف بالله أنك تصلّي..قل الحق ولا تخف، هذه دردشة، لا أكثر.
- أتعرف أين أنت؟!
يتناوبون على طرح الأسئلة، الابتعاد منه والاقتراب، أوالوقوف فوق رأسه. كانوا بمثابة الكابوس، أو صخرة تجثم على صدره..لا يعرف ما يجري حوله، وليس بوسعه أن يطمئن نفسه على شيء.
- كل هذا الترحيب.. ولم نتعرف على الضيف.
-لا يهم اسمه، ومن هو، يكفي أنه شرّفنا.
- ما اسمك يا ابن الـ..
-لا..لا..ألا ترى أناقته؟
سوف يجيب على كل الأسئلة، كما تحب، أليس كذلك.
وتتالت الأسئلة عليه كغبار يرتطم بوجهه،عن بزته.. من أين؟! والقميص،وربطة العنق،والحذاء،والجوارب..
- ما شاء الله، أمم متحدة، مجتمع دولي.
- والعطر يا شاطر؟
- فرنسي.
خبط بيده على الطاولة بعصبية، ورفع عقيرته بالسباب والشتائم. لقد وجد ضالته في أجوبته.
-هذه هي.. هذه هي يا شباب، الإزدواجية.
ثم خفت صوته، وراح يتحدث بحروف ممطوطة مسمومة:
- عنده ازدواجية، وهذه وحدها تكفي لقصّ الرقبة. شوفوا شغلكم معه، شباب، وشوفوا الساعة، والقلم، أكيد في جيبه قلم.
امتدت أيادٍ تبحث في جيوبه عن أي شئ.
- الساعة سويسرية، لكن القلم فرنسي.
- ممتاز، ممتاز.. هذا عنده تثليث، ما عنده ازدواجية، حرام ظلمناه. التثليث أعظم وأشد، والعياذ بالله. كل شيء صار واضحاً عندنا.. وبالثلاثة أيضاً. كلّه غربي: القلم، والبذلة، والعطر!
- ياويله، سواد نهاره وبياض ليله!
- شاي.. شاي بالنعناع، هاتوا لنا شاي، نشّف ريقنا الأستاذ.
نادى أحدهم، بصوت عالٍ، كأنه في صحراء، وصوته يكاد يصمّ أذنيه، فيما الرذاذ

يتطاير من فمه على وجهه. شمّ رائحة الفم الكريهة، وتقززت نفسه منها على مضض، وبصمت. لا يذكر أن أحداً اقترب منه بصوته، ورذاذ فمه ورائحته، بهذه الصورة منذ سنوات طويلة.. طويلة جداً.. لا يذكر.

- ضيّف الأستاذ شاي.

- الأستاذ يشرب القهوة.. لكن لايوجد لدينا، آسفين.

- ربما يفضّل الويسكي..وعلى ذكر التثليث، يمكن مشتهي عرق لبناني مثلّث، أو بيرة.

- ألم تلصق على أحد مقالاتك ماركة كارلس بيرغ؟

- منذ زمن طويل، سبع أو ثمان سنوات.. كنت أمازح صديقاً.

- ونحن صابرون..هذه فقط صبرنا عليها ثمان سنوات، ألسنا محترمين؟!

قبل أن يجيب، كانت الصفعات تنهال على خديه، واللكمات على صدره وكتفيه، والأقدام ترفسه، حيثما وجدت طريقاً إليه، وهو جالس في مكانه على المقعد الخشبي، مقيد اليدين، معصوب العينين، وإن احتمى بالجدار، فإنه يزيده آلاماً أخرى على رأسه. لم يكن له مهرب يتفادى به الضرب الجنوني المتوالي، كل ما كان قادراً عليه هو حماية وجهه إن استطاع، كي لا يثير شهية المخلوقات المنفلتة عليه، لمزيد من الترحيب به، على هذه الشاكلة!

-هيا نشرب الشاي.

تركوه، نفضوا أكفهم وعمّ الهدوء المكان، إلاّ من صوت إشعال السجائر، ورشفات الشاي التي راح يستمتع بها كل منهم باسلوبه الخاص. ثم تذكروا أن موعد الغذاء قد حان، فانفتحت شهيتهم على أنواع الطعام، يعددونها ويتلمظون على ذكرها، من السمك المشوي والمقلي، والفواكه البحرية المنقوعة بالخمرة، إلى الديك الرومي على الطريقة الأميركية..

- ماذا تفعلون هنا؟

- شاي..ودردشة يا حاج..

- وجودكم هنا، لا يعجبني..هيا انصرفوا..ولا تدخلوا هنا ثانية.

هذا الصوت الواثق الآمر، أدخل الراحة قليلاً إلى قلبه وخفف من قلقه، ليس غريباً على مسمعه، لكن هذه الحفلة أهلكته، وجعلته متعباً ومنهكاً، وحائراً في تمييز الصوت الذي توجه إليه بالسؤال:

- كيف حالك..تبدو لي متعباً، نحن بأولها، ولوْ..الصبر طيب! هل أزعجك هؤلاء الشباب؟ هل اقتربوا منك، أو لمسوك؟!

لم يجب، آثر الصمت. فالعبرة تخنقه، والقهر قد بلغ به حداً مؤثراً، يضغط على أسنانه، يكظم غيظاً مرّاً وشديداً، ويستر في داخله جرحاً دامياً خلفته الإهانات التي

تعرّض لها قبل قليل، دون أي إحساس أو شعور، بأنه إنسان أولاً وأخيراً، وليس مكبّاً للقمامة، يرمون فيه قذاراتهم ومخلفاتهم، ويمضون.
-حالك لا يعجبني، كأنك متضايق، قل لي إن كان الشباب أزعجوك، حتى ولو بحرف! علت نبرة صوته وهو يضيف: إن كانوا فعلوا شيئاً، سأمسح بهم الأرض.. هنا، أمامك.
لم يجب،آثر السكوت.
- على كلٍ هؤلاء شباب صغار، جدد، وأنت عاقل ومتعلم.. اعذرهم، أعرف أنك لا تحب إيذاءهم.
- كما تشاء.
- أريد أن أسمعها منك.. ومن كل قلبك.
- من كل قلبي أسامحهم..نعم.
وندّت عنه تنهيدة، أزاحت عن صدره بعض الهمّ والغمّ، مؤقتاً..أو هكذا خيّل إليه.. بانتظار ماهو أشدّ وأقسى.

5

يتنفس الآن بصعوبة أكثر فأكثر، ثم صار يعبّ الهواء من فمه بكمية أكبر من الأوكسجين، كي يتغلب على نوبة الربو، وكي يبدد الإحساس بالقهر. وأن يرمي بالمهانة التي لحقت به، عبر الزفير. يريد أن يغسل حنجرته من العبرة الخانقة، وصدره من الألم. عاد يفكر في مصيبته هذه من جديد، والأسئلة في داخله تتوالد، سؤال يلد سؤالاً، وليس من جواب. يريد أن يعرف لماذا هو هنا، ومَن هؤلاء، وما الذي يريدون، وكيف يتوجب عليه مواجهة كل الاحتمالات، وإلى أين ستؤدي به الظروف الجديدة هذه!

-فكوا قيده.

أمر "الحاج" صاحب الصوت الأليف، فسارع أحدهم لإزالة الأصفاد، عن رسغيه ، تحررت اليدين، وصار بإمكانه أن يحركهما لتخفيف آلام القيد، وأن يحكّ أذنه، أو أنفه، أن ينشّ الذباب، وأن يفرقع أصابعه إن أراد..غمره شعور كبير بالإرتياح، أصبح قادراً على استعمال الدواء الآن. وما أن مدّ يده إلى جيبه، حتى أتاه الصوت مجدداً:

- كل شيء في جيوبك، أخرجه.

منذ اعتقاله قبل ساعات، لم يفتشه أحد مطلقاً، لم يبحث أحد في ثيابه، أو جيوبه عن أي شيء، كانوا مطمئنين إلى أنه لا يحمل سلاحاً، أو أي أداة حادة، أو شيئاً خطراً، على كل حال طوال الوقت مقيد، معصوب العينين، وتحت المراقبة. أخرج كل ما في جيوبه، يمدّ يده أماماً، فتستلم الأشياء أصابع أخرى، تضعها فوق الطاولة، ويعدد "الحاج" أسماء الأشياء على مسمعه، ويأمر أحدهم بالتدوين:

-قلم حبر باركر، رخصة قيادة، بطاقة تعريف، بطاقة صحفية، دفتر هاتف، مغلف يحتوي على عملة أجنبية، عملة محلية، مفكرة جيب سنوية.

لم يجد علبة الدواء في جيبه، تذكر أنها في حقيبة الأوراق، تردد في طلبها، خشية أن يُرفض طلبه، ولكن صعوبة التنفس حرّضته على التشجع قليلاً، أوعز الحاج أن تسلم له بخاخة الفنتولين، وسمح له الاحتفاظ بها، واستعمالها وقت يشاء، وأمر له بعبوة مياه، وأمره أن يشرب.

- من واجبنا أن نعلمك، مَنْ نحن، وهذا من حقك، على الأقل ترتاح قليلاً.

- أريد أن تعرف أسرتي، قبل كل شيء.
-اطمئن، سنبلغهم، في الوقت المناسب، وهذا متوقف عليك.
اقترب منه، وقف قبالته، لمح من تحت العصابة قدميه، كان يرى حيزاً ضيقاً جداً، ربطة العنق، وحذاءه فقط، خط مستقيم، يبدأ من عينيه وينتهي بالأرض. مساحة صغيرة لا تتجاوز قطعة بلاط. شعر به فوق رأسه، أشعل سيجارة، ثم رفع قدمه اليمنى ووضعها إلى جانبه على المقعد الخشبي، كأنه يحيط به. أضحى محاصراً.. فالجدار خلفه، وهذا الرجل عن يساره وأمامه، أما عن يمينه، فلا يعرف ماذا هناك.
-قل لي.. ما حكاية ختم الخروج؟
التاسعة صباحاً، قبل إسبوع تماماً من يوم الاختطاف، ودّع عامر شام عند باب المصعد، قاد سيارته نحو مكتبه، ترافقه سلام كي تعود بالسيارة، فيما يتوجه هو نحو المطار، باتجاه الكويت..كان بحاجة للحصول على بعض الأوراق والمنشورات المتصلة بمنظمته، وهناك التقى بزملائه الذين ألحّوا على معرفة حيثيات الرحلة إلى الكويت، وسرّ اختيار "المهندس" له شخصياً وهمّ "الأقربون"..والأهم: سرّ الأوراق التي بحوزته، امتنع بلباقة شاقة عن البوح: الأمر ليس من شأنهم، وليذهبوا بأسئلتهم إلى المهندس، إن كانت لديهم الجرأة..
أحس بضيق من اسلوب زملائه، ومحاولتهم الاصطياد في الماء العكر، لا بل الحسد الواضح على محيّاهم.
- عيونهم تقطر لؤماً، وسمّاً، لم أشهده من قبل.
- ربّ يستر، قالت سلام، وأضافت: لا تهتم لأمرهم.. صغار.
كان عليه أن يشق طريقه من أقصى شرق المدينة، إلى أقصى غربها. منطلقاً بأوراقه وحقائبة، يجتاز الطريق البحري السريع، نحو مكتب المهندس. وبعد انتظار طويل، مشبع بالقهوة والشاي، وصل الموكب مدخل المطار، وانحرفت السيارة يساراً، صوب مدخل خاص يأخذ إلى طائرة صغيرة، أخذ الجميع أماكنهم، ولم يمض وقت قصير، حتى كانوا في الجو، يغادرون صوب سماء الصحارى العربية الممتدة من الغرب إلى الشرق.
لم يمرّ المغادرون عبر البوابات المعروفة، وأكشاك الجوازات، وتفتيش الجمارك.. كل شيء سار بيسر وسهولة، كأن أحدهم يغادر من مزرعته الخاصة، على صهوة حصان، لكن عامر لم يدر بخلده، أنه سيغادر دون إتمام إجراءات الخروج على جواز السفر، اكتشف ذلك وهو يهمّ بمغادرة الكويت، اتصل بشام، فأبلغت بدورها لبيب من مكتب المهندس، الذي استقبله في المطار عند العودة، وأتمّ إجراءات الدخول، بعد تأخر ملحوظ ومقلق، تلاه تأخرٌ أغرب في وصول حقائبه، فيما كان الأولاد في انتظاره.

كانت شام قلقة، رغم فرحتها بوصوله ، إلاّ أن التوتر كان ظاهراً على محيّاها، لدرجة أنها تخلت عن قيادة السيارة له. عند الوصول طلبت منه أن يتوقف في منتصف الشارع، أسفل العمارة ،ما أثار دهشته، قالت بحزم:
- قف هنا، في الوسط، مثلما أقول لك.
- لماذا..ما الأمر؟
ترجلت من السيارة، عدّلت ثيابها ونظرت حواليها، كأنها في حالة استعراض، ورفعت يدها تحييّ بعض الجوار، على الشرفات أو فوق الرصيف المقابل، لمس شيئاً غير طبيعي.. لكنه تجاوز الأمر.
سرقت شام بضع لحظات، واختلت به، عانقته، ضمته بقوة، رمت رأسه إلى صدرها، وأحسّ بدموعها تنساب على وجهها بغزارة دون بكاء. رفع رأسها بكفيه وقبّل عينيها الدامعتين، نظرت إلى وجهه ملياً، ثم رمت رأسها على كتفه وهي تتمتم بعبارات الشكر والحمد بوصوله، بعودته إليها أخيراً.
انشغل رامي وريم بالهدايا والألعاب الكثيرة، التي ملأت قلبيهما بالفرح، وقبيل تناول الغداء، جذبته شام إلى المطبخ، أشعلت سيجارة، وخرجت به إلى الشرفة المطلّة من جهة على البحر، ومن جهة أخرى على المدينة، أشارت بيدها إلى مرآب السيارات وقالت:
-هناك، ضبط رجال الأمن مجموعة أشخاص، في سيارتهم ليلاً يتعاطون المخدرات، اعتقلوهم فوراً، بقوّة كبيرة، أول أمس. أحدهم شرطي، والبقية من الجيران.
عبّت نفساً عميقاً من السيجارة، ابتلعت شيئاً من الدخان، ثم نفثت ما لم تتسع له رئتيها، طفرت دمعة من عينيها وأضافت:
- سرت شائعة في الحيّ..عليك..أنك لست مسافراً.
- ماذا إذن؟!
- في السجن.
ندّت عنه ضحكة قصيرة، هازئة، ومبتورة لكنها باهتة. خلدا إلى الراحة قليلاً، لكن شام ظلت قلقة، واجمة، لم تطمئن، مازال لديها من الكلام الذي تؤجل قوله، علّ شيئاً ما يكذّب أحاسيسها، ويخيّب ظنها هذه المرّة، حيال هذا الأمر بالذات. مساءً مع فنجان القهوة، رجته ألاّ يغادر البيت، لكنه عازم على أداء واجب عزاء، غادر برفقة الولدين، وعاد ليلاً، كان التعب قد نال منها. اعتقد أن المرض يشتد عليها، لكن ذلك لم يكن السبب الوحيد.
- قبل يومين، أوقفتُ سيارتي إلى جانب سيارتهم، نظرتُ إليهم بتحدٍ، ثم نزلت إليهم، كانوا عند الزاوية المقابلة للعمارة.
- من هم؟

- الأمن..
- أي أمن يا شام..ما الكلام الذي تقولين؟
تابعت، دون أن تعير اهتماماً لأسئلته:
-قلتُ لهم: ماذا تريدون منه، لماذا تراقبون المنزل وتتبعوني ليلاً نهاراً، هل تنتظرونه؟! إذا كان لديكم ما تقولون تفضلوا..قالو لي، مَنْ عامر هذا، نحن لا نعرفه، ولا نريد شيئاً، ولا ننتظر أحداً، نحن نراقب الوضع يا أختي، بعد القبض على جماعة المخدرات أمس..لا شيء، اطمئني. كنتُ أعرف أنهم يكذبون، تمنيتُ أن أطلع بأرواحهم، وأن أشرب من دمهم، أنا لم أطمئن أبداً، رغم نفيهم معرفتك أو مراقبتهم لنا..أو انتظارك. أرجوك انتبه لنفسك، أرجوك من أجل أولادك.
أطرق، أحسّ بانقباض في صدره، انتابه شعور بالخوف، لاحظت شام قلقاً حقيقياً في عينيه، قال في سره، ليس هناك دخان من دون نار، ودون أي تفكير مسبق سألها:
- إن سجنتُ ، هل تزورينني؟!
- فأل الله ولا فألك يا رجل.
- أقول يعني لو..
- لاتكمل، دعنا من هذه السيرة.
أجهدت نفسها، لتضفي طابعاً من الراحة والأمان والطمأنينة، لكن ذلك، لم يُجدِ نفعاً، عاد يلحّ:
- ما رأيك لو نرحل من هنا، نغادر إلى أقرب دولة مجاورة، غداً بالبر. نستقر هناك، ونعمل، وسنكون في أمان..
-لا، لا.. أبداً، لا أحب الاستقرار في أي من البلدين المجاورين.
رنّ جرس الباب، وانتهى الحديث عند هذا الحدّ، جاء صديقه الشاعر أبو علي الفاسي المحامي، لم يطل مكوثه في زيارته المتأخرة: قطعة حلو، فنجان من الزهورات. استعرض عناوين ومضامين الكتب الجديدة التي جاء بها عامر من الكويت، ودمشق، وبغداد..
- الوضع غير مريح، قال أبو علي الفاسي.
- يخطر ببالي سؤال، ما أحوال السجون هذه الأيام؟
- لقد تحسنت قليلاً، أفضل من السابق بكثير.
- بعد تقرير لجنة الحريات؟
- رحمها الله..جولة واحدة، بعد أخذ وردّ، وامتناع، وتمنّع..وتقرير واحد، أول وأخير..
- ثم وئدت!
- كما تعلم، ولكن أثمرت بتحسن طفيف لأوضاع السجون والسجناء.

غادر أبو علي الفاسي مودعاً، ولم يدر بخلدهما أن أحدهما سيُختطف ظهر الغد، وأنهما لن يلتقيا بعد ذلك، إلاّ مرّة واحدة في ممر المحكمة!
عاد صوت "الحاج" يستجوبه، ثانية، بدقة أكثر:
- غادرت بدون تأشيرة خروج.
- نعم.. لكن لم أتعمد ذلك، ولم يكن ذنبي أو خطأي أنا.
- انتظرنا عودتك في المطار. صمت قليلاً، ثم أضاف: ألم تلحظ وجودنا..رتبنا اقتيادك من المطار، لكن وجود أسرتك في استقبالك، دفعنا لإلغاء الاعتقال في آخر لحظة، وتأجيله الى اليوم..سمحنا لك بقضاء يوم إضافي مع الأولاد. وفي اليوم التالي انتظرناك كثيراً، وقررنا التأجيل، لكن وصول سلام، ألغى فكرة المغادرة لخمس دقائق فقط..قدرنا نزولك إلى الشارع !
- لكن من أنتم؟!
لم يعلق أحد على تساؤله. ولم يجد جواباً. وظل قلبه يحترق!

6

الدنيا غمام. لحظة صعبة تساوت فيها كل الأحوال عنده. كأنه على بساط من سراب. يخيّل إليه أحياناً رطوبة شديدة، تلفّ المكان، وأحياناً غباراً يملأ الأفق. يدرك شيئاً واحداً يجمع بين هذه وتلك: الإختناق. حرٌّ وتعرّق، برودة في الأوصال وارتجاف.
الثلاثاء: التاسع من نيسان ، ليس ثمة يوم ربيعي أشهى للحياة منه. نهارُ متعةٍ وشهوةٍ صافٍ ورائق. نهار تضجّ المدينة بحيوية الناس فيه. والأفق المتعانق مع البحر وبضع غيمات بيض. يرسم لوحة فنيّة رائعة، بالغة الألفة والجمال، فوّاحة العطر. لكنه كان في طقس آخر، وظروف أخرى، وعالمٌ مختلفٌ كلياً، وحالٌ لا يعرفها إلا الله.
-اعتقلناك.. كي نمنعك من السفر مجدداً.
انتشله "الحاج" من لحظة ضعف، حافة انهيار كاد أن ينزلق، ويهوي بها إلى المجهول. كانت تلك الكلمات بمثابة الصدمة التي أعادته إلى الواقع، إلى أن يفكر بجدية، وأن يستعد لمواجهة الصعاب، لقد أعطاه "الحاج" أول الخيط ليجيب بنفسه على أسئلة دفينة في داخله، عبارته قرعت جرس إنذار حيال الخطر الذي يحيط به، والنار التي يريد "الحاج" وجماعته أن يرميه إليها، ويحرقه بسعيرها.
-هكذا لا تغادر إلى الصين. لقد أكثرت في الأيام الأخيرة من السفر، شرقاً وغرباً، ولا تختار سوى العواصم المثيرة للجدل هذه الأونة..حكايتك كبيرة !
ثلاثة أيام فقط، كانت تفصله عن موعد المغادرة باتجاه أقصى الشرق، بلاد التنين الأصفر: الصين، لقد تلقى دعوة لزيارتها منذ قرابة عام، رتّب لها بهدوء، أراد لتلك الرحلة، أن تكون فاتحة عهد جديد في حياته، يريد أن يتلمس رأس التنين المتثائب بيديه.. وأن يدور حوله، تحت الشمس الساطعة، أن يكتشف الشرق القديم، بعد أن سيطرت دهشة الغرب، وعالم الغرب على الحياة. لم يتبق له، سوى أن يحجز تذكرة السفر، الأصعب في الأمر، بموارده المالية الشحيحة، وسيختار خط الطيران الذي يؤمّن له رحلة مميزة بالمتعة والمعرفة، تمرّ باستانبول، موسكو، بكين، ليصل إلى شبه الجزيرة الكورية حيث شبح الحرب، والفقر، يخيم على سماء بيونغ يانغ..
لم يشر "الحاج" من قريب أو بعيد إلى زيارته المزمعة إلى كوريا الشمالية، بعد الصين. أغفلها عامداً.. لا يدري لماذا! لكن الأمر المهم هو أن قيادته ترتبط بعلاقات بالغة السرية وشديدة الخطورة مع بيونغ يانغ!.

-لا كبيرة، ولا من يحزنون.
أجاب عامر، بتصميم على انتزاع المبادرة، وكأنه يريد توجيه دفة التحقيق الآن بنفسه، وليكن، ما يكن بعد ذلك.
- كيف.. وأنت تجاوزت حدودك في الحركة، كثيراً!
- كل شيء واضح، ومعروف.. حتى بالنسبة لكم.
- نعرف بعض الأشياء .. نعم، ولكن ثمة الكثير المخفيّ، ما الذي يدعوك لزيارة الصين؟
- دعوة وجهت لي، فقبلتها!
-الشرق، ليس من اهتمامك؟
-العالم يتغير.. وأنا أردت ذلك!
-تريد إقناعنا بجدول الزيارة الذي اقترحته أنت؟
- تعرفونه..
قال الحاج بحدّة، وتوتر، وعصبية: نعرفه، طبعاً نعرفه. ويجب أن نعرف كل شيء الآن، من الألف إلى الياء. ثم صرخ في وجهه ، محركاً كلتا يديه كي يقف.
نهض من مكانه، ثم أخذ ينفذ تعليماته حرفياً، وقلبه يدقّ، وفي داخله خوف من المجهول الآتي، استدار في مكانه دون أن يتحرك، فصار وجهه نحو الجدار، ثم قرفص رجليه في وضعية البطة، وضع كفيه على ركبتيه وانتظر.
اقترب أحدهم منه، ورفع العصبة قليلاً عن عينيه إلى أعلى، فأصبح يرى أمامه بشكل أوسع قليلاً.
- ترى المقعد أمامك؟
- نعم.
- جيداً؟
- نعم.
وضعوا أمامه عدّة أوراق بيضاء مسطرة، وقلم أزرق، ثم أمره الحاج أن يملأ بخط واضح استمارة تعارف: اسمه الكامل، وظيفته، مكان وتاريخ الولادة، عنوانه، وأن يكتب على الأوراق البيض "نبذة كاملة ومختصرة" عن حياته.. كما قال له حرفيا، وبسرعة.
- عندك خمس دقائق.. فقط.
- نبذة كاملة ومختصرة!
كرر العبارة في نفسه الساخرة، رغم الألم الذي يعتصر قلبه، وبدأ يدوّن المعلومات المطلوبة بهمة ونشاط. الوقت يمرّ، وعليه الإنجاز، فقد يريحهم باستجابته السريعة، فيرتاح!

"ولدت أواخر شهور الوحدة السورية- المصرية في بلدة بعيدة، على ضفاف الفرات، بلدة يغمرها الغبار في الخريف والصيف، ويجرف تربتها المطر في الشتاء، ويدمر بيوتها ومحاصيلها الفيضان، حين يغضب النهر ويذوب الثلج في الربيع، بلدة تنام على كتف الماء، ويقتل العطش الناس والدواب في صيفها الطويل..
ولدت لأبوين من أسرة فقيرة متواضعة مكافحة، تضم تسعة أبناء، أنا أوسطهم، يؤمنان بالله، ونحن بالاشتراكية، ونحب حياة الحرية. درست الابتدائية والإعدادية والثانوية في مدارس البلدة، دخلت التجنيد الإجباري، بعد التعليم الإلزامي، وقضيت منه أياماً حلوة ومرّة لمدة ثلاث سنوات وستة أشهر وثلاثة عشر يوماً وست ساعات.. سجنت، واعتقلت، واستدعيت للتحقيق عدّة مرات ولأسباب مختلفة..
حصلت على وظيفة بالصدفة، صعدت السلم بسرعة، وعندما اشتدت ضغوط المخابرات عليَّ، رميت المفاتيح وتركت العمل. أول حبّ بنت الجيران، ثم كرّت حبات المسبحة: أحببت نساء كثيرات، لا عدد لهن: تلميذات وطالبات جامعيات، مدرسات، موظفات، وعاملات، شاعرات، فنانات، ومذيعات، وكله حبّ من طرف واحد: أنا.
انتميت إلى حزب، وعيني على حزب آخر، وقلبي مع حزب ثالث. فصلت من الحزب بسبب طول اللسان، وكثرة المشاكسة. دخلت المساجد والكنائس، وعبرت المقابر في ليالٍ موحشة.. تورطت بالسياسة، وتعلقت بالأدب، كتبت ونشرت في صحف من المحيط إلى الخليج..جئت إلى بلادكم، اشتغلت ودرست في الجامعة، تزوجت وصار لي ولد وبنت، وأربعة كتب..
سافرت كثيراً.. أحببت التنقل والترحال، دون حدود.. درت العالم في قاراته الثلاث آسيا، أوروبا، أفريقيا.. وآخر محطة عندكم..
وأنا الآن رهن بنانكم، وطوع أمركم، والسلام عليكم.."!
وضع نقطة في آخر سطر، قلب الورق، أغلق القلم، ونهض من مكانه، وبدأ يفرك كفيه ويشبك أصابعه..طلب الحاج من أحد عناصره، أن يقرأ بصوت عالٍ وتمهل، جميع المعلومات التي دونها عامر، ويأمره بين الحين والآخر، إعادة قراءة عبارة، أو جملة، أو يطلب منه وضع خط أحمر تحت كلمة ،أو معلومة ما..قال له إن كل ذلك غير مفيد بالنسبة لهم، وعليه أن يعيد على مسامعهم سيرته ،لتأكيد صدق المعلومات التي كتبها!
اخذ يروي مجدداً تلك "النبذة المختصرة" المملة لحياته المتعبة، تمنى لو أن شيئاً إلاهياً يحدث، فيتخلص مما هو فيه، زلزال، انفجار، دمار.. أن تنشّق الأرض فتبتلعهم، ويهرب هو، نعم سيهرب لو أتيحت له أية فرصة.
- سافرتَ كثيراً.. قلت،إذن، دعنا نراجعها مع بعض.. أم نعطيك ورقة وقلم؟

- لبنان؟.. كنت هناك ليلة إعلان الحكومة العسكرية؟!
- مالطا.. أثناء قمة بوش-غورباتشوف.. وفي قبرص كنت في الفندق الذي وضعت فيه قنبلة، أما فرنسا فقد زرتها بعد اجتياح العراق للكويت بأيام.. وإثر مؤتمر مدريد للسلام، وصلت العاصمة الإسبانية، عبر رحلة جوية مررت خلالها بخمسة مطارات..
أخذ الحاج يعدد أسماء الدول التي زارها ، ويعلّق من تلقاء نفسه على أحداث وقعت إبان زياراته تلك.. ويطلب من معاونيه تدوين كل ما يقوله، على لسانه: تونس، بغداد، الكويت..
- هذا يكفي، لا نريد المزيد، لكن لماذا كنت تزور تلك البلدان؟
- العمل.
- أي عمل، عمل فقط؟!
- والسياحة أيضاً.
- انتبه لما تقول..كنت تترك زملائك في الفندق، في كل رحلة، وتغادر ليلاً، لوحدك.. وتعود في ساعة متأخرة،أحياناً حتى الصباح.
- أنجز أعمالي، وأخرج في حال سبيلي.
- كل ليلة، وكل رحلة!
- أحب الليل، أسير فيه على شواطئ البحار، أو ضفاف الأنهار..أقارب بهجة المدن وحياة الألق..
لطمه بظاهركفه، على خدّه وفمه، لطمة قوية، أحس بدوار في رأسه، ودم ينزف من شفتيه، لم ينبس بحرف واحد، لحظةُ صمتٍ، ثم نطق الحاج : سأجعل أيامك سود، نهاراتك مثل لياليك. أمسك بأذنه، شدّها وفركها عدّة مرات، حتى شعر بها تكاد تنقطع عن رأسه، فيما صدغه لا يزال يؤلمه من أثر اللطمة.
- الأشخاص الذين كنت تلتقي بهم، وتجتمع إليهم، على الشطّ، أو في البارات.. سوف تقرّ بأسمائهم، ووظائفهم، ومهامهم..وإذا نفذ صبري، سأتركك للشباب..تكلم!
قال بحزم،أمسك بساعده بقبضة حديدية، هزّه، ثم دفع به نحو الجدار.
-اسمع.. لا تراوغ معي، خروج من هنا، إنسَ ذلك.. قلت لك، لا تدع صبري ينفذ.
أخذ يدخن بشراهة، يمتصّ السيجارة بعطش، فتتوهج جمرتها، كلؤلؤة عندما ينعكس عليها ضوء القمر.. نفخ دخانها في وجهه مرّة، مرتين، ثلاثاً.. فأخذ يسعل، ضاق صدره. تركه على هذه الحال دقائق، يعاني - من جديد- صعوبة التنفس، ونقص الأوكسجين في الهواء، الذي امتزج بغمامات السجائر..
- اعطوه الدواء.. جرعة واحدة، فقط.

فتح فمه، وضخّ جرعة واحدة، من بخاخة الفينتولين.. استنشقها بقوة، وأغلق فمه وانفه، وراح يعدّ في سره من الواحد إلى العشرة، دون زفير، صدره يعلو ويهبط. والدواء ينسرب إلى رئتيه، ويمتزج بدمه.. ولن يطول به الوقت، حتى يستعيد حالته الطبيعية، لفترة مؤقتة، لا تتجاوز الساعتين.

-ليكن في معلومك قال الحاج- علاقاتنا الأمنية ببلادك، قوية جداً، ممتازة.. وعلى مستوى عالٍ.

لم يجب، اكتفى بهزة رأسه. انقبض صدره، ودقّ قلبه بشدة، تعاظم شعوره بالخوف، وتساءل في نفسه عما إذا كان قد وقع فريسة سهلة في براثن أجهزة أمن البلدين. هل تعاونا معاً لاعتقاله؟ أم أن هؤلاء اعتقلوه، ليسلمّوه غداً لبلاده؟!

لم يكن الحاج يكذب فيما قاله، هناك تعاون أمني، وتبادل معلوماتي، وملاحقة مشتركة لمعارضيهما، حتى خارج حدودهما الأقليمية.. حبّة فول فاسدة مقسومة، إنهما أكثر من وجهين لعملة واحدة، سياساتهما الأمنية متشابهة، إلى حدّ التطابق. أساليب الملاحقة، والاعتقال، والتحقيق، والتعذيب، واحدة.. البطش ذاته، التصفيات الجسدية، لا مثيل لتماثلهما.. امتلأ قلبه برعب أكبر، وهو يفكر بهذه الأمور. لكن لماذا يتعاونان عليه؟

كانت الأشهر الأخيرة، مليئة بنشاطه في الكتابة والنشر، كتب مقالات لم تقف جرأتها عند الخطوط الحمر.. انتقد فيها الدولتين! رفع من وتيرة تناوله للأمور بمسمياتها.. كما غامر بالسفر إلى الشام لمرتين، رغم وجود اسمه في لائحة المطلوبين.. إلاّ أنه تلقى مساعدة لاجتياز معبر المطار، في الدخول والخروج.

- شوف.. من الآخر، السكوت والتماسك، لن يفيدك في شيء .. إحكِ لنا بالتفصيل الممل عملك، مهمتك، المعلومات التي نقلتها، أدواتك، قنواتك..توقف قليلاً، ثم أضاف: تفضل تكلم.

ارتفعت حرارته، أحس بشعر رأسه يقف، فيما صار جسده يرتجف، وبدأت حبات العرق تتكون على جبينه، ثم تسيل على وجهه، فرك يديه، بلع ريقه، بلل شفتيه قبل أن يتلفظ بارتجاف:

- ابداً.. أنا لست ..

- ماذا تقول؟

- موقفي من الدولة واضح، أنا لا أتعامل معها مطلقاً..

- كيف..ما هذا الكلام الفارغ؟! ألست عضواً في حزب البعث؟

-فصلتُ من الحزب..

-هذا ليس موضوعنا، نتحدث عنه فيما بعد، قل لي بصراحة. ما هو الجهاز الذي تعمل له؟

-ولا أي جهاز..
-طيب.. كما تشاء، لكن ما هي رتبتك؟
ندت عنه ضحكة ساخرة دون أن يجيب، تدخل أشخاص آخرون موجودون في الغرفة مع الحاج. أخذو يتناوبون الحديث فيما بينهم حول الرتبة العسكرية، أو الأمنية التي يفترض أنه يحملها: من رائد إلى مقدم، إلى عقيد. ثم استقر بهم الأمر أخيراً.
- مقدّم.. وحسب سنك، يمكن أن تكون عقيداً.. أظن أن جميع رحلاتك إلى الخارج، كانت لتلقّي التدريب.. أليس كذلك؟
- أبداً، لا شيء مما تقوله. أنا مدني، ولا علاقة لي بأحد.
اقترب الحاج منه، أمسك بخصلة من شعره، عبث بها، هزّ رأسه يميناً ويساراً، ثم أمسك بشاربه، وشدّه بقوة إلى أسفل:
-سأنتف لك شواربك.. وبعد قليل ستلثم حذائي، ولن أقبل.. ولآخر مرّة، سوف أحدثك بكلام العاقلين.
جلس إلى جانبه، على المقعد الخشبي، وأخذ يهمس في أذنه مهدداً، متوعداً، بلطف، ولباقة:
-شوف.. عندنا الضرب، وعندنا التكسير، وعندنا الفلقة، وعندنا الكهرباء، وعندنا التعليق.. وعندنا أشياء لا تخطر على بال أحد. لن أطيل الشرح، كل اشكال وأنواع التعذيب مسموح بها عندنا. من الاغتصاب إلى القتل، وأنت تختار.
نهض من مكانه، ابتعد خطوات، وأخذ ينقر على الطاولة، طلب من مرافقيه أن يأخذوه للراحة -كما قال- لمدة ربع ساعة، ليفكر بهدوء لوحده، ودون أي تشويش أو إزعاج. قيّدت يديه إلى الخلف مجدداً، تأبط ساعديه اثنان، ومضيا به في ممر مفروش بالحصى، لمسافة لا تزيد عن عشرة أمتار، ثم أخذا ينزلان به درجاً، قدّر أنه ينزل طبقة واحدة تحت الأرض، بعد أن اقتاداه في ممر طويل، وقبل أن ينعطفا به وصلت إلى أسماعه صرخات عالية، وعويل، أنين امرأة متقطع..وتأوهات شخص يحلف بالله، أن لا علاقة له، ولم يقل شيئاً. ووسط هذا الضجيج المرعب، لم يدرك بأنه أوقف، وفتح بابٌ، وأُدخل زنزانةً، رُفعت العصبة عن عينيه، وفُكّ قيده.
كانت الزنزانة فارغة، باردة، في الأعلى نافذة مستطيلة صغيرة، يدخل منها الهواء، والضوء الخفيف الباهت. وقف وسط الزنزانة، يستمع إلى الصوت الذي يبكي ويرجوا بحرقة أن يتوقفوا عن ضربه. كان يصرخ بأنه سيموت، صوته أشبه بجرافة تهدر في المكان، فيشعر بصدى الإهتزاز، يطلق بين الفينة والأخرى، تأوهات تخرج من صدره حارة، ومرّة. ولا يتوقف -رغم استمرار الضرب- عن المناشدة بالرحمة كيلا يموت.
-أوقفوا الضرب، قال احدهم، وأضاف: تعترف؟

ردّ باكياً، ونشيجه يتواصل:
- يا سيدي.. ما عندي شيء.
- ضعوا الكهرباء في خصيتيه..
تعالى صراخه مجدداً.. فأدرك أن المُعذَّب الآن أصبح تحت رحمة الكهرباء، وكأن الضرب لم يعد يكفيه. فجأة أُنيرت الزنزانة، وفُتح الباب.. ولأول مرّة شاهد وجهاً لأحد سجانيه! كان لونه أبيض مائل إلى الاحمرار، ذو شاربين كثين، ولحية خفيفة، طويل، وضخم الجثة، طلب منه أن يقترب، وضع العصبة على عينيه مجدداً، أداره للخلف وقيد يديه،
تحرك مربكاً متوتراً، ومرعوباً، غادر الزنزانة، وهو يسمع صوتاً آمراً للمعذِّب الذي تركه خلفه:
- اعترف.. إما أن تموت، أو تعترف.. تشاهد على روحك!
أعيد إلى الغرفة نفسها، والمقعد ذاته، استقبله الحاج مرحّباً، وسأله عما إذا كان قد ارتاح قليلاً، وهدأت أعصابه.
-لا بأس.
أجاب مرتجفا، تتحجر الدمعة في عينيه، الخوف يملأ قلبه، والرعب.. رعب حقيقي يسكن جسده.
-الأمر بسيط.. اعترف ولينتهي كل شيء.
-بماذا؟
-ولو!! تصورت أن الاستراحة التي أخذتها، كانت كافية لتعيد حساباتك.. على كل حال..صمت فجأة، ثم أضاف: نحن دوَّنا كل اعترافاتك السابقة، وهي الآن، أصبحت كافية، بقيت بعض الأمور التفصيلية التي نطلب تعاونك فيها معنا، نريد الشيفرة.. التي كنت تتعامل بها مع بلادك.
- أي شيفرة؟!
- الشيفرة، والحبر السري. ومع من يكونان الآن!
اكتفى بالصمت، إنهم يفصّلون له اتهامات كبيرة، وخطيرة جداً، لقد وقع في مأزق لا فكاك منه! اقترب منه الحاج، مال إليه وخاطبه بحزم:
-يبدو أنك تحتاج لتنشيط الذاكرة، نبهتك على أن كل وسائل التعذيب مسموح لنا بها، وفوق ذلك، أقول لك الآن: اعترافك بكفّة..وأسرتك بكفة، فما تقول؟
انتابه الهلع، وهو يسمع التهديد بأسرته.
- أضمن لك سلامة زوجتك وطفليك!
قال كلماته تلك، بثقة زائدة، أشعرته بالأمان لحظة أولى على أسرته، ثم تبدل الأمان إلى خوف مفرط عليهم:

-أنت تعرف، كل شيء بيد الله، حادث سيارة.. ويرحمهم الله. أو نستضيف زوجتك عندنا، أو في مكان آخر.. ما أسهل أن تكون معك في القضية، أو قضية أخرى، لا سمح الله أخلاقية! تصوّر بعد ذلك.. وعلى مهلك، ماذا سوف يصير بالأولاد..
رأسه يكاد ينفجر.. شيء فوق الإحتمال. أحس بالدوار وبجسده يذوي ويذوب، لم يعد يشعر بشيء، لا بمن حوله، ولا بنفسه، لحظة عصيبة فيها من الذّل والإهانة، والقهر والهمّ، ما يعادل الدنيا كلها. انطوى على نفسه، ولأول مرّة منذ اعتقاله قبل ساعات، طفرت دمعتان من عينيه، دمعتان غزيرتان، ساخنتان.. سالتا على خده، وشاربه حتى فمه.. تذوق الطعم المالح للدموع.
فُكّ قيده، فتحررت يداه،وامتدت كفه لا شعورياً تمسح آثار الدمع عن وجهه.
قطع الحاج صمته:
-سلام وزوجها أيضاً.. لاتنس. الآن يمكن جلبهما.. ومصادرة أموالهما، إذا لم نجلب زوجتك!
سكت، وأخذ يروح ويجيء أمامه ،ثم قال:
-أعدك..
وضع يده في يده وواصل حديثه: لن يمسّ أحدٌ شعرة من أسرتك، ولن يقترب منها أحد..أو من أقاربك. وأنا أضمن لك ذلك..وعدُ رجلٍ لرجل. أعاد على مسمعه الجملة الأخيرة ثانية، ثم هزّ كفه وشّد عليها.. وسأله بلطف وهدوء:
-ماذا قلت؟
تنفس عامر الصعداء.. عبّ من الهواء ما يملأ رئتيه، وقال بهدوء مماثل، وصوت ثابت:
-كيف يمكنني التعامل معك.. وهذه ماتزال ..
وأشار إلى عصبة عينيه.
أمر برفعها نهائياً،وأن يسمح له بالذهاب إلى الحمام لقضاء الحاجة.. وفنجان من القهوة.
-تُوقِع؟
هزّ رأسه، ثم وّقع على مجموعة من الأوراق، دون أن يقرأ، أو يعرف ما فيها، على الإطلاق.

7

خيّل إليه أنه ارتاح، أخذ يرشف قهوته بهدوء، حاول أن يتذوق لها طعماً.. أي نكهة يمكن أن يتلمظها, لكن دون جدوى. كانت باردة، باهتة، وسكر زيادة.. قهوة بالكزبر! لكنها على أية حال قهوة، جاءت في وقتها، بعد أن نشف دمه، وجفّ حلقه، وارتعدت أوصاله.

-لو ركبت رأسك، لكنت الآن تبول في سروالك، وفي أحسن الأحوال في قنينه!

قال الحاج، رماه عامربنظرة امتنان، لجميل لن ينساه أبداً: أن تترك له حرية الخروج إلى الحمام، ولو تحت الحراسة، فذلك كرم لا يضاهى. تذّكر المثل الشهير عن الجندية: "أكلك بالوزن، وحمامك بالإذن"..

عندما رفعت العصبة عن عينيه، كان المشهد أمامه، أشبه بخشبة مسرح.. تماماً، تفحص المكان بصورة غير مباشرة، مع احتساء القهوة، وأثناء خروجه إلى الحمام وعودته، تعرّف إلى بعضٍ من جغرافية المكان وصورة الأشخاص من حوله.

الغرفة صغيرة لا تزيد عن ثلاثة أمتار طولاً وعرضاً، سقف واطيء، مطلية حديثاً باللون الأبيض. وأمامه كانت نافذة صغيرة، عالية، لم يستطع أن يرى من خلالها سوى سقفاً من صفائح حديدية، تبين له فيما بعد أنه مرآب للسيارات.

كان في الغرفة طاولة حديدية، مقعد خشبي طويل، وعدد من الكراسي البلاستيكية. يجلس الحاج قبالته على طرف الطاولة، وبينهما كاتب المحضر. وعن يساره شاب صغير السن يضع رجلاً على المقعد، أسند إليها بندقية كلاشينكوف، موجهة نحوه. وثمة شخصان آخران أحدهما يحمل آلة تصوير"فيديو" والثاني يتكئ إلى الباب المفتوح. كان هو من نقر على شباك السيارة، ونفّذ عملية الاعتقال. دخل شخص متوسط القامه. معتدل الجسم، أسمر اللون يرتدي نظارة شمسيه، وله شنب مشذّب. نظر إليه وسأل:

-كيف حال الأستاذ.

-حاله طيّب .

قال الحاج. تعرف عامر إليه فوراً. فهو قائد السيارة التي سدّت عليه الطريق، وهو الذي تبادل مع الحاج تهاني النصر باعتقاله، وهو الذي رمى بعصبة العيون نحو

السيارة التي أقلّته قبل ساعات إلى هنا.. لقد اكتمل الفريق.. قال لنفسه. ها هو الآن يتعرف إلى مجموعة الاختطاف واحداً.. واحداً، دون أن يعرف أسماءهم. لم يخاطب أحدهم الآخر بأي اسم، سوى لقب"الحاج" الذي يتبادلونه، حين تكون هناك حاجة لذلك..توجه الحاج نحوه، وهو يحمل ورقة بحجم الكف:

-هذا إذن من النيابة، لتفتيش البيت..هل تمانع؟

مدّ الورقة أمام وجهه، رأى بضعة أسطر مكتوبة بخط اليد بقلم أحمر موقعة ومختومة. لكنها ليست ورقة رسمية، أبداً..ولايعرف إن كان اسمه فيها،أو أنها مجرد ورقة. أتراه يملك سوى أن يوافق؟

-لا مانع لديّ.

-هيا إذن.

قال لمجموعته، ولم تلبث أصوات العجلات فوق الحصى, أن ملأت المكان بالضجيج. طُلب منه أن يرّتب هندامه، ويستعد للمغادرة، ثم اقتيد ورأسه إلى الأسفل. لم يشاهد سوى خطواته القليلة، استدارت السيارة نحو الخلف، ثم يساراً. رأسه بين ركبتيه.. والسيارة تعبر البوابة وتنطلق بتؤدة في درب ترابي، حاول أن يركز انتباهه هذه المرّة، ليعرف الطريق التي يمرّون بها علّه يحدد مكان الاحتجاز.

مرّ وقت طويل، لم يشعر خلالها بعبور أية سيارة أخرى، قبل أن تنطلق العربة على طريق اسفلتي، وتزيد من سرعتها شيئاً فشيئاً. ولم يسمح له برفع رأسه، حتى وصل إلى تقاطع الطرق الدائري، الذي لا يمكن من خلاله معرفة الاتجاه الذي جاء منه، انطلقت به السيارة، في طريق السكة، ثم انحرفت يميناً نحو مشفى الأطفال، فميدان القادسية، ومضت مباشرة نحو شارع خالد بن الوليد، نحو منزله في حيّ الظهرة المطلّ على البحر مباشرة.

في الطريق التي يعرفها جيداً، بمساكنها، وسكانها، ومحالّها وأشجارها، فتح عينيه على وسعهما.. نظر إلى كل شيء، إلى السيارات التي يعبرها، أو تعبر به، يحدّق في عيون الناس وفي حجارة الطريق، والعربات المتوقفة، كانت فرصة ليملأ عينيه بمنظر المدينة والناس والشوارع.

انحدرت السيارة به في الشارع الضيّق، ثم انحرفت يساراً بمحاذاة الكنيسة، لتدخل شارع الإمام مالك، الذي يقطن فيه، لم يكن هناك أحدٌ في الشارع، الوقت يتجاوز الثالثة بعد الظهر، لا حركة سيارات، أو أفراد.. كأن المنطقة، قد أخليت تماماً، توقفت السيارة تحت العمارة، في المكان الذي اعتاد إيقاف عربته فيها كل يوم، وقبل أن يترجل، شاهد عدّة رجال، يتوجهون بسرعة نحو مدخل العمارة، ثم طلب منه أن يترجل بهدوء، وبشكل طبيعي، وحُذِّر من أية حركة.

كانت يده اليسرى مقيدة بالأصفاد، ولكن هذه المرّة، مع اليد اليمنى للرجل الذي اعتقله! سأله عامر أن يسمح بوضع غطاء ما على القيد، أو أن يعرج قليلاً، كي لا يرى سكان الجوار حالته. لم يمانع الحاج، ثم أمرهما بدخول العمارة والانتظار أمام المصعد.

المجموعة التي دخلت قبله، انقسمت إلى مجموعتين، الأولى استقلت المصعد، والثانية احتلت الدرج صعوداً نحو الطابق الخامس، وعند خروجه من المصعد، وجد أن العناصر المرافقة له مسلحة ببنادق رشاشة، صغيرة الحجم، لامعة، من النيكل.. أكبر قليلاً من المسدس، لم ير مثلها إلّا في الأفلام! خلال الصعود طلب إليه الحاج، أن يتماسك، وأن يظل هادئاً، حرصاً على سلامته، وسلامة الأسرة. وأن يتذكر الإتفاق الذي أبرماه قبل نحو ساعة من الآن! وقف أمام الباب، ونظر حواليه، كانوا يحيطون به من كل جانب، على الدرج المؤدي إلى السطح، وإلى أسفل.. بلمحة خاطفة ذكره هذا المشهد بالاعتقال الذي تعرض له في الرّقة، قبل نحو سبع عشرة سنة مضت.. بإسلوبه الاستعراضي الكبير والمسلح.. والحصار الذي فرض على منزل أهله والحارة، كما هو الآن على بيته، والعمارة والشارع.

وقف أمام باب البيت مباشرة، بلع ريقه، مدّ أصابعه المترددة نحو الجرس، وضغط عليه، انتظر لحظات، وهو يشعر بالعين التي تنظر من الداخل عبر العين السحرية، الزمن يمرّ بطيئاً، ودقات قلبه تزداد اضطراباً. تماسك، هدأت نفسه كي يبدو، طبيعياً. فتح الباب، وأطلّت خلفه سلام، خاطبته مشاكسة كعادتها:

- معك مفتاح.. لماذا الازعاج.

- معي ضيوف.. إفسحوا لنا الطريق.

كانت شام تقف وسط الصالة، أمامه مباشرة، تملأ المكان، ببهاء طلتها، وعذوبة ابتسامتها، ترتدي فستاناً أحمر، تستعد لاستقباله، والترحيب بضيوفه، لكن الدهشة عقدت لسانها، واختطفت من عينيها اللوزيتين بريقهما، ومن شفتيها ابتسامتها! وهي ترى يده مقيدة، والضيوف ينتشرون في أرجاء المنزل مسلحين، ترافقهم شابة لم يرها من قبل!

برز بين المجموعة رجل طويل القامة، يعتمر قبعة تخفي صلعة، يكبر الجميع في السن، وربما في الرتبة أيضاً، أعطى تعليماته بأن يتم احتجاز النساء: شام وسلام في المطبخ بحراسة الفتاة، كان الصغيرين قد عادا من المدرسة. جلس إلى طاولة الطعام التي تتوسط البهو، دون أن يفك قيده. استثار المنظر سلام، لم تحتمل وجود القيد في يديه، وانتشار العناصر، التي باشرت التفتيش بدءاً بالمكتبة.

-ما الذي تفعلون؟

رفعت صوتها المتوتر أكثر، وأضافت:

-قلت ما هذا.. ألا تعرفون أن الأستاذ شخصية عامة؟
-بلى. لو سمحت تفضلي.. وارتاحي!
تدخل عامر، ليحسم مجادلة لا طائل منها، وخشيته أن يتطور احتجاجها إلى ورطة تقع فيها، أي كلمة لا تعجبهم قد تجرّ الوبال عليها، وعلى شام، والمزيد عليه :
- اهدأي قليلاً، لقد انتهى كل شئ، كنتُ شخصية عامة.
قال بهدوء وانكسار، وحزن يعتمر قلبه، وفي الوقت نفسه رباطة جأش تخفي وراءها غليان دم، وكيظ شديدين، نظر نحو مرافقه وسأله:
-ألا تفكون قيدي، الأولاد هنا.. وكل شيء حسن كما تريدون.
أمر الحاج بتحريره، والسماح له بحرية الحركة داخل الشقة، في ظل الحراسة المكثفة في كل ركن. توجه نحو شام في المطبخ، كانت تجلس القرفصاء، وقبالتها تماماً تقف الشابة الحارسة، الكل صامتٌ، مُطرق نحو الأرض، أخذ بيد شام فنهضت، ضمها إلى صدره، فارتمت إليه باكية، تسأل عما يجري.. لكنه لم يجب، ربّت على ظهرها بكفيه، قبّل عينيها كعادته، حاول طمأنتها، دون جدوى، ثم توجه نحو المكتبة، حيث تجلس ريم بسنواتها الست على طاولته ترسم، وتعبث بالألوان كيفما اتفق. أجلسها في حضنه، دون أن تعي شيئاً مما يحدث. طلب المسؤول عن الفريق من الحاج أن يجلب اثنين من الجيران شهوداً لعملية التفتيش، وسرعان ما كان جاراه في الطابق الأسفل هدّام وسليم يدخلان الشقة، ويأخذان مكانهما فيما تتواصل عملية التفتيش والبحث عن أية أدلة ضده.
كانت المجموعة كالجراد الذي يغير على الحقول..يمدون أيديهم إلى المكتبة، ويأخذون كل ورقة، أو ملّف، أو مظروف، أو كتاب به أوراق أو ملاحظات، يصادفهم فوق الكتب المرصوفة بانتظام داخل المكتبة، جلب أحدهم من المطبخ لفائف تضم أكياس القمامة، أخذ يملأ بها المواد المصادرة، كتب، مجلات، رسائل، بحوث، أوراق... كل شيء يمكن أن يقع تحت أيديهم، مما يثير الريبة، أو لا يثيرها..
التقطت أصابعهم على الفور كل النسخ من كتابه الأخير، ومن كتاب حول الفلسفة الزوتشية، قدّم عامر لطبعته العربية، التي أشرف عليها.. فتح أحدهم درج مكتبه العامر بالأوراق، طلب منه مغادرة الكرسي، ليفرغ كل ما فيه من مشاريع كتابةٍ، وبحوثٍ منجزة، نشر بعضها، والآخر لم يجد بعد طريقه نحو النشر، فيما أحضر آخر كمية من الصحف القديمة المرمية فوق الثلاجة، وأخذ يقلّبها واحدة واحدة، ويتفحصها، ويعزل الصحف التي تحمل أية إشارات، أو ملاحظات على بعض المقالات المنشورة فيها، جمعها وضمّها إلى المصادرات.
جلس الحاج إلى جانب الشاهدين، وراح يتابع عملية التفتيش وهو يتحدث إلى هدّام، لاحظ عامر أن تعارفهما كان سريعاً، وراحا يتبادلان الضحكات الخافتة، وحديث عن

فلان، وفلان.. أصدقاء أو أقارب مشتركون، طلب الحاج تحضير الشاي، وعندما همّ بالنهوض تدخل هدّام حاسماً:
-سأحضر الشاي من بيتي، لحظات وأعود.
كانت هذه، المرّة الأولى التي يدخل فيها هدّام بيته، لم تكن هناك أي علاقة بينهما، سوى تبادل التحايا في المصعد، أو مدخل العمارة، وأحياناً مناقشة شئون العمارة المتصلة بالنظافة والماء والكهرباء، لا شيء أكثر من ذلك-وليس لأكثر من دقيقتين أو ثلاث- كان هدّام شخصاً ذميم السلوك والشكل، أسمر غامق اللون، أصلع، مربوع القامة، لم يكن محبوباً من معظم سكان الحيّ، لكنه كان يشغل منصباً تنفيذياً في منطقة الظهرة، ويتولى الإشراف على جهاز الخدمات الإسكانية، له سجل حافل بالمخالفات والتزوير، والاستيلاء على أراضٍ ومنازل، ومحالٍ تعود إما للدولة، أو لمالكين هاربين معارضين! كان يقوم بالتصرف بها بأساليب مخادعة وملتّفة على القوانين. هدّام، هو نموذج لرجل الدولة الفاسد.
كان ثملاً معظم المساءات.. يحتسي شراب "البوخا" المسكر، والمحضّر بصورة غير شرعية، وغير صحية، يتعاطى المخدرات، يستطيع أي شخص يقف أمامه، وينظر في عينيه، أن يرى بوضوح آثار المخدرات، على وجهه وعينيه، وحديثه الراعش، ورائحة فمه المشبعة بالخمور.. كان عامر-فيما مضى- يشاهده، دون قصد، يأخذ مكاناً على شرفة منزله، وهو يفتت قطعة الحشيش، ويخلطها مع التبغ ويعيد تعبئة السيجارة، ويدخن بعيداً عن زوجته وأطفاله.. نهاراً في الصباح باكراً، وبعد الغذاء.. وليلاً أسفل العمارة في جانب مظلم من الشارع.
قبل أشهر قليلة بدأ هدّام بمضايقة عامر وأسرته، يسعى إلى إخراجه من الشقة، بدعوى أن ملكيتها غير صحيحة. كان السبب في ذلك، هو العلاقة السيئة بين هدام ومالك الشقة الأصلي، الذي يسكن في نفس الشارع، على بعد أمتار فقط، لقد أفشل المالك، ألاعيب هدّام في الاستيلاء على قطعة أرض مميزة تعود لقريب له غيّبة الموت، وترك خلفه امرأة جاهلة، وأطفالاً صغار.
أما عامر، فكان هدّام ينظر إليه بريبه لتورطه المحتمل في فضح مشاريع غير قانونية، ونشرها في الصحافة، الأمر الذي أفقد هدّام مبالغ طائلة، كادت أن تدخل جيبه من صفقة السوق الشعبي الذي خطط لإقامته داخل الحي السكني! وهدّام، هو في الحقيقة من أشاع اعتقاله ، أثناء سفره.
دفع هدّام الباب، لم يتأخر..وكأن االشاي كان جاهزاً، دخل حاملاً الإبريق والكؤوس، وأخذ يوزعها على مجموعة التفتيش، وعامر.. أيضاً.
انتهى التفتيش في المكتبة، وانتقل الفريق إلى غرفة الأطفال، مرّوا بها بسرعة، لم يكن هناك شيء يسترعي انتباهم، قادهم المسؤول نحو غرفة النوم. كان رامي

منسجماً في مشاهدة ألعاب الفيديو لم ينتبه لدخول الغرباء أو أنه تجاهلهم، اقترب منه ، قبّله، وطلب منه أن يوقف اللعبة، ويغادر الغرفة قليلاً، تبعه نحو المطبخ، نظر بألم إلى شام.. مازالت تجلس القرفصاء، وسلام تتكئ إلى الباب المطل على الشرفة، كانتا تنفثان دخاخين سيجارتيهما دون توقف، وتشربان القهوة. توقف أمام الموقد، امتدت يده نحو غطاء القدر الأول، ثم الثاني، طعام الغداء: رز وفاصولياء.

رجع إلى غرفة النوم، وقبل أن يستبيح الغرباء المكان بادر، في فتح الخزائن، ومساعدتهم في التعرف إلى الأشياء الموجودة، كان ثمة ملحق: غرفة خدمات مساحتها متر مربع واحد، وضع فيها جزءاً من المكتبة، وبعض الأوراق الهامة، والأرشيف، امتدت أيديهم تفرغ معظم المحتويات أرشيفه الخاص: مقالات منشورة منذ ما يزيد على ربع قرن! أرشيف صور عائلية، مناسبات، أشرطة فيديو لأنشطة ثقافية وعائلية.. وثمة أوراق أخرى كان يحرص أبعادها عن الأيدي: ملفات في السياسة، والفساد، وحقوق الإنسان.. كانت جزءاً من مواد أولية، تساعده في وضع كتابه الجديد!!

أسرعت يد الحاج تمتد نحو جزء من الملفات، حاول أن يقف حائلاً دون أن يأخذه، فلم يقدر.. فتح الأوراق، وسارع باطلاع المسؤول، نظر إليه باستغراب ودهشة، تبادلا النظرات..لقد وقعا على كنز ثمين.

-لا يوجد شيء آخر، هنا، أو مخبأ سرياً آخر؟

-لا يوجد أبداً.. تفضلوا وفتشوا.

تنحى عامر جانباً، لكن سرعان ما طلب المسؤول من الجميع، التوقف وجمع كافة المصادرات، وإضافة جهاز الحاسب الآلي، والبريد المصور، ومغادرة المكان واحداً إثر الآخر. خرج الجميع محملين بالأكياس والصناديق، وبنادقهم الرشاشة، بقي الحاج برفقته :

-خذ معك ثياباً، ترتاح بها.

أسرعت سلام تضع منامة في كيس، كانت شام عاجزة عن القيام بأي شيء، لقد أقعدتها المصيبة عن أي فعل، وعقدت لسانها عن النطق بأي كلمة، نهضت من مكانها، وقفت وسط البهو تتابع حركته في لحظاته الأخيرة داخل البيت. كان رامي وريم يقفان إلى جانب بعضهما، عانقهما على عجل، وهما يطلبان منه عدم الرحيل:

-أنا مسافر.. ولن أتأخر.

-ردّا بصوت واحد باكٍ:

-لا بابا لا.. لستَ مسافراً.

مسح دموعهما بكفيه، ضمهما معاً إلى صدره ثانية ونهض، وقف أمام شام، أمسك بيديها، وعندما حاول أن يضمها أو يقبلها، صدته، ودموعها تنهمر بغزارة:

-لا.. سوف ترجع، سوف ترجع قريباً.
كانت تلك آخر كلماتها إليه، وهو يغادر البيت، للمرة الأخيرة. أغلق الباب خلفه، وبين ضلوعه عصارة ألمٍ وترنيمةٍ لأغنية لم يعرف كيف خطرت له :
"خلّي الوداع من غير قبل
علشان يبقى عندي.. أمل
خلّي
خلّي..."!

8

ترك قلبه في البيت، وكذلك ربطة العنق الجديدة. قطع الشارع نحو الرصيف المقابل المشمس وحيداً، وحراً دون قيد. فتح بأصابعه باب السيارة، وقذف نفسه على المقعد الخلفي، وأفسح المكان جانبيه لحارسيه. كل شيء كان هادئاً، حتى أعصابه. لقد امتلأ صدره بالإرتياح الآن، بعد أن عرفت شام إلى أين تمضي به الأيام. كان بإمكانه أن يقف، و ينظر إلى الأعلى كي يرى من يودعه على الشرفات.. لكنه لم يفعل. آثر المضيّ، يتحدى آلامه، يريد استباق المصير المرّ، تملّكه إحساس غريب، بأن هذه الشمس والهواء والسماء، لن يراها بعد الآن. شعور سيطر عليه لحظات، مثل غشاوة على العين، ثم انقشعت.

انطلقت السيارة مجدداً، عائدة عبر الطريق نفسه، باتجاه ميدان القادسية، كانت المدينة هادئة، والناس تأخذ قيلولة الظهيرة، الشوارع التي عادة ما تكون مزدحمة جداً، هي الآن شبه خالية، كان ينظر يمنة ويسرة، بكل راحة، دون إزعاج، دخلت السيارة شارعاً فرعياً في الميدان وتوقفت فوق الرصيف تظللها عريشة ياسمين تدلّت فوق السور الخلفي لعيادة الهلال الأحمر، أُطفيء المحرك، ونزل السائق واثنان، بقي لوحده والنوافذ مفتوحة يعبرها الهواء الربيعي المنعش.

مضت عشر دقائق، ليعود أحدهم ويوزع قطع الشيكولاتة على الجميع، مدّ يده، أخذ قطعة وراح يتفحصها، يقلبها بين يديه قبل أن يبدأ بالتهامها، كان جائعاً، لم يضع شيئاً في فمه، سوى بضعة قطع من الحلويات الدمشقية منذ الصباح.

اقتيد إلى الغرفة نفسها، جلس على المقعد الخشبي، وظل وحيداً، لكن الباب أغلق هذه المرّة، عاد يتفحص المكان من حوله، الجدران البيض، النافذة المشرعة، الطاولة، والمقعد البنيّ، المصباح الملتصق بالسقف المنخفض، مفتاح الضوء، ومأخذ الكهرباء، والكراسي البلاستيكية الثلاث. كان ساهماً، تطول نظراته في الزوايا، ثم تنخفض عيناه نحو أسفل الباب المغلق، الذي تظهر من خلفه الدرجتان الصغيرتان، اللتين عبرهما قبل قليل. وشيئاً فشيئاً أخذ يستعيد القلق، وصار يشعر بالضيق والانقباض.

فُتح الباب، ودخل أربعة أو خمسة أشخاص، أصبحت أشكالهم مألوفة: الحاج وكاتب المحضر.. وضع ملفاً ضخماً، فوق الطاولة، تحت يديه تماماً، وجلس قبالته، وخاطبه:

-تصرفت بحكمة.. كنت عاقلاً، والحقيقة هذه تحتسب لك، ولن ننساها.. تدخن؟!

مدّ علبة السجائر، رفع كفه معتذراً، وربّت على صدره شاكراً وممتناً.
-كنت تعلم بمراقبتنا لك..
تردد بالإجابة، أربكته تلك الكلمات، حاول أن ينفي معرفته بذلك، لكن الحاج الذي ركز نظراته على عينيه، جعله يعدل عن الإنكار.
-نعم.. ولكن ليس تماماً.
-من أبلغك؟
-لا احد.. كنت أشعر بذلك، حدسي فقط.
-حدسك ام أفعالك؟ لقد أرسلنا لك من يبلغك.. مرتين، وكان عليك أن تتوقف عن نشاطك، وأن تلجأ إلينا.. أعطيناك عدّة فرص، لكنك أضعتها.
كان يستمع إليه مطرقاً، وعينيه تحدّقان بأصابع كفيه المعقودتين مع بعضها البعض، واصل الحاج حديثه إليه، حديثه المشبع بالأسئلة، التي لا يبحث عن أجوبة لها، وإنما كأنه يرمي بالونات تجربه على وجهه ، لكشف انفعالاته النفسية، استعداداً لما هو أعظم.
-عندما كان شقيق زوجتك وأسرته في ضيافتكم، لماذا لم تذهب معهم إلى مدينة لُبدة الأثرية؟
-بقيت في المنزل أنجز بعض الأعمال.
-مثل ماذا؟
-كتابي الأخير.
-السائق الذي ذهب بالعائلة إلى المدينة الأثرية..
صمت الحاج، نظر إليه، ثم أضاف: تعرفه أليس كذلك؟
-طبعاً.. جاري.
-ألم يبلغك شيئاً عنّا؟
-أبداً.
-تخاف عليه؟ سأل، وضحك، وأضاف بهدوء قاتل ومربك: نحن طلبنا منه ذلك!
كان ناصر "جاره" قد نقل إليه حقاً، أن ثمة سيارتين تابعتين لجهاز الأمن، تراقبه وأسرته في كل تحركاته بالسيارة، وعلى قدميه.. بل ذهب أكثر من ذلك أَنْ أخبر مالك الشقة بالأمر، وقدما له أرقام السيارتين. أخذ الورقة الصغيرة، قرأ الأرقام.. لم يكترث للأمر، دس القصاصة بين الكتب، بقيت لشهرين أو ثلاثة، ثم رمى بها، بعد أن تعهد مالك الشقة بالاستفسار عنهما، وعاد إليه بعد أيام ليطمئنه، بأن المقصود بالمراقبة شخصاً آخر، في العمارة الملاصقة وامرأة ذات سلوك مريب، في الطابق الثالث.

كان فخاً.. أدرك في دخيلته، وسأل نفسه ما إذا كان الشرك منصوباً له بمعرفة كل من كان يحيط به! يتذكرالآن سعي السائق وشقيقه لبيعه - فيما مضى- أجهزة وأدوات متطورة، ومكملة للحاسب الآلي، هي طابعة ملونة، وناقلة للصور. وبسعر زهيد مقارنة بأسعار السوق. وافق في البدء، لكنه تراجع أمام إلحاحهما، ظنّ أن ثمة عطل ما، غير ظاهر في الأجهزة يدفع الشقيقان لبيعهما بسعر غير معقول، أو أنهما مسروقتان!

-هل تعرفني؟.. ألم ترني من قبل؟!

نظر إليه بانتباه، ونفى معرفته أو أن يكون قد رآه من قبل.

-يا رجل..كنت تذهب مساء كل يومٍ إلى صالة الأنترنت..كنا وراءك، ندخل خلفك، ونجلس قريباً منك.. تذّكر، انظر إليّ جيداً.

حدّق فيه بدهشة لما يقوله، أيكون بهذه الصورة من الغباوة أو اللامبالاة؟ أم الإثنتين معاً! لم يعد الأمر مهماً الآن. حاول أن يشحذ ذاكرته: يستعيد دخوله وجلوسه ومغادرته صالة الأنترنت ،التي اعتاد حقاً ارتيادها بصورة منتظمة يومياً، في العاشرة والنصف ليلاً.

-كنتَ تدخل إلى مواقع صحفية، تطلّع على مقالاتك، وتنسخها على الطابعة، أليس كذلك؟

-تماماً..

أسرع بالإجابة، وكأنه يريد كسب جائزة، قبل أن يسبقه إليها أحداً غيره.

-لدينا نسخة منها، كل ماكنت ترسله للطابعة، يذهب إلى طابعتنا، في الداخل.

لم يعلّق، ساده شعور بأن الحاج، قد بدأ يضيّق عليه الخناق، رويداً رويداً.

-.. وكنت تدخل على مواقع محظورة..مواقع أخرى للتمويه. رفع الحاج صوته قليلاً، نطق عبارته الأخيرة بحزم: مواقع لجماعات سياسية معارضة، وأخرى إرهابية، هل تريد ان أذكّرك بها؟

دخل أحدهم، طلب من عامر رقم صندوق البريد، وعنوان بريده الالكتروني، وكلمة السر خاصته، سجل المعلومات على ورقة، طواها وغادر على الفور. كل ما قاله، صحيح، حدّث نفسه، عادةً ما يبدأ بتصفح الجريدة التي يكتب فيها، ثم ينتقل إلى صفحات الرأي والثقافة في الصحف العربية الأخرى، خاصة الصادرة في لندن وبيروت، العاشرة من كل ليلة، تكون معظم الصحف قد أنزلت على مواقعها في الشبكة العنكبوتية أعداد الغد، يطلّع بعد ذلك على بريده الالكتروني، وأخيراً يدخل مواقع لتنظيمات سياسية، ومؤسسات إعلامية ذات طبيعة محظورة في أغلب البلدان العربية، بما في ذلك عدداً من مواقع الإسلاميين المتشددين، الذين صار العالم كله يصنفهم، ويتعامل معهم كإرهابيين بعد أحداث الحادي عشر من أيلول، تلك التي قلبت

الدنيا رأساً على عقب، وكشفت زيف الإدعاءات بالديمقراطية، وحقوق الإنسان، لم يكن ذلك سوى تشدقاً، وبضاعة فاسدة، تسوّق في بلادنا.
الموقع الوحيد، الذي كان يتحرّق شوقاً ورغبة للدخول إليه، هو منظمة العفو الدولية، كانت عناوينها الكاملة لديه لكنه لم يجرؤ ولا مرة على الدخول إلى موقعها، يريد ان يبعث برسالة من سطر واحد، فقط:
-"أشعر بالخطر يحيق بي، قد أُعتقل، خذوا علماً".
تحدوه رغبة في الإنضمام إلى سجل الناشطين، كي تحميه الاتفاقات الدولية من عوارض الزمن المرّ.. وعلى أية حال، كل الاتفاقات الدولية في الحقوق الحريات ليست أكثر من حبر على ورق! كان يبحث عمّن يسأل عنه، أو يدافع عنه، إذا غيبته الزنازين خلفها.. لكنه لم يفعل، وعلى رغم كل الجرأة والشجاعة التي يتحلى، أو يتسلح بها، لم يجرؤ! ثمّة خوف كامن في صدره.. وها هو الآن، قد وقع في شباك الصياد الذي لا يرحم.
وصل العنصر الذي اعتقله، وضع على الطاولة كيساً أخرج ما فيه، وأخذ يوزع البيتزا على الجميع، نال حصته من طعام الغداء، كانت ساخنة وشهية، لكن دموعه امتزجت هذه المرّة بالطعام، وهو يقضم أول قطعة منه ، بكى بصمت، ارتجفت يديه، وشفتيه. واصل الأكل، وفي حلقه وقلبه غصّة كبيرة، تساءل في نفسه: إن كان هو يأكل الآن، فهل زوجته وأطفاله يأكلون يا ترى؟ ثم قُدمت له تفاحة حمراء، رمى بها في كيس الملابس، شرب جرعة من الماء، أذهلته هذه الضيافة: شوكولا، بيتزا، تفاح، ماء نقي، ماذا يريد أكثر من هكذا معاملة لطيفة، أعاد السؤال بصيغة أصح: ماذا بعد كل هذا.. ما الذي سيجري يا ترى؟
-ما هي علاقتك بالتنظيمات المعارضة، والجماعات الإسلامية الإرهابية؟
-ليست هناك أية علاقة.
-كلامك لا معنى له، وأفعالك تدل عليك!
-الفضول هو الذي قادني لدخول مواقعها.
-فضول يومي؟
-أردت معرفتهم عن قرب، من مصادرهم، بعد هجمات سبتمبر.
- عدت للمراوغة.. سأترك هذا جانباً، والآن أريد إجابة صريحة. تابع الحاج: وردت إلينا معلومات، بأنك رفضت تأليف كتاب يتحدث عن بلادنا، عن قائدنا، وعن نظامنا الفريد..لقد أجبت صراحة، أشخاصاً سألوك ما إذا كانت لديك نيّة في وضع كتاب كهذا؟
-معلومات خاطئة، ضمّ مقالي الأخير، فقرة صريحة عن مشروع كتاب حول المسألة الديمقراطية، في أعقاب أحداث سبتمر!

-لكنك قلت أشياء أخرى.. ثم من يدري مالذي كنت تريد قوله في هذا الكتاب!
كان يحضّر كتاباً عن النظام السياسي حقاً، ولكن وفق رؤيته الخاصة، ومن واقع التجربة، وتطبيق الأفكار على المجتمع، كان ذاهباً في اتجاه آخر تماماً. والآن، كثيراً من المعلومات وأوراق العمل، ومخططات الكتابة، وقعت بين أيديهم إثر التفتيش!
لم يكن يريد لأحد أن يعرف باشتغاله على الكتاب، حتى ولو أصدره باسم مستعار، كانت الفكرة واردة..
-وهذه؟
خاطبه الحاج، وهو يشير إلى نسخة من جريدة الزمان رماها إليه، كان ثمة خبر رئيسي يمين أعلى الصفحة الأولى، مثيراً للاهتمام، ومزعج لهم، ومقلق لسادتهم: "فرار سبع سجناء محكومين بالإعدام".
-كيف ستنكر علاقتك بهذا الخبر؟! لم ينتظر جواباً، أضاف:
تعرف احمد القمري؟
-طبعاً أعرفه.
-ألم يبلغك رسمياً، عدة مرات، التوقف عن النشر في الخارج؟
-نعم.. بلى طلب ذلك.. شفهياً.
-لم تلتزم، وهذه لوحدها جريمة يعاقب عليها القانون.

بدا المغيب يخيّم على المكان، وفيما يزداد الضوء سطوعاً داخل الغرفة الصغيرة، المكتظة بأشخاص يطبقون عليه، ويحيطون به من كل اتجاه، كان ضوء النهار ينحسر تدريجياً في الخارج. والدفء يتحول برودة خفيفة تترك أثرها على جسده النحيل، المرتعش.
كان الحاج يقلّب أوراق الملف أمامه، وبطريقة ما، ربما هي صدفة، رفع عامر نظره قليلاً عن الأرض، قليلاً فقط فتح جفنيه، فوقعت عيناه مباشرة على الملف، واستطاع أن يقرأ المكتوب عليه، بخط عادي رفيع: "الهدف 37"، وأن يرى أيضاً الورقة الأولى في الملف الضخم، ويعرفها، ويميزها لأنها ببساطة مقالته الأخيرة.. استغرب وجودها هنا في إضبارته، وتساءل في نفسه، إن كانت هي أيضاً دليل إدانة ضده!
لكن تلك المقالة، لها قصة أخرى!
قبل نحو عامين، آنذاك يعمل في مركز للدراسات، استدعاه المدير الجديد، صديقه سامي، شكى له وتذمر من فشل كثير من حملة الدكتوراه، عن إنجاز دراسة تتناول نقد الديمقراطية الغربية، بما فيهم أولئك الذين تلمع أسماؤهم في الجامعات، والندوات، ووسائل الإعلام! أسرّ له أن الدراسة لـ: "فوق" شخصياً، وانتهى به القول:

- قلت أطرح عليك الأمر، لعلك تنجح فيما فشل فيه أبناء البلد.
تردد في قبول ذلك، لكنه أمام الحاح سامي، قبل، وفوّضه في أن يشكل فريق البحث الذي يختار، بضمان المردوده المادي والمعنوي الكبير. أنجز العمل لوحده، لا فريق عمل، ولا من يحزنون. وأثناء طباعته اكتشف أن اسمه قد أزيح عمداً عن الدراسة، فلم يُسلِّم عمداً، قائمة المراجع والمصادر، والنسخة الأصلية بخط اليد. لقي العمل استحساناً وترجم إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية،.. ولم تحفظ له حقوقه المعنوية، ولا المادية. ترك ذلك آثاره النفسية المؤلمة عليه، فأوقف تعامله العلمي والفكري مع سامي، وبعد أكثر من سنة دعته مجلة المؤتمر للكتابة فيها، فقدم ذلك البحث بصورته الكاملة، لينشر في عددها الأول.
الآن يرى البحث، في إضبارة التحقيق هنا، فهل قاده النشر إلى الهلاك!
خرج الحاج قليلاً، ثم عاد إلى الغرفة، يحمل في يديه ملفاً جديداً، لكن قليل الأوراق:
-المحضر السابق، فيه بعض الأخطاء، سنقوم بقليل من التعديلات عليه..
نظر إليه، وأضاف:عندك مانع؟
-أبداً.
أجاب، وكأن لديه خيار آخر. أو أنه لن يجبر على ما يشاؤون. طلب من زميله، أن يأخذ أوراقاً جديدة، وأن يبدأ بكتابة كل ما يقوله له! أشعل سيجارة، طلب شاي، ثم تحرّك نحو الباب، وقف وظهره للغرفة، ثم التفت برأسه نحو عامر وسأله:
-جاهز؟
-نعم.
أجاب وقد خامره شعور بالقلق، شيء ما تغير في لهجة الحاج، وفي نظرته المواربة تلك، ومن طرف عينه التي أحس بها تحضّر له شيئاً.. أو أنها -ربما- تضمر له الشر!
-أطلب منك تفسيراً، لبعض الأوراق التي عثرنا عليها عندك. تتذكر المغلف الذي سلمته لنا.. وما فيه، من البداية، نستعرضها ورقة، ورقة!
فتح الحاج الملف الجديد الصغير، وأخذ يقلّب الأوراق ويضعها جانباً، ثم يعرضها واحدة، واحدة عليه ، ويسأله إن كان هذا خطه، ويطلب منه ملخصاً بكلمتين عما تحتويه كل واحدة منها، ومرت الأوراق بين يديه على عجل، وهو يشرح باختصار مفيد:
-هذه قائمة لسجناء سياسيين، تم إطلاق سراحهم قبل شهر، وهذه حول صناعة القرار، وهذه حول أحداث مجزرة سجن أبو سليم ، وهذه حول المحاكم الاستثنائية.. وهذه حول قرارات مجلس الأمن، وهذه حول العقوبات الدولية.. والأخيرة هذه أحكام قضية الشغب..

كان الحاج يعيد ما يقوله، ويمليه على الكاتب بعد التعديل الذي يريده، دون أن يترك له تصحيح الأقوال. ثم طلب اليه أن يوّقع على كل صفحة، وأن يرقمها بيده، أعاد الأوراق إلى الملف وسلّمه للكاتب:
-ارفق الملف بالأوراق، واحرص عليها.
والتفت نحو عامر قائلاً له:
-بالطبع.. أنت تعرف أن هذه جميعها، أسرار دولة.
-كيف أسرار دولة؟!
نهره الحاج بعصبية، وصوت عالٍ:
-لا تفتح فمك.. حتى أسألك.
هزّ رأسه، وقد عقدت الدهشة لسانه، وخنقت العبرة حلقه، نظر بعينين ملؤهما السؤال نحو الكاتب، وأشخاص آخرين. عينين جزعتين خائفتين، وهو ينكر في نفسه الخطورة التي أوصله إليها الحاج بكلماته الأخيرة تلك.
-يجب أن تقول لي من أين لك بهذه المعلومات.. وما هي الجهات التي قدمتها لها.
-لم آخذ من أحد ولم أعطِ لأحدٍ أي معلومات.
نفث الحاج سيجارته في وجهه ، ثم سحب ورقه من أسفل الملف، وقال:
-وهذه الأسماء؟
أخذ يعدد له الأسماء المسجلة في الورقة: صحفيين، مثقفين، دبلوماسيين، أصدقاء له.
-لا شأن لهم بذلك.
-ليست هناك فائدة من الإنكار.
-أنا كاتب، وصحافي. . وهذه مواد بحثية وإعلامية.
-سوف تندم على عنادك.
أمر بإعادة العصبة على عينيه، وتقييد يديه إلى الخلف، سُحب نحو الباب، وفجأة تلقى ركله موجعة على مؤخرته، أطاحت به على الأرض خارج الغرفة. أمسك بياقة قميصه، أنهضه، ودفع به بقوة في الساحة، فوق الحصى، وقبل أن يتحرك من مكانه، وضع قدمه فوق رقبته، وضغط عليها فالتصق صدغه بالأحجار الصغيرة المدببة.
طلب الحاج من عناصره، نقله إلى "الاستراحة". وعلى الفور بدأ شخصان بربط قدميه بالحبال ولفها بصورة كاملة من القدمين، حتى الكتفين، رُفع عن الأرض. نقلوه كما ينقل الميت، خطوات قليلة ثم وضعوه فوق طاولة خشبية، في مكان تنبعث منه روائح نتنه، كريهة، مقرفة، ومثيرة للغثيان. بطنه على الطاولة ورأسه يتدلى، ورقبته على الحافة. أما قدميه فكانتا في الهواء، خارج الطاولة. حلوّا وثاقه، ثم أعادوا ربطه إلى الطاولة مجدداً، وظل معصوب العينين مكبل اليدين.

بقي على هذه الحال، في صمت رهيب، لا يقطعه سوى طنين الحشرات الذي يملأ أذنيه، وهي تدور حول رأسه وتلسعه، وتمتص دمه من يديه أو وجهه. لم يكن قادراً على حماية نفسه منها، دون أن تأبه لحركات رأسه البسيطة يميناً وشمالاً، أو حتى تحريك أصابعه.

فجأة أحسّ باللوح الخشبي يتحرك تحت رجليه، ويصدر أزيزاً خفيفاً تحت وطأة الوزن، وقوة الشد إلى أعلى بصورة تدريجية وبطيئة. كان اللوح يرتفع أكثر من الخلف، تسارعت دقات قلبه، وغمره إحساس بالضيق الشديد، والحنق. بقي صامتاً، لم يفتح فمه بأي حرف، لم يصرخ، أو يتأوه حتى. كان يبكي في داخله، دون دموع، بكاءً مرّاً، مما يلحق به من قهر وإذلال، وإهانة يمعنون فيها شيئاً فشيئاً، لم يكن قادراً على مواجهتهم، إلّا أنه سيصبر، بانتظار ما قد يقومون به لاحقاً.

انزلقت الحافة الأمامية عن الطاولة، وصار جسده فوق اللوحة المائلة، يتأرجح مع استمرار ارتفاعها حتى أصبحت عمودية تماماً، قدميه في الأعلى، ورأسه إلى الأسفل. لم يشعر بوجود أحد في المكان، لا صوت، ولا حركة، إلى أن أحس بيد أحدهم توقف اللوحة عن الأرجحة، ثم دفعها باتجاه اليسار. فأخذت اللوحة تدور، وعامر فوقها يدور.. بدأ الخوف يتملكه أكثر، وينخفض ضغطه، حتى ليكاد يغمى عليه، ثم بدأت اللوحة بالنزول، وكلما اقترب رأسه من الأرض، ازدادت شدة الروائح الكريهة، ومعها تزداد حركة الحشرات وأعدادها، وأيقن أن رأسه، ماضٍ نحو فتحة فيّاضة للمجارير. توقفت اللوحة، وصار يتنفس الهواء الملوث، ولم يلبث أن بدأ بالسعال والعطس. اضطرب تنفسه وضاق صدره ثوانٍ قليلة. دقيقة واحدة في هذه الحالة، كافية ليرى الموت بأم عينيه. لم تعد لديه القدرة على الصبر، صرخ بصوتٍ عالٍ، متقطع،ومبحوح، كغريق يطلب النجدة:

-هواء.. هواء.. اختنقت!

واصل نوبة العطس والسعال، أنفه يسيل، وصدره يصعد ويهبط بصعوبة، عاد يصرخ:

-اختنقت.. أنا أموت..

لم يلقَ جواباً من أحد، ظل الصمت مطبقاً على الإستراحة الفارهة !

9

امتدت كفّان خشنتان، ضخمتان، ضمتا رأسه، وعدّلتاه إلى أعلى قليلاً. أُعطي جرعتان من دواء الربو، تلقفهما بقوة وشغف كبيرين، مع الهواء الفاسد. حبس أنفاسه لحظات، يستنشق عبر أنفه، لكنه لا يطلق الزفير. بدأ صدره يهدأ قليلاً، وتوقف السعال، وبقي على هذه الحال: مربوطاً إلى اللوح، مقلوباً، رأسه لا يعرف أين، وما الذي يبعث تلك الروائح النفاذة، سوى مجرى مياه، أو وعاء كبير مملوء بالبول والغائط.

مرّ وقت طويل، ربما أكثر من ساعة. أرخى جسده المنهك للحبال، وذهب فيما يشبه الإغماء، ولم يعد يحسّ بشيء، إلى أن أنعشته الماء التي تُصبّ على رأسه، تُبلل شعره، تسيل على جبينه ووجهه ورقبته. ثم بدأ سحبه إلى أعلى، ورويداً أخذت اللوحة تستعيد مكانها وتستوي أفقياً.

سمع صوت الحاج يهمس في أذنه:

-مازلت حياً.. ها.. لم تمت! لا تخف نحن نوصلك للموت، تعاينه، يتعرف عليك، ونردك حياً!

أمره بأن يخلع ثيابه كاملة، فكوا وثاق يديه، وبدأ ينزع سترته أولاً، فالقميص، ثم البنطال، وقميصه الداخلي، وتوقف. لم يبق سوى ما يستر عورته، صاح به أن يخلع ما تبقى. ارتجف من صوته، تلعثم، هربت من فمه الكلمات، وهو حائر بين أن يتوسل إليه، أو ينكبّ على قدميه، لكنه لا يرى شيئاً:

-أرجوك..

قهقهة، فعلت ضحكاتٌ أخرى، تلتها همهمات. أدرك أن المكان مليء بالناس، ركب الوسواس رأسه، وملأ الذعر قلبه، وهو يتذكر صرخات ذلك المعذب في القبو، خاف أن يضعوا عصا الكهرباء في خصيتيه، مثلما فعلوا بالتعس المسكين.

-اجلس.

مدّ ذراعيه من حوله يتحسس الشيء الذي سيجلس عليه، التقت كفه اليسرى بمقعد اقترب منه وجلس بحذر، وعندما اكتشف أنه كرسي وثير مفروش بالجلد، أسند ظهره إليه، وأرخى أعصابه، ضم يديه ووضعهما أعلى فخذيه، وكأنه يستر عريّه، بإخفاء عورته، التي يغطيها السروال الداخلي الضيق والقصير.

-اسقوه ماء.

-خذ.

مدّ يده ليتناول الماء، وبدلاً من أن يأخذ كأساً، لمس شيئاً بارداً، ثم انتفض في مكانه، وندت عنه صرخة مكتومة، قادمة من عمق أضلاعه.

-قلت لكم ماء، وليس كهرباء.

-خذ.

ومرّة أخرى تلدغه عصا الكهرباء، صرخ ثانية، وأخذ يمتص إصبعيه اللتين أحرقتهما الكهرباء.. كأنها لسعات عقرب. أو الاثنتين معاً.. وتواصلت صعقات الكهرباء في أماكن مختلفة من جسده: أصابع قدميه، خاصرتيه، سرّته، شحمتي أذنيه، كان يتأوه، يصرخ، يرتعش جسمه، يلوذ بكرسي الجلد الفاخر..عارياً يرتجف من البرد لساعة متأخرة من الليل. ساديون يتلذذون بتعذيب الآخرين.. كلاب. قال في سرّه: إن الكلاب لا تقبل بهم!

-ارتد ثيابك.

مثل أعمى، وعلى عجل بدأ يرتدي ثيابه، كيفما اتفق يريد أن ينتهي من ذلك، قبل أن يغيروا رأيهم، أو تخطر على بالهم فكرة أخرى، من أفكار التعذيب الخلاقة، والمبتدعة. اقتادوه خارجاً، نحو الحمام، سمحوا له ببضع دقائق، ليتبول ويغسل وجهه ويديه، ويسوّي هندامه. فوق المغسلة قليل من ذرات الصابون، وقطعة من مرآة مكسورة لم يستطع أن يرى فيها وجهه كاملاً، حدّق في المرآة، رأى وجهاً خلفه يتابعه بنظراته، عيناه ما تزال موجودتان، لكنهما متورمتان حمراوتان، حواجبه، أنفه وفمه وأذنيه.. كما هي، حثّه الحارس على الخروج، استدار عائداً، وعينيه على الأرض.

وجد عشاءه جاهزاً، على المقعد الخشبي، رحّب به الحاج وأمره أن يأكل، مدّ يده نحو فردة الخبز، أخذ منها قطعة صغيرة، ثم غمسها في الطعام، كانت الخبزة جافة، والطعام قليل من الحساء الأحمر البارد، في وعاء كبير، جفّت على جوانبه بقايا وجبات سابقة! تناول لقيمات ثلاث بلا رغبة، توقف عن الأكل، واعتدل في جلسته، وهو يمسح فمه بظاهر كفه.

-كُلْ.. شبعت؟.. أم أن الطعام لم يعجبك. مشوارك طويل معنا، ويجب أن تعتاد على طعام كهذا.. وجباتنا جيدة، لكنك ركبت رأسك، كان ساخناً.

سكت وهو يقلّب الولاعة بأصابعه، ثم أضاف: الليل طويل، خذ الخبزة، الجوع لا يرحم.
سحب الخبزة، ورماها في كيس الثياب، إلى جانب التفاحة الحمراء، وهو يحدث نفسه:
"خائف عليّ من الجوع.. ابن الكلب، أكلنا الشوكولا والبيتزا، ووقعنا على الأوراق، وفعلمتم بي ما فعلتم.. فكيف لو أكلت التفاحة؟".
خرج الجميع من الغرفة، ظل الباب مفتوحاً، وعامر ملتصق بمقعده لا يستطيع الحركة. ولا ينظر حوله إلاّ بحذر شديد. وبدأت رائحة الشواء تصل إلى أنفه، وتملأ المكان، بلع ريقه، وتلمظ شفتيه، وتأوه متذكراً الأيام الماضية: الأولاد، والشواء، والشراب تحت المطر. عبثٌ ومتعة يفتقدها الآن، والله وحده يعلم ما الذي يخبّيء له هؤلاء الأوغاد، الذين راحوا يأكلون الشواء، وهو يتقلب على نارٍ تحرق قلبه، وقلوب أحبته.
لم يعد مطمئناً لما يدور حوله، إنهم يتجهون لمزيد من توريطه، بأكثر مما أرادوه في السابق، لم تكن لديهم الأدلة لإدانته في أي اتهام، فعملوا على نهج سبل أخرى، يحكمون فيها قبضتهم عليه، لإدخاله السجن بأي صورة، وأي اتهام ممكن.
كانت مقالاته الأخيرة، تنتقد الوضع السياسي السوري، بدءاً بالبرنامج الرئاسي، والأداء البرلماني، وصولاً إلى قضايا حقوق الإنسان، وهذه وحدها كافية لتسليمه، لمن يقوم بواجب التأديب في الوطن! أما الورقة الأهم، التي لمحها في الملف، ولكن الحاج لم يشر إليها إطلاقاً، فهي رسالته إلى رئيس حزب البعث، يرد فيها على قرار فصله.. دون أسف، فالتنظيم لم تعد له قيمة، أو فاعلية..منذ زمن بعيد..وطويل!

كان ذلك رأيه منذ وقت مبكر، في التاسعة عشرة من عمره، عندما اصطدم بحقائق العمل الحزبي والنقابي، فاكتشف زيف الديمقراطية، وكذبة العمل من أجل المثل العليا، وأن ذلك لا يعدو أن يكون أكثر من وظيفة، أو غنيمة، أو سلطة وجاه، وعندما جهر بأقواله، واجتهد في نضاله النقابي، واجهته المصالح الضيقة، فصل من التنظيم النقابي، وتعرض للملاحقة الأمنية، والتحقيقات المتواصلة.. لكنه حافظ على شعرة معاوية: علاقته بالحزب.
ذات مرّة، أسرّ له عباس الضائع، بعد سكرة على ضفاف العاصي، أن البعث حزب عقيم.. فمدرسته لم تخرّج شاعراً واحداً، وأن الشعراء الذين يحسبون عليه، برز تميزهم قبل أن تكون للحزب تلك السطوة والسلطة.. ثم دولة الفساد.

حجّة صاحبه تستحق التفكير، لكنه لم يكن بحاجة لمزيد من الحجج، و بقي الحزب أخر اهتماماته، ثم رماه خلفه عندما غادر الوطن..وهناك دعاه السفير فخر الدين إلى فنجان من القهوة، وبلطفه المعهود، ولباقته، ورقة ابتسامته، زفّ إليه البشرى:
-تنظيمك الحزبي، وصل إلينا، مبروك.
ابتسم، تظاهر بالفرح، شكره، وحمّله امتنانه لقيادة الحزب على تجشمها عناء العمل من أجله، في المغترب! وراح السفير يحدثه عن ضرورة الالتزام، والتردد إلى مكتبة المفتوح دوماً.. وأن يبدأ مرحلة جديدة من التعاون والعمل الثقافي، والحزبي بالطبع.
- سنشكل قريباً، قيادة للحزب، هنا..
قال الأستاذ فخر الدين، ثم أشار بسبابته إليه:
- وستكون ضمن القيادة الجديدة.. أنا رشحتك، وأريدك إلى جانبي.
مضى عامر في سبيله، لم يكترث للأمر، كان تردده وتعامله مع السفارة أكثر من شكلي، ولم يصبح عضواً في القيادة الحزبية، ثم صارت مقالاته وآرائه، مثاراً لانتقاد موظفي السفارة، الذين يقومون بمهام كبرى لصالح الوطن: كتابة التقارير ضد أبناء بلدهم، وبيع الويسكي والعرق، وتهريب الدولار، والاحتفاء بالعاهرات!
وأخيراً، وجد نفسه مثيراً للريبة والشكوك، بعد اعتراضه بشدة على إنشاء مركز ثقافي لبلده، كغطاء للعمل الحزبي، نجح الغطاء، وسقط المشروع الثقافي وانتهى به الأمر خارج الحزب: "يفصل، ولا يبلّغ" فلم يأسف، فقد ربح نفسه، واستقلاليته، وحريته أيضاً، بشكل من الأشكال.

عادت المجموعة إلى الغرفة، وفي يد كل واحد منها كأس من الشاي الأخضر، قدم الحاج كأساً آخر له، سحب كرسياً وجلس إلى جانبه، وبدأ يحدثه:
-تركناك كل هذا الوقت، لتفكر بهدوء، وروية، دون أي ضغط، أو إكراه.. لا سمح الله قد نضطر إليه. على العموم، ما جرى لك.. قطرة في بحر، يعني، كما تعرف أول الغيث قطرة. أقول لك بصراحة، سنحصل على ما نريد، وسوف توّقع، وفّر على نفسك الإهانة والتعذيب، والمذلّة، ووفر علينا الوقت والجهد.
توقف عن الكلام لحظات، أشعل خلالها سيجارته، نظر إلى الآخرين، نظرة فاحصة شاملة، ثم ثبت عيناه في عينيه :
-بصراحة.. كما وعدتك من قبل، أحفظ لك سلامة الأسرة، وفوق ذلك وعد جديد.
-ما هو؟
-أن لا تحاكم، وألا تسجن..
-ماذا إذن؟

-أمرين، الأول أن تتعاون معنا، لنستفيد من خبرتك، نطلق سراحك، وتبقى في البلد.. تفعل ما تشاء، بمشورتنا. والثاني نطلق سراحك، ونمنحك عشرين يوماً، ترحل خلالها من البلاد، بإرادتك، وتختار الوجهة التي تريد، ودون أن نتدخل.. موافق؟
-أرحل.
أعاد الحاج تلقين الكاتب، أقواله الجديدة، التي لم يقلها، وما كان يقوله يخضع للتحريف والتبديل ويثبّت في المحضر. وفي هذه المرّة، لم يكن عميلاً لبلاده، كما في المحضر أو الاعتراف الذي ألغي الآن.. بل أنه يقدم المعلومات ذات الطابع السري عن الدولة، لأطراف خارجية، بما فيها بلاده، وضمّت جميع الأوراق: البحوث والدراسات، والمعلومات التي وجدت في منزله حول السجون وحقوق الإنسان، والسجناء السياسيين.. إلى الاعتراف الجديد.
توقف عن التلقين، وتوجه إليه بالسؤال:
-نريد مصادرك.
-أية مصادر..
-لا تكن غبياً.. ونحن لسنا أغبياء أيضاً، من ساعدك في الحصول على تلك الكمية الهائلة من المعلومات والوثائق؟
-لا أحد. ثم أي معلومات ووثائق!
-لا تضع نفسك في موقف محرج معنا.. لا تنسّ اتفاقنا.. ما بك! كل شيء سيكون شكلياً، ولصالحك.. صدقني.
حرك عامر يديه، مربكاً، وحائراً.
- ليست لدي أية مصادر، ولا يمكن ان أزج بأسماء أناس لا علاقة لهم.
لم يعلّق الحاج على كلامه، لكنه أخذ يردّد أسماء أقرب الأصدقاء إليه، ممن يلتقيهم يومياً، ويتبادل معهم الأفكار والآراء وجلسات الشعر والخمر والتسكع، والتصعلك. صحافيين، كتاب، شعراء، محامين..وكلهم ناشطون. انتفض مذعوراً، وخائفاً، ولأول مرة يجرؤ على مقاطعة الحاج:
-أرجوك، أرجوك توقف، لا علاقة لأحد من هؤلاء بأي شيء، أنا اتحمل المسئولية الكاملة، أرجوك لا أريد أن يتضرر أحد بسببي.
لم يأبه الحاج لنداءاته، وتوسلاته، ثبّت أسماء عشرة أصدقاء، كمصدر للمعلومات! لكنه في المقابل لم يذكر ثلاثة أو أربعة أسماء، لأشخاصٍ على تماسٍ شبه يوميّ معه! أدرك فيما بعد، أنهم كانوا ضمن سلسلة المخبرين الذين أحاطوا به لسنوات طوال!
- تقرأ المحضر..ثم توقع عليه. لكن الوقت صار متأخراً، وأنت تعبت، وقع على الأوراق، وارتاح.. غداً تقرأه.

وقع على كل الأوراق، واحدة، واحدة. كانت الرابعة فجراً.. عصبت عينيه، نهض واقفاً، حمل كيس الثياب وبداخله خبز يابس وتفاحة حمراء. وقبل أن يتحرك أخذه الحاج جانباً، وقال له بصوت خفيض:

- من الآن اسمك محمد علي محمد، وأنت تونسي..إياك أن تذكر اسمك الأصلي.. انساه.

اقتيد بهدوء، على درب الحصى، تلّفه نسائم فجر ربيعي آسر، نقي وصافٍ.. نحو الزنزانة المظلمة!

10

عشرون عاماً وأكثر، ربما منذ ربع قرن.. وعامر يلعب لعبة القط والفأر مع المخابرات. بداية كانت تستهويه اللعبة، شاب في مقتبل العمر. من هو في سنّه ينشغل بالعشق، ورسائل الحب، ومطاردة بنات المدارس، مثلما كان يفعل كثير من أصدقائه، يقضون وقتاً طويلاً تحت المطر، أو في البرد القارس، فوق الجليد، بانتظار فتاة تطل من النافذة، أو الباب، لتبتسم فقط.
اكتوى بالعشق والشعر معاً، لكنه ابتلي بالسياسة، ففي صباح ثلجي، وقعت يداه على رزمة من الأوراق بحجم الكف، مرمية في إحدى زوايا شارع فرعي خالٍ من المارة، في وقت مبكر جداً، التقط إحداها وما أن التهمت عيناه السطور الأولى حتى سارع بانتشال كمية الأوراق كاملة.. كانت المناشير تحرّض الناس ضد الدولة، وتدعو إلى العصيان المدني. احتفظ بواحدٍ منها في جيبه، ثم راح ينثرها على جانب الطريق، بحذر، دون خوف، الحزب السري الذي أصدر المنشور لا يعنيه، ولم يكن منتمياً إليه، لكنه لبّى نداء خفياً دعاه لتوزيع المنشور، فيقرأه أكبر عدد من الناس..
كان ذلك أول تحدٍ مارسه باستقلالية تامة..ومرّت بسلام.
ظهراً، أسرّ لوالده، بأنه اكتشف رزمة المنشورات، ورماها بعيداً، نظر إليه بدهشة، وصمت، قبل أن يجيب:
-حسنٌ ما فعلت، انتبه لنفسك من هذه الأشياء.
ثم حدّثه والده، عن اكتشافه أيضاً هو رزمة، أو رزمتان من المنشور نفسه، في المنطقة عينها، مرميتان تحت السور الداخلي للجامع..لكنه لم يقل ماذا فعل بها.
لم يعرف أين يخفي المنشور، خشي افتضاح أمره إن وضعه بين الكتب.. فكثير من الزوار والأصدقاء يقفون على المكتبة..وضعه تحت غطاء الأريكة، وبين الحين والآخر يقرأه، أو يطلع عليه أصدقاء مقربين، كانوا ينظرون إليه بطلاً شجاعاً، في وقت تغلي فيه البلاد بما يشبه بحرب طاحنة في حماة وحلب، بين الدولة وأحزابها، وحركة الاخوان المسلمين وحلفائها، من طرف ثان، في صراع دموي على السلطة.

ذات عصر، رنّ جرس الباب، فتح عامر، فأطل عليه وجه يعرفه.. ويخافه:
-أنا عبد السميع.. زوج هند.
غرفة الضيوف، كانت بهواً واسعاً وكبيراً، دخل وجلس فوق المنشور المخبأ، كاد الهلع والخوف أن يفضحه، للوهلة الأولى، أي حركة من عبد السميع، ستؤدي إلى صوت تصدره الورقة الناعمة!
عبد السميع عرّف عن نفسه، بأنه هنا في مهمة لصالح فرع الأمن السياسي، ومع القهوة، وبعدها أسئلة وأجوبة، قال له أنه تولى بنفسه إجراء دراسة أمنية ضرورية عنه.. خدمة له، أفضل من أن يقوم بها أي شخص آخر! ولأكثر من ساعة جلس فوق المنشور، لم ينتبه له، وفور مغادرته أخرج المنشور، ومزّقه قطعاً صغيرة جداً، ثم حرقها في منفضة السجائر، ورمى الرماد في المرحاض. مرت الأمور على خير، لكنه أدرك أنه يدفع بنفسه نحو الهلاك، وعليه أن يحذر روح التمرد الفوّارة في دمه، وزيارة عبد السميع..ثمة ماوراءها!
لكن الخيبة الأولى أطلقت روح التمرد من أضلعه، فقد شرب كأس المرارة، حين حرّض طلبة الثانوية، ومن ثم ثانويات المدينة، على الخروج في مظاهرة تندد بالسادات، ما أن وضع رجله في مطار بن غوربون حتى خرج الشباب دون إذن من الدولة، ودون ترتيب أو تنسيق للشعارات، لم يحمل أحد لافتة، أو علم أو صورة، طافت المدينة من شرقها إلى غربها. أقلقت قيادات الحزب..وأطلقت أجهزة الأمن خلفهم. وأخيراً، عند مقرّ الحزب خاطبهم المسئولون الحزبيون الجزعون:
أخذت الأجهزة الأمنية، مدعومة من المحافظ تلقي القبض على مدراء المدارس وبعض المدرسين في الثانويات التي شاركت في المظاهرة، تحقق معهم، في جو من التعذيب والإذلال والاهانة لعدة ساعات.. ثم تطلق سراحهم.
المتهم الأول في التحريض والتنظيم للمظاهرة عامر، تلقى إشارة من أحد المدرسين، فلاذ بالفرار من المدرسة، ساعة دخول دورية الأمن لاعتقاله، اختفى ثلاثة أيام.. ثم انتهى الأمر بتحقيق حزبي، فمرت الأمور، مرّة أخرى، بسلام! ومنذ ذلك اليوم لم تتوقف أجهزة الأمن بأنواعها عن متابعته، وملاحظته، ودراسته، مرّة بعد مرّة.
بعد عشر سنوات، استدعاه رئيس جهاز الأمن الأكثر إخافة، والأكثر بطشاً، والأكثر تدخلاً في شؤون الناس: الأمن العسكري ! استدعاه لتناول فنجان قهوة، وقد صار عامر "مديراً"! قوبل بالترحاب منذ وصوله الباب الخارجي، لم يُسئل عن بطاقته، ولم يُفتّش، مثُل أمام رئيس الجهاز كضيف مميز، قهوة، وحديث ودي ووعود، بتذليل أية صعاب يمكن أن تواجه مديراً جديداً، شاباً مثله، طلبه الوحيد فقط، أن يكون متعاوناً مجداً.. وعلى طول الخط معه، وختم بالقول:
-كل هؤلاء المدراء، الذين تراهم..

ورسم بسبابته اليمنى قوساً كبيراً أمام وجهه وأضاف ابو فادي:
- كلهم، نحن نسند كراسيهم..
كانت الرسالة واضحة تماماً، وجليّة، نهض شاكراً، ورافقه رئيس الجهاز مودعاً نحو الباب، ودعاه إلى رحلة صيد على حسابه، يوم الجمعة، لقنص الأرانب، فلم يذهب!
أربعون يوماً فقط، استبدل عامر بمدير جديد، ولم يمض سوى إسبوع واحد حتى استدعي مرّة ثانية.
رن الهاتف في مكتبه، كان المدير الجديد على الخط، من الغرفة الملاصقة تماماً:
- أبو فادي يريدك!
كانت العبارة كافية، ليصاب من يسمعها بالجلطة القلبية، ويقع أرضاً، تمالك نفسه، أغلق سماعة الهاتف بهدوء أدار ظهره للطاولة والمكتب، وغابت نظراته في الحديقة الخلفية، ومن ورائها السيارات التي تعبر الطريق.. غامت الدنيا في عينيه وأحس بقهر شديد يطحنه. نهض بتثاقل، ومشى بخطى واهنة نحو مكتب المدير، وبادره بالسؤال:
-كيف.. لماذا يريدني؟
-لا أعرف، اتصل بي منذ قليل وطلبك.. رح له عشية.
عاد إلى مكتبه وهو غارق في التفكير بالكلمات التي سمعها تخرج من فم المدير إلى أذن المسئول الحزبي، عندما دخل مكتبه فجأة.
"- كيف شيوعي يا رجل.. أليس بعثياً؟
- بعثي.. لكن لا أعرف! ".
مع الغروب كان يأخذ مكانه أمام بوابة الأمن، طُلبت منه بطاقته الشخصية، فتشوه، وأرسلوه مع عنصر إلى مكتب في الطابق الأرضي، كان المكتب خالياً إلا من طاولة يجلس عليها شخص، وفي الزاوية خزانة حديدية، وخلفها عجلة، وفوق الخزانة ثمة مجموعة من العصيّ والسياط، جلس على الكرسي الوحيد حذاء الطاولة، وأمامه مباشرة الدولاب، والخزانة، والسياط. خضع لاستجواب قصير، ثم اقتيد الى مكتب أبو فادي .
تقدم مربكاً بضع خطوات، ووقف في منتصف الغرفة، أشار إليه بالجلوس، دون أن ينهض لملاقاته كما في المرة السابقة، شعر بأن الأمور مشحونة ضده، كان وجه أبو فادي مكفهراً، وعيناه تشعان غضباً:
-لماذا لم ترد عليّ؟
-في أي شيء.. سيدي!
أول مرّة تخرج من فمه كلمة "سيدي"، لا إرادياً، كان الخوف حقاً يملأ قلبه.
-ألم نتفق على رحلة الصيد يوم الجمعة؟

صمت، لم يعرف بماذا يجيب هذا الغول!
-هذا ليس موضوعنا. ما هذه المضافة التي تفتحها في مكتبك؟ ومن هؤلاء الحثالة الذين يترددون عليك؟
-إنهم مثقفي البلد..
-شوف ولاه..
أخذ أبو فادي يوجه كلامه، مهدداً بسبابته، محذراً، متوعداً متهماً إياه بالتعاون مع الشيوعيين، والناصريين، وكل المعارضين.. أو بالانتماء إليهم. وذكّره بأنه بعثي، وأن ازدواجية التنظيم السياسي، عقوبتها الإعدام..
سكت أبو فادي قليلاً، دق الجرس، وطلب زهورات، وقبل أن يمدّ عامر يده إلى الكأس فاجاه بالسؤال:
-المرأة التي تتنقل من حضن رجل إلى أخر.. ماذا نسميها؟! عاهرة.. أليس كذلك؟
-نعم.
-وهذا هو أنت!
ابتسم، نظر لأول مرة في وجه أبو فادي، تشجع وقال:
-أنت تعرف، أني لست كذلك، والمعلومات التي وردتك اليوم غير صحيحة!
فتح أبو فادي عينيه دهشةً، اربكته شجاعته لوهلةٍ، ثم استعاد المبادرة:
-أي معلومات وصلتني اليوم، ما قصدك؟
- سمعت المدير يتحدث في نفس الموضوع مع المسؤول الحزبي.
لم يجب أبو فادي، أدرك عامر أنه ربح الجولة هذه المرّة، وقبل أن يأمره بالانصراف، حذّره أن يلعب بذيله معه.
-وراك، وراك.. والزمن طويل.. والله لأمسح فيك "الرقة" كلّها.
خرج سالماً، وبقيت كأس الزهورات ساخنة فوّاحة، دون أن يلمسها بأصابعه، رمى نفسه في عتمة الطريق، هائماً، ووطأة القهر، والغضب المكتوم تثقل على صدره. كان ضعيفاً لدرجة لا توصف، أمام قوة لا حدود لها، يمكن أن تفعل به ما تشاء، تعذبه، تعتقله، وتقتله أيضاً، دون أن تُسأل! مسح جبينه ووجهه بباطن كفه، كان المساء صافياً، ورائقاً، تهب فيه نسائم الغربي القادمة من أفق الفرات، ركب الحافلة وتوجه إلى مكتبه، في الحمام أرخى أعصابه وغسل رأسه بالماء:
-فنجان قهوة.. من غير سكر.
قبل أن تصل إليه القهوة، كان بشير يدخل باسماً محيياً، وما أن جلس حدّق باستنكار إلـه، وهو يمسد لحيته الحمراء:
-خيراً.. مالي أراك عابساً؟
- كنت عند بو فادي !

أجاب بهدوء، وندت عنه تنهيدة طويلة، وأشاح بوجهه نحو النافذة.
-مثل المرّة الماضية؟
-أبداً، والظاهر أن نهايتي قربت.
-يا رجل، دعك من هذا الكلام.
طفرت من عينيّ عامر دمعتان، رمى برأسه على حافة الطاولة، وهو يمسح دموعه.
- ابوزيد.. مضى شهر على اعتقاله، ولا نعرف له قرار..
الأستاذ عبد الغفار، واحد من أعلام الثقافة في المدينة، طوال سنيّ عمره، لم يتخلف عن العمل دقيقة واحدة، ذات يوم جاء متأخراً بضع دقائق، جلس إلى مكتبه نصف ساعة، ثم دخلت دورية من الأمن، اقتادته دون إذن رسمي، ولم تكترث لأسئلة عامر، الذي سارع بإبلاغ المحافظ كتابياً فجاءه الجواب، عبر الهاتف، من أمين سره على وجه السرعة:
-المحافظ بالصورة.. اطلع منها أنت.
رنّ جرس الهاتف، المدير الجديد على الخط، لم تأخذ المكالمة أكثر من لحظات، نهض بشير من مكانه، واقترب منه مخففاً.
-المدير كان على الخط، يطمئن على عودتي مؤدباً!
فتح بشير فمه، وارتفع حاجبيه دهشته، سقطت السيجارة من يَده.. واستدرك، فانحنى يلتقطها:
-ما الحكاية؟
-أبو فادي استدعاني، بعد مكالمة من المدير، يبدو أنه شكاني، وفوق ذلك.. وشى بي بما يقودني إلى حبل المشنقة.
- مازال الكرسي تحت إليته بارداً.
خرجا من الغرفة، نظرا نحو المكتبة، حيث قضى الأستاذ عبد الغفار سنوات طويلة يرعاها بكل أحاسيسه. قال بشير ممازحاً:
-أبو زيد أمس، وغداً أنت، وبعدكما أنا.
جلجلت ضحكتهما في الشارع.
-لنشرب نخب ضياعنا إذن.
-ونخب النساء اللواتي غررن بنا..
-اشرب عليها تنجلي..
كأساً وراء كأس، لمعت الدنيا، وازدانت بالزهور وصار يرى في هذا الليل الجميل، امرأة خارجة للتوّ من نهر من العطر، تحفّ بها النجوم، تملؤه الشهوة ليسرق من نسائم الليل أوراقها الندية.

صباحاً جاء المدير، يتأبط مجموعة كبيرة من الكتب، وقبل أن يدخل مكتبه مال برأسه نحو عامر، ودعاه لشرب القهوة ، وضع الكتب بطريقة استعراضية فوق الطاولة، كان الأمر غريباً لمن يعرف هذا الرجل. اشترى كمية من الكتب تعادل قيمتها ستة أضعاف مرتبه الشهري، بناء على نصيحة الشاعر عباس الضائع، الذي همس له ساخراً:

-صرت مديراً! والتعامل مع المثقفين صعب.. يجب أن تصبح مثقفاً.

-كيف؟

-اشتر كتب يا أخي!

نظر المدير حوله بارتباك، وتذمر من تأخر القهوة، قال لعامر:

-يا أخي الشاي أحسن.

-هنا، لابد أن تتعود على القهوة.

غمز ممازحاً مشيراً إلى الكتب.

-كيف جرت الأمور أمس مع أبو فادي.

-جيدة.

-جيدة؟

سأل باستغراب ظاهر، وأخذ يقلّب الكتب بين يديه.

صار المدير الجديد لا يطيق وجوده معه، ونائباً له. وهو الذي حلّ مكانه، دون أن تكون لديه أية خبرة بالعمل الموكل إليه بدعم حزبي، ورشىً مستورةً، وليست لديه دراية بالوسط الثقافي والمثقفين، الذين ما انفكوا يترددون على مكتب عامر، ويرمون بالتعليقات والنكات الساخرة على المدير الجديد.. حقاً كان يتمنى من كل قلبه لو أن طوفاناً ما، من أي نوع يجتاح المكان، ويزيح عامر من حوله نهائياً.

-غداً عطلة، تذهب معنا للصيد؟

-أرانب؟

-أرانب وقطا..

وقبل أن تصيده كماشة المخابرات، فرّ ناجياً بجلده، لا يلوي على شيء.. وغادر البلاد بإجازة رسمية، رحّب بها المدير، وأنجزها..على عجل.

شريط طويل من الذكريات المرّة، والخيبات والانكسارات، مليء بالملاحقة، والاعتقال، والسجن، والتمرد، والوقوف على تزوير الانتخابات، وبيع وشراء المناصب والذمم، ورحلات الصيد، والخمرة، والترفيه، والنساء.. ولم يختلف المشهد في ليبيا، عما رماه خلفه في الوطن.

-الألم ذاته، والمصيبة تكبر.. والضياع واحد!
قال في نفسه، وهو يُدفع نحو الدرجتين الوحيدتين لغرفة التحقيق، مرة رابعة في الصباح الباكر جداً.. جداً!.

11

أمامه كأس الحليب، وعلى وجهها تطفو ذرات الغبار والشعر، مدّ يده ليشرب، رأى شيئاً يتحرك، ثمة نمل أيضاً.. تقززت نفسه. كيف يمكن له أن يتناول الحليب على هذه الدرجة من الأوساخ! كان الجميع داخل الغرفة يلوذون بالصمت، يدخنون، يشربون قهوة وشاي، وينظرون إليه. أعاد الكأس إلى مكانها، أشار الحاج إليه بأن يشرب.

- لا أشرب الحليب.

قطب جبينه، وعيناه تقدحان شرراً.

-اشربه.. صباح يا فتاّح.

-لكنه وسخ.

-هات له كأساً أخرى.

جاءت الكأس الجديدة، وفيها صراصير تسبح، وعامر لا يصدق ما يجري أمامه، خاصة بعد ليلة مضنية انتهت باذعانه لمطالبهم. تملكته الحيرة، فيما يمكنه أن يفعل، إن كان قادراً على الخروج من هذا المأزق، طال تحديقه في الكأس، وأخذ يرتجف، ومعه ترقى حدّة التوتر النفسي، وحرارته ترتفع وجبينه ينزّ عرقاً.

اقترب منه الحاج، رفع الكأس، وقرّبها من فمه، وبصورة لا إرادية، ارتد رأسه إلى الخلف مشمئزاً، فأمسك برأسه ولصق حافة الكأس على شفتيه وأمره بأن يفتح فمه ويشرب، لم يعد أمامه مهرب، انصاع للأمر وأخذ يرتشف الحليب بكمية قليلة، ببطء لا يسمح بانزلاق الصراصير إلى جوفه، انغمس شاربيه بالسائل الأبيض، وسال على ذقنه وثيابه، وقبل أن يكمل الكأس أصابه الغثيان، وراح يقذف ما شربه على يديه العاريتين، وثيابه، مع سعال شديد، وسط صيحات مستنكرة لما فعله بنفسه.

-خذوه ليغسل وجهه، ويمسح ثيابه..

عصبوا عينيه واصطحبوه، أدرك أنه لا يتجه نحو الحمام، خلف غرفة التحقيق، ثم أوقفوه على أرض صلبه. ولم يلبث أن لحق بهم صوت الحاج، من بعيد:

-ساعدوه..

نزعوا ثيابه عن جسده، وفي لمح من البصر صار عارياً تماماً، ثم رموا له بفوطة أطفال عند قدميه، وطلبوا منه أن يلتقطها ويلفها حول عورته، كانت كبيرة الحجم نسبياً، من الأنواع التي تصرف لخدمة كبار السن، ومدمني المخدرات الذين لا أمل

في شفائهم.. ارتاح لستر عورته، وتنفس الصعداء، ثم جاءه الصوت آمراً، ممطوطاً، منغماً:
-منبطحاً..
انبطح على بطنه، الأرض باردة، وجسده عار يرتجف، وأخذت المياه تنسكب عليه، بضغط شديد، من خرطوم كبير، أو مدفع مياه، وضع يديه حول رأسه ليخفف من ضغط الماء، ويدرء عن وجهه وأذنيه الخطر، ثم أمروه أن ينهض، ويبدأ بالدوران حول نفسه، ويطلبون منه كل دقائق، أن يوسع الدائرة، شيئاً فشيئاً.. حتى صارت الدورة كبيرة، ظل يدور حتى نال منه التعب، حاول أن يصمد، أن يتغلب على الدوخة التي بدأ يشعر بها، وهم يصرخون، ويلحقون به عن جانبيه وخلفه، وأصوات الخيزران تضرب في الهواء، وهو لايرى شيئاً أمامه، توقف، وسقط على الأرض.
لم يفقد وعيه تماماً، لكنه الآن غير قادر على الحركة أو النهوض.
يدٌ هزّته من كتفه مع النداء، لم يجب، واكتفى بالأنين المتقطع، والتنفس بصعوبة.
- هاتوا ماءً.. صبوا على رأسه، على رأسه فقط.
حملوه إلى مكان جاف من الأرض الصلبة، مددوه، وتركوه هناك تحت الشمس، يأخذ قسطاً من الراحة والدفء، حتى يستعيد قدرته على الحركة، بقي في مكانه حتى انتصف النهار دون أن يقترب منه، أو يتحدث إليه أحد، كل ما فعله أن اعتدل في جلسته، وجد إلى جانبه جداراً فاتكأ عليه، رأسه مائل إلى صدره، وتحت عجيزته فوطة قطنية مشبعة بالماء.. بعد قليل، وضعت بجانبه آنية الطعام، وجاءه صوت خافت:
-كل، يا أخي.. كل..
صوت هادىء، دافيء، وحزين، هكذا وصله الصوت، آثار دهشته واستغرابه، والنبرة المنكسرة، أحسّ بها تتغلغل بين أضلاعه، وهو يخاطبه "يا أخي"، ولوقت طويل بعد ذلك، ظل يذكر الصوت الحنون، دون أن يرى وجه صاحبه، أو يعرفه. مدّ يده وأخذ يأكل الرز المخلوط بطبيخة البطاطا، يأكل بأصابعه، ولا يرى طعامه، كان جائعاً، ومتعباً. تسارعت حركة ساعده ما بين الوعاء وفمه، لم يكن يبحث عن متعة ولذة الطعام، أراد أن يملأ بطنه، فقط لعله يعوّض شيئاً من الكثير الذي صار يخسره، وخلال يوم واحد أصبح مهشم النفس، واهن الجسد، أرهقته معاملتهم المتذبذبة بين الأذى واللطف.. إلى حدّ لا يصدق!
مسح أصابعه بفمه، امتصها واحداً، واحداً، ثم مرر كفه على الأرض الإسمنتية، فرك يديه، ثم أبعد وعاء الطعام عنه قليلاً. الآن، وقد شبع إلى حدّ التخمة، شعر بالحاجة إلى التمدد، تمنى لو أنه ينام قليلاً، كالمعتاد في أيامه السابقة، لكن ذلك أصبح مجرد حلم، ووهم يؤرقه ويزيد من عذاباته.. لماذا يتمنى النوم والراحة؟ أين يحسب نفسه،

في منتجع، في مصيف مثلاً، أو إجازة؟ بدأ النعاس يداعب جفنيه تحت العصابة، ارتخى جسده، ومال رأسه على كتفه، حاول ان يطرد النوم، لم يستطع، ثم استسلم له لحظات، قبل أن تدقّ المثانة جرس الإنذار، إثر هذه الحفلة الشاقة من التبلل بالماء، والحركة والطعام، خطر له أن يتبول مكانه، في الفوطة، لم يكن لديه مانع، شجع نفسه، لكنه خائف جداً من العاقبة.

-حالك جيدة الآن؟

كان صوته قاسياً، حاد النبرات، أجشّ لم يألفه من قبل، عاد يسأله:

-تريد شيئاً؟

-لا..

قال عامر، ثم استدرك بارتباك: الحمام.. فقط.

-تعال.. خذه للحمام.

امتدت يدٌ إليه، أنهضته من مكانه، وقادته عارياً كما هو، حافياً وباطن قدمه تؤلمه كلما مرّ فوق حصيات صغيرات، أو أوساخ مختلفة، ثم وصل إلى أرض ترابية وهناك أوقفه، ترك يده وأمره أن يتحرك قليلاً، اتجه أماماً وجسده يصطدم بأغصان الأشجار، وفجاة أحس برطوبة تحت قدميه، فوقف في مكانه.

-زد قليلاً.

تقدم متردداً خطوتين، وهو يشمّ رائحة نتنة، ثم انزلقت رجله اليمنى في أرض طينية لزجة جداً، وعندما حاول انتشالها أحسّ بيد تدفعه من كتفه أماماً، وتمنعه من العودة إلى الوراء، ولم تلبث القدم الثانية أن انزلقت وأخذتا تغوصان تدريجياً، وهو يتقدم ببطئ شديد، وحذر، ولم يكن بحاجة هذه المرة ليدرك أنه وقع في حفرة القاذورات، ثم أمره أن ينحرف يساراً ويمشي قليلاً، بضع خطوات كانت كافية ليغوص حتى سرته في ماء المجاري، قال ساخراً:

-توقف.. تبول، خذ راحتك، وعلى مهلك!

لم ينتظر أوامره، فقد فعلها، ما إن بدأ يغوص في البركة الآسنة، فعلها وليته أغلق فمه، وربط لسانه فلم يطلب ذلك. لعن نفسه وهو يبتلع ريقه، ويخنق عبرته، لكنه لم يستطع منع دمعة القهر أن تنحدر على خده. ظل واقفاً في مكانه، لا يبدي حركة أو صوتاً، واضعاً يده على أنفه وفمه من حين لآخر، وبانتظار الأمر الجديد، أقنع نفسه بالصبر والإحتمال، لاعناً في سره، أخت الساعة التي جاء فيها إلى هذا البلد. وأخت من جاء به إلى هذا المكان.

غرق في أفكاره، حدّث نفسه "يميناً وشمالاً"، وقد بدا له الأمر أشبه بنزهة داخل شبكة من المجاري، حتى جاءته دفعة على ظهره، أوقعته. أخذ يتخبط ،فانغمس جسده بالكامل حتى كتفيه، حاول أن يتمسك بشيء، أي شيء يمكن أن ينقذه، لم تقبض

أصابعه سوى على الطين اللزج، لكنه نجح في أن يُبقي رقبته ورأسه خارج القاذورات، وفي حمّى صراع الجسد مع الجاذبية التي تشده أسفل، سقطت الفوطة، ومضت في حال سبيلها، فتحرر من كل شيء.
دقيقتان أو ثلاث كأنهما دهر. وإطلاقاً، لم يمرّ بتجربة مماثلة طوال سنّي عمره التي فاقت الأربعين، لا يذكر أنه تعرض لمثل هذا، ورغم سنوات المطر والطين والفيضانات، والكوليرا.. لم يسبق أن سبح في مجرى لمياه آسنة قذرة كهذه، مرّة واحدة قبل عشرين عاماً، أثناء التدريب العسكري، وقفت سريته أمام مجرى المياه.. خيّرهم القائد بالقفز فوقه، أو الخوض فيه، أما هذا.. حتى في الأفلام الأميريكية لم يشاهد سوى مجاري مياه نظيفة واسعة، يمكن للمرء أن يرتكب داخلها جريمة قتل بعد مطاردة طويلة، ثم يخرج مباشرة إلى الشارع، ويتجه إلى أقرب بار!
أخيراً.. طلب منه الرجل أن يخلّص نفسه ويخرج. كان ذلك صعباً جداً عليه وهو يتحسس الأرض بكفيه بحثاً عن أي شيء يتكيء عليه.. قذف بنفسه خارج البركة الآسنة، وأخذ يمسح جسده من الأعلى حتى الأسفل، وهو يعاود غمس كفيه بالتراب.
- انهض.. الحمام على يمينك مباشرة، عندك دقيقتين فقط.
تلّمس طريقه مثل أعمى، دخل الحمام، فانهمرت فوق رأسه وجسده ماء قوية، سارع ينظف جسده، يفرك رأسه ووجهه، وكتفه وساعديه، ثم بطنه وفخذيه، إليته وخصيتيه. لم يترك مكاناً إلّا ودلّكه جيداً بأصابعه.. لم يعبأ بمرور الوقت، ظل تحت الماء البارد، حتى أمره الصوت بالخروج، وصوت آخر يقول له:
-جفف نفسك.
اقترب منه، نزع العصابة عن عينيه، ووضع بين يديه فوطة، وقاده خلف الحمام وأعطاه ثيابه.
-إلبس بسرعة.
عاد به إلى الغرفة، تشنجت أعصابه، وغاب لديه أي إحساس بالأمان، خاصة بعدما حدث له اليوم، ومنذ الصباح الباكر. يعتقد أن لا مبرر لما يفعلونه به، بعد أن أخذوا ما يريدون: توقيعه، وقّع وفقاً لمشيئتهم، لم يسبب لهم متاعب، لم يرهقهم. لم يكن هناك إلا تفسيراً واحداً هو أنهم لم ينتهوا منه، يعني إنهم يريدون شيئاً آخر منه، وإذا صحّ توقعه، فعليه انتظار الأسوء في المعاملة، وفي الاستجواب. وربما جولات أخرى جديدة، من التعذيب الجسدي. حين فكر بأمر التعذيب، ضحك في سره ساخراً، فالتعذيب النفسي الذي يمارسونه ضده منذ أمس، لم يتوقف، ولو دقيقة واحدة، تعذيب نفسي بأنواعٍ، وأصنافٍ شتى من التهديد ضدّ عائلته، إلى حالات التعذيب الجسدي التي يمارسونها ضد معتقلين آخرين، لا يراهم، ولا يعرفهم، يسمع أصواتهم، صراخهم وأنينهم طوال الوقت. إنهم يمارسون وحشية ممنهجة منظمة، تناسب

أذواقهم، وترضي عنجهيتهم، وتشبع عطشهم لتعذيب الناس، وإهانتهم، وإذلالهم. وحشية لا حدود لها.. يصرّون عليها، ويتمسكون بها. وكلما ازداد سلوكهم انحرافاً نحو وحشية أكثر، حصلوا على مكافآت أكبر، وامتيازات أكثر، وشجاعة أشدّ لمخالفة القوانين بصورة أوسع، تحت ظلال القانون!

نظر الحاج إليه، وابتسامة ماكرة تعلو شفتيه، سحب نفساً عميقاً من سيجارته، وسأله:

-كيف رأيت بغداد؟

فاجأه السؤال. أية مصيدة جديدة يقوده إليها!

-عظيمة.. أول مرة أزورها.

-أعرف. أول مرّة، وخربت الدنيا فيها. ستحكي لي بمن التقيت وماذا تحدثت، من ساعة وصولك، إلى خروجك.

-ولكن، أية أهمية لموضوع بغداد؟

-لا تتغابى عليّ.. أعيدها لك ألف مرة، نحن نعرف كل شيء. سأختصر عليك الطريق؛ لقد بعثنا شخصاً من طرفنا معك.

بدت الدهشة على وجهه، لكنه لم يفتح فمه بكلمة، وكي تأخذ الدهشة فعلها فيه أضاف الحاج:

-خذ مثلاً، زيارتكم لضريح أحد الأئمة، اختليت بنفسك وتمنيتَ شيئاً، أليس كذلك!

تمنيتَ خلوة لفترة من الوقت.

المثال الذي قدّمه الحاج، دقيق جداً، وما قاله عن إرسال شخص معي، يبدو دقيقاً أيضاً، قال في نفسه، كانا اثنان فقط، هو وزميله، لا أحد غيره! نقل كل شيء حتى الأمنية التي تمناها لنفسه عندما زار ضريح ومسجد الإمام معروف الكرخي شمال بغداد. لم يطلب زيارة أي مَعْلَم، أو مرفق. هكذا ارتأى المرافق والسائق، قاداه وزميله عبر شوارع بغداد من فندق الميليا منصور المقابل لوزارة الإعلام، عبر شارع حيفا شمالاً. قطعا نهر دجلة باتجاه شارع فلسطين، فالأعظمية وصولاً إلى الضريح المتربع على تلّةٍ في مقبرة، كان المبنى ذي ثلاث طبقات، العليا مسجد حديث، والوسطى تتساوى مع أرض المقبرة، وتضم ضريح الإمام معروف الكرخي، أما الطبقة الثالثة، الأهم: تعود إلى أكثر من ألف ومئتي عام! نزل الدرج نحو قاعة صغيرة وفي جداريها الشمالي والغربي تجاويف على شكل نوافذ تعلوها أقواس، وفي الزاوية الجنوبية الشرقية، ثمة بئر صغيرة، لا يزال فيها الماء والقادوس.

- هنا -قال المشرف على الضريح- كان الإمام الشافعي يعطي دروساً لمن أصبحوا أئمة من بعده، وهنا تتلمذ على يديه الكرخي صاحب الضريح.. الذي كان يختلي بنفسه هنا لتلّقي العلم، وللتفكير، والتأمل، شهوراً عدّة يأكل الخبز، ويشرب الماء من هذا البئر، وأشار بيده إلى إحدى النوافذ في الجدار.

تقدم ، تلمس الحجارة، تشمّم رائحة التراب في المكان، سمح لنفسه بالدخول إلى التجويف والجلوس فيه دقائق.. تمنى خلالها أن تكون له خلوة كهذه للتأمل والتفكير، فيعيد صلته بالحياة.. احترم زميله والآخرون، صمته وتأملاته، اتجه نحو البئر، واستئذن ليشرب منه.. ثم غادر المكان، وقد امتلأت روحه صفاءً، ونقت سريرته، واشتعل الشوق داخله نحو خلاص الروح، من شوائب الحياة، ورذائلها.. شعر بشيء ما يعتمل فيه، يجذبه لاستعادة لمحاتٍ من التصوف. تذكر الحلاج، محي الدين بن عربي، أويس القرني، ومزارات الأولياء الصالحين.. والمقامات المكتظة بالنساء المعطرات الملتحفات بالسواد.

رمى نظرة طويلة ممتدة فوق سماء المقبرة، والضريح.. وعادت السيارة تعبر به نهر دجلة إلى وسط بغداد.

كان صاحبه فلاح الغراب جاهلاً ومتخلفاً وانتهازياً، وبخيلاً، ومخبراً للأمن. كفاءته الوحيدة، هي قرابته لعضو كبير في قيادة الدولة. كل عائلته وأقاربه من الشباب لا عمل لهم سوى أجهزة الأمن، حتى ابنه! ما أن دخل الجامعة حتى سارع بتنسيبه مخبراً في جهاز الأمن الخارجي، ولأنه لا يعرف كيف يفك الحروف طلب من عامر أن يخط له كتاب التنسيب! فاضحاً بذلك نفسه، وولده.

في بغداد، كانت حركتة نشطة في المؤتمر الذي يحضره كتاب ومثقفون، سياسيون وإعلاميون عرب، أما فلاح الغراب، فقد كان عاجزاً حتى عن متابعة أعمال المؤتمر إلى النهاية، همّه الوحيد النوم، والطعام، والشاي والتسكع في ردهات الفنادق..

ومراقبة عامر الذي لم يستطع ترويضه!

إذن، فقد وشى به صاحبه!

.

12

وقف قبالته، يكاد يسدّ الهواء عنه:
-هناك بعض المسائل، تحتاج إلى توضيح منك.
صمت قليلاً، وراح يتحرك في الغرفة الصغيرة، جيئة وذهاباً، والسيجارة لا تنقطع عن شفتيه، لاحظ عامر شراهته للتدخين، وقد يخفي وراءه توتراً داخلياً، لم يلبث أن بدأ يظهر على وجهه، وفي نبرة صوته، فيما يفقد هدوءه تدريجياً. جلس على حافة الطاولة، أضاف وهو ينظر عبر النافذة:
-في الحقيقة، هناك الكثير من الأسئلة.. جوابها عندك. وأنا سأختار بعضاً منها فقط.. انا سأساعدك، وأنت ساعدني أيضاً.
أخذ يسهب في حديثه، كأنه يلقي محاضرة، تارة يقرعه وتارة يحذره، ويذكّره بأنه حتى الآن لم ير شيئاً، وأنه يمنع الآخرين عن الإنفراد به، ولولاه لما كانت معاملته بهذه الصورة الحسنة، والاحترام والتقدير الذي يحظى به، على رغم أنه كان مزعجاً، وثرثاراً طوال السنوات الماضية. وما يحدث له اليوم، هو الذي جلبه على نفسه، لو أنه اشتغل بالتجارة، أو أي عمل آخر، لكان أفضل عليه من الصحافة والسياسة، وذكّره بأن أبناء بلده، كلهم يشتغلون بالتجارة ويحصدون أموالاً لا تأكلها النيران.
توقف الحاج عن الكلام قليلاً، طلب الشاي، وسأل :
- لو أنك تجاوبت معنا، من زمان، لما كنت في هذا الموقف. أليس كذلك؟
لم يجب ، اكتفى بالإنصات للكلام الذي يوجع القلب، ويحمل بين حروفه رغبة الإذلال والإهانة، لقد رفض كل الإغراءات والإمتيازات، كي يعمل معهم، قدمت له العروض المختلفة: الشقة، والسيارة، والمكافأة المادية، عبر أشخاص متعددين، كانوا يشكرون ويحمدون كتاباته ومواقفه، وكان يعتذر بلطف، متهرباً من ملاقاتهم.
ومن يومها وضعت كل العراقيل التي تخطر على بال، أمام طريقه في المسكن والعمل والمرَّتب والإقامة..وكان يتجاوزها بدأب وصبر لم ينفذ يوماً. لم تلبث أن سرت شائعات في محيطه، بأنه مثير للريبة بسبب نشاطه وحركته، وطريقة حياته الميسورة، كان بعض الأصدقاء يستغربون ذلك، يريدون أن يكون مثلهم يخزن المال، يرتدي ثياباً رثة، وأن يشكو على الدوام من القلّة!

ذات يوم، بعد غداء في غابة النصر، فاتحه أحمد رايش بالموضوع، ونصحه بمغادرة البلاد، عاجلاً، قبل أن يزجّ به في السجن.. وإلى أن تظهر براءته، يكون قد أكل الخازوق:
-بسبب مقال واحد، سُجنت وعذّبت طوال تسعة أشهر!
في المساء، وقف أمام مديره، ودخل في الموضوع مباشرة:
-أعرف من يثير هذه الشائعات، وإذا لم تضع حداً لذلك، سأغادر.. لن أغامر بالبقاء.
-اطمئن، نحن نعرف أنها شائعة، لا تهتم. إنس الأمر، واعتن بعملك.
مضى على ذلك الموقف، اثنتي عشرة سنه، لم يقترب منه أحد، ولم تتوقف مراقبته يوماً واحداً. انتشله الحاج من الصمت، والذكريات التي غرق فيها:
-إحمد ربّك، واشكرنا، على أننا لم ندسّ لك المخدرات في الحقيبة.. لكنت الآن تحت رحمة المكافحة..وأنت تعرفهم، لا يخافون ربهم!
تخيل نفسه متهماً بقضية مخدرات..ياللفضيحة! وأن تُدسّ المخدرات في حقيبته يعني جلب المخدرات، وعقوبتها الاعدام..يا للهول! حدّث نفسه، بعد أن وجدها مدينةٌ لهؤلاء النفر الذين لا يتورعون عن فعل أي شيء، لو أنه استطاع أن ينظر في عيونهم جيداً لاكتشف تعاطيهم للحشيش، أو الحبوب، أو حتى الهيروين! كل شيء متاح لهم. وحين يسود الفساد، لا تصبح للقيم الأخلاقية والقانونية أية قيمة.. حاميها حراميها!
- ذات صباح خرجت من دار النشر والفنون المقابلة للسفارة الفرنسية، ركبت السيارة وانطلقت جنوباً، ثم وقفت فجأة، وعدت أدراجك.. لماذا.. هل رأيتنا؟
-رأيتكم؟ أبداً، لم انتبه لوجودكم.
-الشوارع خالية!
- رأيت امرأة في البعيد..تعبر، فغيرت طريقي.
-وتوقفت عند البرج فجأة.. امرأة أخرى؟
ذلك الصباح المبكر، الأول من شباط، كان الطقس دافئاً، والشمس تتلألأ على قطرات الندى فوق أوراق الشجر، مثل خيوط من ذهب، انطلق عبر الطريق البحري نحو دار النشر، يتابع أعماله، كان صاحب الدار مربكاً، بدا على وجهه التردد في البوح، وثمة خوف في عينيه:
-لقد جاء بالأمس جماعة الأمن سألوا عنك، وعن أعمالك!
ران صمت في المكان، وكل واحد منهما كان ينظر في اتجاه مغاير، ثم قال له صاحبه: لا يهم.. سننجز العمل، كما اتفقنا، وبدون إذن!
خرج عامر مهموماً من ملاحقة المخابرات، ودون إرادة منه، اتجه نحو الطريق الجنوبي، ثم توقف وعاد ليأخذ طريقه باتجاه البحر الأكثر هدوءاً، وجمالاً في

الصباح، كانت الشوارع وسط المدينة شبه مكتظة، وسرعته تزيد عن المتوسطة قليلاً، عندما وصل البرج توقف فجأة إلى يمين الطريق، دخل إلى المكتبة، تصفح كتباً وجرائد، ووجوه نساء تبوح بالعطر وبالرغبات! المكان يعجّ بالأسواق الحديثة، والبضائع المستوردة، أحذية إيطالية، وملابس فرنسية، وواجهات تثير الفضول، ومن السهل هناك، أن تتبادل الابتسامة مع أي امرأة، ثم تدعوها إلى فنجان قهوة في هذا الحيّ العمودي المكتظ ، والمطل على البحر مباشرة، والخالي تماماً من التلوث البيئي!

ــ صباح الخير.

نظر إلى صاحبة الصوت الناعم، الهاديء والرقيق.. مد يده مصافحاً. كانت دافئة، والعطر يغمر المكان. فتاة جميلة رشيقة القوام ،شعر قصير حتى الكتفين، وصدرها الناهد يكاد يرتطم به. جذبته عيناها، فأسبل رمشيه على صوتها مرة أخرى.

ـ ممكن الجريدة.. لحظة !

ـ تفضلي .

تظاهرت الفتاة بتقليب الجريدة، وهي تتمتم وترفع بصرها نحوه، وتزداداقتراباً منه.. ثم سألته:

ـ عندك فيها قصيدة؟

ـ لا.

أجاب بدهشة على سؤالها.. لم تترك له مجالاً للتفكير، عاجلته بالكلام، بصوتها المثير، وعينيه تتابعان فمها الصغير:

ـ أنا جميلة.. التقينا منذ سنوات، في أمسية شعرية في الجامعة.

ـ أتذكّر الأمسية.

ـ وأنا لم أنسك..ولم أنس أشعارك.

ـ لنشرب القهوة، إذا كان لديكِ وقت.

كان يرشف قهوته من عينيها، وهو يتملّى وجهها الجميل، وخديها المشربين بالحمرة . الجمال الهاديء يتناغم مع صوتها، وحركة يديها الصغيرتين الناعمتين، وشفتيها الرقيقتين:

ـ جميلة.. اسم على مسمى، أنصفوك حين سموك..

ـ تجاملني.

-أبداً.

ـ إذن مطلع قصيدة هذه !

ـ ربما.. من يدري .

مساء اليوم التالي التقيا، الفستان الذي ترتديه أبرز جمالها وفتنتها. ومع تبادل الأنخاب أخرجت من حقيبتها دفتراً صغيراً، وراحت تقرأ له من شعره، الذي سجلته بقلم الرصاص منذ أمسية الجامعة :

- ما توقعت مثل هذا!

- ولا أن التقيك بعد كل هذه السنين.

نقلت نظراتها بين وجهه ودفترها، وأكملت:

"صلاة العشق ركعتان.

لا يصحّ وضوءهما.

إلا بالقبل.." .

أسبلت رمشيها على الكلمات، سكتت،أحسّ أن شفتيها المبللتين بالخمر، تتوقان لشرح القصيدة، وأن جسدها يميل إليه من فوق الطاولة، ودفء عطرها يشده إليها، وضع يده على كفها، وضغط بحنو ولطف وشوق على أصابعها.

- أصل النصّ، للحلاّج، أعجبني فأدخلت تعديلاً شهوانياً عليه. قال لها، ثم مدّ يده إلى جيب سترته، وقدّم لها كتاباً.

- إليك مجموعتي الشعرية الثانية.. أهدي كل ما فيها لك..

التقطته بلهفة، مسحت غلاف الكتاب بعينيها، امتلأت بالسرور والفرح مثل طفلة تقدم إليها الحلوى والهدايا: سأكتب عنه..

رفعا كأسيهما، وشربا حتى الثمالة، غادر المكان، وهو يضمها إلى جانبه، ذراعه فوق كتفها، وساعدها تلف خصره، كان الجو بارداً، والمطر ينهمر خفيفاً وناعماً، صعدا الدرج نحو المدينة القديمة، المطلّة على البحر، وأمام الصخرة الكبيرة تنكسر الأمواج العاتية، وتنثر الماء عالياً.. ومع نشوة الكأس، وانهمار المطر، وصوت الموج، تصاعد صوت جميلة ترنم أغنية لفيروز:

"سهار.. بعد سهار..

سهار تايكمل المشوار

عنا غني.. حبّ وأشعار

عنّا ورد بالدار..

سهار.. بعد سهار".

اشتعلت مشاعره حنيناً لصوت فيروز، وهنا، لسوف يفتقده، لن تكون أغنياتها رفيقته الأثيرة، مثلما هي على مر السنين الطوال..في الحلّ والترحال. سينكفيء لوحده، بصمته، على آلامه.. وسوف يغنيها بصوته الأجش المبحوح. لم يعد يهمه اللحن..

الكلمة هي التي ستداوي جراحة المرّة. الحنين الممزوج بالأسى بأضلاعه، ودمعته تكاد تنفر من عينيه، وهو يجبر نفسه على التمالك.
-سهرتنا طالت الليلة..
قطع الحاج عليه استغراقه في ذكرياتٍ، وتأملاتٍ، كان يستقوي بها على أحواله. لم يكن ينتظر منه جواباً، أضاف:
-قليلاً من الوقت، وننتهي..هجمات 11 سبتمبر ما رأيك فيها؟ أنت تعرف موقف القائد، قبل الأحداث وبعدها، نريد تفسيراً محدداً لرأيك في موقفه.. تذكّر ما كنت تردده.
-لم يكن يعني ما قاله، لذلك استدرك وأوضح موقفه في الخطاب الثاني.
-تقصد.. إذن، أنه لا يعي كل ما يقوله، أم لا قيمة لما يقول؟
-أبداً.. لم أقل هذا!
-بل تقصد أكثر..
-الأمر بسيط: لو كان يعني ما قاله فهي مصيبة!
-وضّح أقوالك.
-لقد قال أن أمريكا ستنهار من الداخل قريباً، وبعد عشرة أيام فقط وقعت هجمات سبتمبر. إن كان يعني تماماً كل كلمة قالها، فهو شريك إذن، إنما أوضح -فيما بعد- موقفه بالقول إن ذلك عمل إرهابي، وكارثة إنسانية.. ما أعنيه أن موقفه واضح..
-أنت تراوغ، وتفسّر الأمور على هواك..هذا ما يهدّد أمننا الوطني للخطر.
-تمهل.. إلى أين تمضي بي؟
اغتاظ، وأطلق في وجهه عبارته، بصوتٍ نزق ونبرة ملؤها والحقد: إلى جهنم الحمرا.
انتابته رعشة وهلع، وتصاعدت ضربات قلبه خوفاً من أن يرسله هذا الموتور إلى التعذيب مّرة أخرى، في هذه الساعة المتأخرة من الليل، أطرق برأسه، نظر خلفه إلى قدمي الحاج، بانتظار حركة ما، ضربة، أوصفعة، أو أي شيء آخر. وطوال ثواني الصمت المملة المربكة، والمضجرة المليئة بالخوف، كان ينقر بأصابعه على الطاولة، قبل أن يعاود أسئلته، وأنها ليست المّرة الأولى، التي يسفّه فيها حديث القائد..
صمت قليلاً، وأضاف بنبرة أكثر هدوءاً: قبل أن تنكر، سأقدّم لك الأدلة..وسوف نرى.
سحب من ملفاته مقالاً له، كان هناك خطاً أحمر فسفورياً على عبارة يقول فيها "إن أكثر الناس انتهاكاً لحقوق الإنسان.. هم أكثر المتحدثين باسمها، المتشدقين بها على الدوام".

تلك كانت حقيقة "قائد الثورة" الذي لايجرؤ أحدٌ في عهده على الكلام، فيما سجونه تمتلئ بالمناضلين، وتمارس فيها أبشع أساليب التعذيب والإذلال، من الإهانة إلى الاغتصاب، ولا تقف حدودها عند المجازر.. ومجزرة 1996التي جرت في سجن أبي سليم العسكري،لاتزال حيّة في الذاكرة!

-خذ.. هذا الدليل الثاني.

مدّ يده، أخذ نسخة من دراسته حول قوة التدخل الأوروبي، التي عارضها "عاشور" في خطاباته.. أرغى وأزبد على خطأ. فنّد عامر الحقائق، في الاتجاه الآخر تماماً، وبعد أسبوعين غيّر الزعيم رأيه. يتذكر عامر آنذاك،عندما زاره شخصان في المكتب، قالا أنهما من وزارة الخارجية، شكراه على جرأته في الكتابة، وعلى موضوعيته في تناول المسألة. وها هو الآن يجد نفسه في مأزق لا يعرف كيف يخرج منه.

-ماذا تقول الأن؟

-لا أقول شيئاً.. لكن..

قاطعه مشيراً بيده أن يغلق فمه: كل شيء واضح، ولا يحتاج إلى تفسير منك.

-بلى، عندي تفسير.

-ما هي أقوالك ؟

-في موضوع حقوق الإنسان، كنت أقصد الغرب.. الولايات المتحدة، وأوروبا مثلاً..وقد جاء من يشكرني على رأيي حول قوة التدخل الأوربية.

-يشكرونك؟ نحن أرسلناهم، ليتعرفوا على دوافعك، وعلى مصادر معلوماتك.. أم تحسب نفسك في غابة؟ كان عليك أن تدفع ثمناً لتهورك، منذ زمن طويل..صبرنا عليك أكثر مما تستحق..يا وسخ!

ثم وجه كلامه لمساعده، وسأله عما إذا كان قد سجل كافة أقواله. طلب إليه فتح صفحة جديدة، وأن يكتب: وقد سألناه عن ضابط الأمن في سفارة بلاده، فأجاب بالقول..

وأشار إليه أن يتكلم.

-لا أعرف عنه شيئاً.

-ألست أنت.

-على الإطلاق.. لا علاقة لي بمثل هذه المسائل.

-من تتوقع أن يكون ضابط الأمن ؟

-لا أستطيع أن أعطي إسماً!

-..والشيفرة.. مع القنصل، السفير، أم من؟

-لا أعرف.

-لا تعرف، لا تعرف.. كلامك غير مقبول أبداً..أنت لم تجب بالرواق، سنرغمك على ذلك غصباً عنك.
-لكني لا أعرف حقاً.. ليست لي أي علاقة بالسفارة.
قال الحاج ساخراً متهكماً:
-صدّقتك..كلّهم أصحابك..أعطوه ورقة وقلم. اكتب لي أسماء العاملين في السفارة وكذلك الصحفيين الأجانب في بلادنا اكتب لي اسماء الجميع.
خاطبه الحاج بلهجة تنبيه وتحذير، وهو يشير إليه بسبابته، وأضاف:
-طبعاً تعرفهم، وعندك تجربة سابقة، حاولت إنشاء جمعية للصحافيين الأجانب..
-نعم.. منذ سنوات، كانت محاولة، لا أكثر!
-أوقفناها في الوقت المناسب. لاشيء يمّر دون إذن، وتنسيق مسبق معنا.. نحن بالذات.
انكب على الأوراق أمامه، تأكله الحيرة، والغضب الدفين. يسأل نفسه عما يتوجب فعله، أمام المصيبة هذه.. هاهو يرغم على وضع قوائم بأسماء، لا يعرف ما الذي سيحدث لهم، وما تراها المخابرات فاعلة بها؟ وما الذي يضمن له أنها لن تسلم لمخابرات بلاده هذه القائمة، فتصبح دليلاً جديداً، إضافياً ضده..أو تفضحه بين أوساط الصحفيين.. فلا يبقى أمامه سوى الإنصياع، ومن خلفه الزنازين..وأصوات المعذبين، وأنين المتعبين القابعين في ظلمة رطبة، بلا أمل.

13

ايقظته جلبة الأقفال، والأبواب التي تفتح ثم تغلق، واحداً إثر آخر. لم يكن هناك أي صوت، أو أحاديث حتى بين المعتقلين أنفسهم. هدوء رغم حركة فتح الزنازين. دفع الحارس الباب، فرفع رأسه متوجساً:
-انهض.. فطورك.
وضع على الأرض بيضة، وقطعة من الخبز. جال بعينيه جدران الزنزانة، والنافذة، ثم خرج وأقفل الباب دون أن يزيد حرفاً واحداً. رفع الغطاء، وعدّل جسده المتكسر المتعب من طريقة النوم ،على فراش إسفنجي قصير وضيق، بلا وسادة. طوى البطانية والفراش، توجه نحو قنينة الماء وصبّ منها قطرات تكفي كي يمسح بها وجهه، دون أن يهدر منها شيئاً. ومع جرعات صغيرة من الماء، ابتلع البيضة، ونصف قطعة من الخبز.
نظر عبر شق النافذة إلى الخلاء، كان ضوء النهار ساطعاً، ومن حين لآخر يسمع صوت سيارة قادمة أو خارجة، من أقصى اليسار حيث المرآب، آخر نقطة يستطيع أن يشاهدها عبر الشق الأفقي الضيق تحت النافذة، ولم يلبث أن بدأت حركة الأشخاص تصل أذنية من داخل الممر الفاصل بين صفين من الزنازين، كانت أصوات خطى، أو خرير الماء في المطبخ، أو دورة المياه، تعجّب لنومه حتى هذا الوقت من النهار، بل أنه تساءل في سرّه عن السبب الذي جعلهم يتركونه نائماً، أو جالساً في زنزانته. لم يعرف بعد كيف تسير الأمور هنا، ومواعيد النوم، والخروج، أو الطعام.. كل شيء جديد. وعليه أن ينتظر الكثير من المفاجآت.
جلس فوق الفراش، وظهره إلى الحائط، يفكر في شيء واحد: ما هي خطوتهم التالية؟! كان خائفاً جداً من تكرار التعذيب الذي تعرض له بالأمس. فقد بدا الحاج غير راضٍ عنه، في الساعات الأخيرة من الليل، ولم يكن لديه أجوبة على أسئلته، وفوق ذاك يريد توريطه في إعطاء معلومات أمنية عن سفارة بلاده.. لا يملكها أصلاً! شعر بأن الاتهامات تنهال عليه كل يوم، وكلما وّقع على ورقةٍ جديدة من أقواله، وجهوا له اتهاماً إضافياً، ووقع على محضر جديد لا يعرف ما فيه!!
أصبح موقناً الآن، أنهم يحاسبونه على كل كلمة كتبها، وعلى كل رأي أعلنه، وعلى كل موقف اتخذه.. معهم أو ضدهم، كانت تفاصيل التحقيق على مدار اليومين

الماضيين، ولا تخرج عن ذلك.. وكل الأدلة ضده هي أوراقه: مقالاته ودراسته المنشورة، أو غير المنشورة! لكن.. لماذا انتظروا عليه كل تلك السنوات، لماذا لم يطردوه، ولماذا يعتقلونه الآن؟!
جحيم من الأسئلة، تتقلى روحه على ألسنته، ويكتوي القلب والضلوع في أتونه، أسند مرفقه على ركبته، وغطى حاجبيه وعينيه بكفه، وغرق في حال سديمية من التفكير.
عيناه مفتوحتان، ولا يرى شيئاً محدداً أمامه، لم يعد يشعر بشيء من حوله. كأنه معلق في الفراغ، لا يصدق سوى أمراً واحداً: أنه اعتقل، وانتهى كل شيء.. كل شيء. وقد تساوت الآن الحياة مع الموت، وبدأت دنيا الضياع، الداخل مفقود، والخارج مولود.. دخل هو، فهل يخرج؟!
فتح الباب مرّة أخرى، دخل الحاج ومعه معاونه الكاتب، وشخص ثالث.
-اطمئن.. أمورك بخير..
داهمه شعور بالإطمئنان لثوان قليلة، مالبث أن تبخر فهل يأت من هؤلاء الإطمئنان؟ الشيء الوحيد الذي يتمناه الآن هو أن يطلقوا سراحه.. فقط!
-ستأتي معنا قليلاً!
لوّح بملف بيده اليسرى مشيراً لعامر أن يتبعه، وضعت العصابة على عينيه، ومشى خلفه نحو الغرفة، لحظات، ثم جاءت القهوة، ساخنة فوّاحة، وفي فناجين من الخزف.
قدّم له القهوة، وهو يشرح له:
-لدينا بعض الأوراق، نريد أن تتأكد منها.. ما إذا كانت لك.
وبدأ يخرج من الملف ورقة، ورقة، وهو يتعرف عليها، كانت تلك بعضاً من ملفاته التي يحتفظ بها في منزله: مشاريع، ومسودات شارك بها في ندوات ومؤتمرات مختلفة. بعد أن جمعها الحاج فوق بعضها البعض أمام عينيه، قدّم له قلماً، وطلب إليه التوقيع أسفل كل صفحة، وعندما انتهى، أخذها الحاج وقام بترقيمها، وأعادها إلى الملف نفسه، وأغلقه، ثم طلب من مساعده أن يذهب برفقته.
ومن جديد ثبتت العصبة على عينيه، واقتيد في طريق آخر، بعيداً عن الزنزانة!
وصعد به مجموعة من الدرجات، لا تزيد عن سبع أو ثمان، ثم انحرف به يساراً، توقف، دق باباً، ثم دخل به وأجلسه على كرسي، حرر عينيه، فوجد نفسه في غرفة واسعة نظيفة، مفروشة بأثاث مكتبي فاخر، لم يلحظ وجود أي نافذة، أو ضوء طبيعي، جلس المساعد خلف الطاولة، وقال له بلطف ولين شديدين:
-لدينا إجراء أخير.. لننته منه.
قدّم له ورقة واحدة عليها مجموعة من الأسئلة والأجوبة، طلب منه أن يقرأها جيداً، ويتمعن بما فيها، وأضاف:
-هذا ملخص لأقوالك.

-ولكن هذه مصيبة.. أنا لم أقل شيئاً من هذا..
-ألا يوجد بيننا تفاهم على إطلاق سراحك، أو ترحيلك؟
-بلى.. ولكن..
- هذا إجراء شكلي، لا أكثر.
طرقات ملحونة خفيفة على الباب، ودخل شابٌ مسلحٌ ببندقية كلاشينكوف.. وخلفه آخر يحمل جهاز تصوير مرئي دفعه أمامه، وهو يسأل عما إن كنا جاهزين. ترك المصور أمامه مباشرة، وخرج، بدأ المساعد يسأل وعامر يعيد ما يُلّقن له بصوت خفيض تكاد لا تلتقطه آلة التصوير، وبعد استجابته تماماً لما هو مطلوب منه، وجه إليه سؤالاً أخيراً:
-هل تضيف شيئاً آخر؟
خنقته العبرة، توقف لحظات، ثم نطق كلمة واحدة: الحرية. .
وبينما كان ينطق الكلمة الأخيرة، أحس بحرقة شديدة تكوي حلقه وحدقتيه، تحجرت دمعتين في محجريهما يريد لهما أن تتحدران على وجنتيه، أن يتركهما تنسابان، ربما ترتوي آلامه، وتغتسل أشجانه، ويرتاح قلبه، ولو للحظة واحدة. انتهى تصوير الاعتراف، لم ينبس المساعد ببنت شفة، نظر كل منهما للآخر. نهض من خلف المكتب، وقاده خارج المكان، نحو غرفة التحقيق، وضع توقيعه مجدداً على ثلاثة أوراق، قال الحاج أنها إفادته أمام آلة التصوير. وأضاف بهدوء وراحة:
-الآن انتهينا من كل شيء.
-مدّ يده إلى درج الطاولة، وأخرج كتاب "قانون العقوبات". تصفحه قليلاً، نظر إليه وهو يبتسم ثم أعاده إلى مكانه، تشجع فسأله عن العقوبة.
-اطمئن.. لا إعدام، ولا مؤبد.
صمت ، أطرق برأسه وراح يهزّه، وقد عقدت الدهشة لسانه، وهو يتساءل في سرّه عن كل هذا الذي يجري من حوله من غموض وغَرابة، ومراوغة وتلفيق، ووعود بإطلاق سراحه.. فقط عليه أن يستجيب لهم، ويوّقع على إفادات مزورة بمعرفته.. وها هو يطمئنه بأنه لن يعاقب بالإعدام، أو السجن المؤبد.. ماذا إذن؟!
-ما بك.. لماذا ساكت؟ لا تخف.. قلت لك اطمئن، وحتى تصدّق ما أقول، وأننا نساعدك، ونسهل لك الأمور، وسوف نكافئ توقيعك على المحاضر.. سنؤمن لك مكالمة هاتفية مع أسرتك.
التفت إليه، رفع رأسه بدهشة، وسرور كبير ملأ قلبه، نسي كل شيء، حتى المصيبة الكبيرة التي تم توثيق تورطه فيها بالصوت والصورة والتوقيع على أكمل وجه تريده المخابرات. بدأ يتحضر نفسياً لمحادثة زوجته وأولاده بعد ثمان وأربعين ساعة على اعتقاله.. بالتمام والكمال.

أشار لمساعده، أن يأخذ الهاتف الجوال، والمبلغ المالي الذي سلمه عامر، وأن يتوجه إلى منزله لترتيب الاتصال.. وبسرعة.
وخلال فترة الإنتظار، تناول طعام الغداء، طبق من الرز، احتار كيف يأكل بدون ملعقة، قدمت إليه ورقه بيضاء، اقتطع طرفها وجعل يتناول الرز، فيما يبحث أحد العناصر عن ملعقة لكنه لم يعد.. أكل بصمتٍ، وهو يؤنب نفسه على إقراره بوجود كاشف أرقام. لو أنه كذب عليهم، لكان الآن يتحدث مع أولاده ومع شام.. ولربما تكتشف هي أي جهة تعتقله، وأين مكانه.. لكنه بدا مرتاحاً بعض الشيء، فهم يعرفون - بلا شك - بذلك، من خلال مراقبتهم لحركته، ومنزله، وهاتفه منذ يزيد على تسعة أشهر مضت.
انتهى من طعامه، وسُمح له أن يغسل يديه بالصابون، وعندما عاد إلى الغرفة رن الجوال، أجاب الحاج، ثم قدم له الهاتف. أخيراً، جاءه صوت شام باكياً، حزيناً، مؤلماً ومتألماً، تمالك نفسه، بلل شفتيه بلسانه، بلع ريقه، وردّ بصوت هادئ، واهن:
-أهلاً عيني.
جاءته أسئلتها كثيرة، ملحاحة، لجوجة، وصوتها مشبع بالخوف والرعب عليه.
-أنت أين؟ ضربوك؟ عذبوك.. قل، أجب !
-أبداً، اطمئني، انا بخير، لم يمسني أحدٌ بشيء.
-إذن لماذا؟
-موضوع طويل.. اهتمي بصحتك قبل كل شيء، سلمي لي على الأولاد، قبليهم كل صباح ومساء عني..
-ستعود قريباً..
-إلى أن أعود.. خذي الأولاد وغادري البلد..
قاطعته شام رافضة، مستنكرة، لن تتركه، أو تتخلى عنه، ستبقى قريبة منه.
-الموضوع كبير، وغيابي قد يطول..
-سأظل بانتظارك، إلى جانبك، ولو خمسين سنة.
- أحبكم.
-ونحن نحبك، اعتن بنفسك.
كانت الساعة تتجاوز الثالثة بعد الظهر، ليوم الخميس الحادي عشر من نيسان، حين أوصله الحاج بنفسه إلى الزنزانة، وأوصد الباب بشدّة عليه.
بعد ساعة تقريباً، دخل عليه المساعد، قدّم إليه كيساً وهو يقول:
-من البيت..هم بخير.

صمتَ قليلاً، أحسّ بأن شيئاً ما داخل هذا الرجل، يدفعه لتصديقه، منذ التصوير، شعر بعينيه، وكأنهما تشيان بتعاطف سريّ معه. قال له: شدّ حيلك، كي ترجع لهم سالماً. انا أعطيتهم المال الذي أخذناه منك بالكامل.. طمئنتهم عنك، وأرسلوا لك هذا الكيس. رمى عليه تحية أخيرة، واستدار خارجاً، شيّعه بنظرات مريرة، وقلبه يعتصر ألماً وحزناً..يكاد ينفطر شوقاً وحنيناً إلى رامي، وريم.. وشام. أما سلام التي لابد أنها تتّقي وجهها من الشعر بالمنقاش.. فلم تخطر له على بال. .

14

أسرع إلى كيس الملابس، أفرغ ما فيه دفعة واحدة فوق الفراش، ثم اخذ يرتب القمصان الداخلية، السراويل، معجون وفرشاة أسنان، وأدوات الحلاقة، منشفة، مشط، قطن آذان، مناديل ورقية، بنطال وقميص. حدّق في الأشياء التي أمامه، وقلّبها بعينيه قطعة قطعة، كأنه يتعرّف الى هذه الأشياء لأول مرة في حياته.. تلمسها بأصابعه ثم قرّبها من وجهه، قبل أن يتشممها ويدفن رأسه فيها.

- رائحة البيت، وعطر شام.. ما أحلاهما.

قال لنفسه، لكن بصوت سمعته أذنيه، لم يعد مهماً أن يسمعه أحد هنا، تكسّر حاجز الخوف في داخله، تأوه، أحس بطعم المرارة في فمه، والعبرة الخانقة تمر بحلقه، عاد يتشمم الثياب ويستنشق الهواء من خلالها:

- هواء الحرّية..

نشق أنفه، مسحه بطرف كمه، وبدأ يعيد ترتيب الأشياء في الكيس، بصورة تسمح له باستخدام الأدوات مباشرة عند الحاجة، لاحظ غياب ماكينة الحلاقة والشفرات..

-لا يمكن أن تنساها شام.

تيقن من مصادرتها في هذا المكان، لأنها أدوات حادة. وفي العادة، لا يبقون على أي شيء لدى المعتقل كي لا يرتكب حماقة ما، قد تحرجهم! وما دام الأمر كذلك لا يملك سوى أن يطلق لحيته وشاربيه، فلم يعد بحاجة هنا لمثل هذه الأشياء، والكماليات التجميلية، ولا حتى الثياب النظيفة، أو الجيدة.

وعلى رغم نومه حتى العاشرة صباحاً تقريباً، لا زال يحسّ بحاجة إلى النوم. عيناه تغالبان النعاس، وفمه يتثاءب، وجسده منهك القوى متعب، لقد غادرته نشوة الفرح التي غمرته حين سمع صوت شام، تحدث وأفضى ما في صدره من كلمات إليها، لكنه الآن يشعر بالكآبة، والحزن يتمكن منه، ويطرحه أرضاً، مرمياً على الفراش الوسخ، عينيه المغرورقتين تدوران في محجريهما، عاجز ومحبط وخائف على زوجته وأولاده، أما نفسه، فلم يعد لها تلك الأهمية، بعد أن انتهى به المطاف في هذه الزنزانة.

لا قهوة ولا شاي، لا جرائد ولا كتب.. لا قلم وأوراق، كل ما يمتّ بصلة لحياته الطبيعية انقطع عنه. كل شيء صار خلف الباب الحديدي المقفل بإحكام، وخلف أسوار هذا المكان المجهول بالنسبة له تماماً. لا يعرف عنه سوى أنه مبنى مخابرات! وفيما أخذت فكرة أن هذا هو بيته الجديد، تسيطر عليه، يشعر بها، مثل مظلّة يحتمي بها من المطر..نهض من مكانه بتثاقل وكسل، لكن الصراع الذي نشأ داخله بين فكرة بيته الجديد، وبين رفضه لها جعله يتحرك من مكانه لا يعرف ماذا يفعل، أين يتجه داخل هذا المربع المغلق. إلى شق الشباك الموصود، أم إلى الباب المقفل؟! ضغط أعصابه، لكي يبقى هادئاً، ومتماسكاً ما أمكنه ذلك، وإلا فإنه سُيهزم نفسياً وجسدياً!
أمام عينيه مباشرة، ثمة كتابات على الجدار، تقدم نحوها، وقبل أن يقرأها رمى نظرة إلى الجدران الأخرى. أنها مليئة بالخطوط والرسوم والكلمات.. لم ينتبه إليها من قبل! كيف لم يرها! سأل نفسه. أيعقل أن تمرّ عليه ثلاثة أيام ولا يكتشف هذا الكتاب المفتوح؟ اقترب من العبارة المكتوبة بخط مائل، وقرأ:
"بكيتُ لأن حذائي ضيّق..وسكتُ عندما رأيت الناس بلا حذاء.."، "ذكرى صلوح من الجبل الأخضر، مرّ من هنا بليلة بلا ضوء قمر شهر 2 من عام 1998".
كانت هناك عبارات كثيرة عن الصبر: "إن الله مع الصابرين" هذه مكرره 11 مرّة، وتحت كل واحدة منها ذكرى لرجل سكن هذه الزنزانة. وعلى الجدار المحاذي للباب وجد عبارة منقوشة بأداة حادة تقول: "لا توقظ سجيناً نائماً.. ربما يحلم بالحرية"، و"السجن للرجال.. لا تحزن"، وثمة ذكرى لرجلين رسماً قلوباً وسهاماً وكتبا اسمي زوجتيهما: "ذكرى مجدي من مصر وزوجته نعيمة، وحسنين وزوجته زكية من كفر الرّمان محافظة الشرقية.. سنة 2000"، وعلى مقربة كتب أحدهم: "بريء.. والله بريء، ياناس سيبوني في حالي". أشواق كثيرة على الجدران، ونداءات إلى حبيبات، غيّب الزمان أحبتهن في هذا المكان.
"الصبر مفتاح الفرج.." أكثر العبارات المكتوبة بروزاً ووضوحاً، ويمكن قراءتها من الجدار إلى الجدار، كان يستطيع قراءتها وهو في فراشه، ولا يحتاج إلى عناء كي يقرأ عبارات أخرى أقل وضوحاً، لكنه الآن صار يميزها واحدة..واحدة، بمجرد النظر إليها. فكر أن يضيف إلى الحائط عبارة ما، تدّل عليه، وتبقي ذكراه في هذه الزنزانة، كما فعل الذين سبقوه، لكنه لا يملك قلماً، أو أي شيء حاد، يستطيع أن يحفر به الجدار، صرف الفكرة، واتجه نحو النافذة، وأخذ يعدّد القضبان الحديدية: تسعة قضبان عمودية، واثنان أفقيان يقسمان الفراغ إلى عدة مربعات متساوية، واحد، اثنان.. أربعة وعشرين مربعاً، أعجبته فكرة العدد. أخذت عيناه تجولان في الفراغ بحثاً عن أي شيء يعدّه، الباب.. ارتفاعه تقريباً (180) سم، وعرضه.. ربما ثمانون!

تدعمه ثلاثة قضبان مربعة. وفي الإطار أربع مفصلاّت، تسمح بحركة الباب، بسبب ثقله!
عَدّدَ القطع الخشبية، وأضلاع النافذة من الداخل، والخارج، انحنى نحو الأرض، رفع طرف البساط وأخذ يعدُّ قطع البلاط: تسعة ونصف طولاً، وستة ونصف عرضاً، وقف وسط الزنزانة، ويديه على خاصرته وهو ينقل نظره بين الأرض والسقف عبر الجدار.. محاولاً تقدير ارتفاع الغرفة، مستنداً إلى ارتفاع الباب، والمساحة التي تفصل أعلاه عن السقف: متران وثمانين، أو ثلاثة أمتار على أبعد تقدير.
قال لنفسه، ثم بدأ يقيس المسافة الفاصلة من الأرض حتى حزام الدهان على الحائط، بالشبر: ستة أشبار.. يعني متر ونصف.. الإرتفاع ثلاثة أمتار، نعم ثلاثة أمتار. نفض يديه من غبار الحائط، واستدار..وكأنه حقق إنجازاً كبيراً ومهماً.
انحنى أمام النافذة، ومدّ بصره عبر الشق، لقد بدأ الظلام ينشر رداءه الفضي الغامق، وينسج خيوط الليل، وبدت الساحة أمامه هادئة خالية، تنيرها أضواء المصابيح البيضاء المتعانقة مع أشجار السرو على حوافّ الجدار. لم يعد يرى أمكنة واسعة، ولكن منطقة محدودة أمامه فقط، إنما بوضوح، ونقاء، ولا أحد يتحرك في هذا المكان، ثمة حفيف خفيف لأوراق شجرة صفصاف في زاوية المرآب، إلى يسار نظرته مباشرة، تتحرك أغصانها كلما هبّت نسمة ربيعية تنعشه عبر الشقّ الضيق، ويرى خلف السور أشجاراً أخرى عالية وظلاماً دامساً.
قطع السكون منبه سيارة، زعق مرتين متتاليتين، وصوت مزلاج وباب حديدي يُفتح، أدرك عامر أنه غير بعيد عن الأسوار والبوابة، ولم تلبث السيارة أن توقفت أمام نافذته مباشرة، تراجع خشية أن يكتشفَ تلصصه أحد القادمين، ثم عاد يقترب رويداً رويداً ليرى ماذا يجري. شاهد شخصان ينزلان قِدْراً كبيراً، وصندوقاً كرتونياً مليئاً بالخبز، وغادرت السيارة دائرة باتجاه الخلف مباشرة، عبر الساحة.
إنه العشاء إذن..وخلال دقائق فتح الحارس باب الزنزانة ودفع إليه إناء الألمنيوم الكبير، وفي قعره قليل من الطبيخ، مع خبزة، تشمم رائحة الطعام، نفذت إلى أنفه نكهة البازلاء المشبعة بالتوابل، وضع الإناء فوق البلاط، ومدّ يده بقطعة الخبز يغمسها ويرمي بها في فمه، كان الطعام حاراً جداً وفاتراً، ومع اللقمة الثانية قفزت إلى روحه صورة العائلة، تجلس إلى طعامها حزينة بلا أب..سقطت دمعتة على الخبزة، أغلق فمه عليها وأخذ يلوكها والألم يعتصر قلبه. عافت نفسه الطعام، تركه في مكانه مثلما هو.. وعاد إلى فراشه يتكئ إلى الجدار ورأسه فوق ركبته، شَعر أن قلبه يكاد يسقط من مكانه.. ها هي الليلة الثالثة التي يبقى فيها بعيداً عن البيت، عن شام ورامي وريم، غصباً عنه. وأخذ يتساءل في نفسه عما إذا كانوا يأكلون جيداً،

وينامون جيداً، وما تراهم فاعلين في غيابه. صورة الدموع في عيونهم لحظة الوداع، لا تغادر مخيلته، لا يستطيع أن ينزعها، بدت الصورة وكأنها مزروعة بين أضلاعه. مسح عينيه بالسبابة والابهام، رفع رأسه عالياً، وأطلق تنهيدة طويلة، لكن روحه لم تهدأ. ظل النشيج يتواصل داخله، حتى فتح الحارس الباب لاستعادة الإناء، نقل نظراته بين الطعام ووجهه، مستنكراً أن يرى الطعام كما هو:

- لم تأكل؟

-أكلت.

-ماذا أكلت؟

خفف الحارس من نبرة صوته، وقد اكتشف حزنه، من عينيه المحمرتين المتورمتين.

-أنت تتعب نفسك.. يجب أن تأكل.

لم يجب، هز رأسه بصمت، لم يكن قادراً على الكلام، أضاف الحارس:

-الوضع هكذا.. لا يساعدك.

سحب الإناء، نظر إليه ثانية وسأله:

-تريد شيئاً.

-أريد ماءً.

-هيا، أخرج إلى الحمام.

أسرع إلى دورة المياه، قرر اغتنام الفرصة والتبول، غسل يديه ووجهه، ثم ملأ القنينة وعاد إلى زنزانته دون إبطاء. اتجه نحو المنشف المعلق على أكرة النافذة، يمسح يديه ووجهه.. شمّ رائحة العطر الناعمة تنبعث منه.

فجأة دبّت الحركة في المكان، الممر، أبواب تفتح، وخطوات تنتقل وأصوات تعلو، لكنه لم يفهم كلمة واحدة، كانت قريبة وبعيدة بآن واحد، وخفيضة دون ضوضاء، كلمات أقرب إلى الهمس منها إلى الكلام الواضح، ثم سمع بعد قليل قرقعة الأواني تغسل وتطبّق فوق بعضها، تبعه أقفال الأبواب، ليسود الصمت والهدوء مرّة أخرى.

مدّ فراشه وفَرَدَ البطانية، وضع حذاءه بدلاً عن الوسادة، وفوقه كيس الثياب، ثم فرش المنشف عليه، وقبل أن يتمدد، رفع جانب الفراش المحاذي للجدار، ودفع طابوراً طويلاً من الحشرات بطرف الشحاطة، خارج الزنزانة، وطوى قطعة من فراش الأرض بشكل اسطواني، فأغلق بها الشق الفاصل بين الباب والأرض، كي يمنع دخول الحشرات. شرب جرعة من الماء، أطفأ النور وتمدد.

الفراش بارد، ضيق من الأسفنج الرقيق، رائحته عفنة، مثل رائحة الغطاء، دفن وجهه في المنشف /الوسادة، يعبّ من الرائحة الزكية الطيبة الفواحة عطراً، لكنه كلما غرق في التفكير تقلّب رأسه، فيشم رائحة البطانية، فيبعدها عن وجهه.

الظلام الدامس يلف الزنزانة، لم يغمض له جفن، حاول إرغام نفسه على النوم بلا فائدة، ظل يتقلب في الفراش يمنة ويسرة، يستعيد الأحداث الجسام، والمصائب الكبيرة التي حلّت به منذ ثلاثة أيام، ثم يعيد اجترار تذكرها من جديد. تتوالى صور الشوارع والسيارات. والناس، والبيت، شام والأولاد، تذهب وتجيء.. استبدّ به القلق، وسرت في جسده رعشات البرودة، بقي على حالته تلك حتى تملكه الإعياء، ونال منه الإرهاق النفسي، فغالبه النعاس متكوراً، كفه اليمنى تحت خدّه، ويده الأخرى على صدره تشد الغطاء إليه، وببطء وهدوء، أخذ يغرق في النوم، ويهوي إلى قاع الأحلام:

"..شعرها الطويل فاحم السواد، منسدلاً على كتفيها، يتدلى على صدرها كوردتي جلنار، أما جسدها، فكان يانعاً كغصن الرمان، مورّداً أبيض.. زهرياً. فتحت الباب، أطلت برأسها، ثم دخلت، أغلقته خلفها واتكأت عليه، كانت عارية تماماً، حافية القدمين، نظرت إليه بعينين جائعتين واسعتين لامعتين، شبكت ساعديها وتقدمت إليه بجسد يتمايل. كانت المسافة بينهما قريبة، متران أو ثلاثة، لكنها ظلت تتقدم، وهو في مكانه لا يتحرك، وحده في الغرفة، خلف الطاولة، ينظر إليها مشدوهاً.. لم تصل إليه لم يلمسها، ولم يتكلما.. ظلا صامتين، هي تدور أمامه وتدخل في الركن المقابل له، ظلت داخل الجدار عارية بيضاء، زهرية، شفافة مثل بلّور".

فتح عينيه، وحدّق من حوله في الظلام الدامس. لا أحد في الركن.. والوجه الذي رآه يعرفه.. يعرفه تماماً، ملامح امرأة ليست غريبة عنه، ورائحة عطرها الذي تركته داخل الزنزانة، نفذت إلى ذاكرته.. لكنه لم يعرفها أبداً.

مسح وجهه بكفيه وجلس يستعيد الحلم، وتساءل في أعماق نفسه عما إذا كان الحال مناسباً لحلم كهذا؟! أنبه ضميره، وشعر بالخزي أمام الرغبات والشهوات التي اجتاحت جوارحه. حاول أن يمسح من ذهنه صورة المرأة الجميلة التي داهمت ليله، وجسدها العاري الذي خلّف في جوانبه رعشةً أخجلته، لم يقدر على محوّها. وبدلاً من ذلك حفرت مكاناً عميقاً في الذاكرة!

زنزانةٌ.. جسدٌ مرمي.

رجلٌ.. مثل أمير شريدٍ..

امرأةٌ شرقيةٌ.. وجسدٌ مورق كعطرِ المطرْ!

15

باكراً جداً، فرك عينيه وغادر الفراش، تجرع قليلاً من الماء، أحس براحة الجسد ونشاط الذهن. تمطى، حرك يديه إلى أعلى وأخذ يقوم ببعض التمارين الرياضية السويدية البسيطة التي لا تتطلب منه جهداً. بعد خمس دقائق، كان الدم قد نشطت حركته في الأوعية تماماً.. وبدأت أحشاؤه الداخلية: أمعاؤه والمثانة، تدق أجراسها، وصار الخروج إلى دورة المياه ضرورة، انتظر أن يفتح الحارس الباب، يمرّ الوقت ولا أحد يأتي، أزمته اشتدت، يدور حول نفسه بخطى بطيئة أحياناً، وسريعة أحياناً أخرى، المهم أن يتحرك. ثم بدأ يدق الباب دون أن يجيبه أحد.. يكاد يتبول، أو حتى يتغوط في ثيابه.. ازدادت طرقاته على الباب، ورفع صوته منادياً: يا حارس.. يا حارس.. لم يتلق رداً. عاد يدور حول نفسه مثل لولب وهو يعصر نفسه، يضغط على أعضائه ويكزّ أسنانه، وعاد من جديد يدق الباب بقبضته.. أخيراً سمع صوتاً واهناً:

-لا يوجد أحد..يأتون بعد قليل.

طال الوقت..ساعة وأكثر من ذلك، لم يعد قادراً على ضبط أعصابه، خاف أن يؤدي حصر البول إلى تسمم في جسده، أو أن تنفجر المثانة، وضع مناديل ورقية في كفه، أقترب من الجدار، وسمح لبضع دفقات صغيرة من البول بالخروج فوق المناديل، وظل ممسكاً بها، واقفاً جانب الباب حتى جاء الحارس، فخرج مسرعاً نحو الحمام، وقضى حاجته.

قدّم له إفطاره، خبزة مدهونة بقليل جداً من لحم التونه، كان جائعاً جداً، فالتهمها بشهية لا حدود لها. انتبه إلى وجود شخص في الزنزانة المقابلة له، إذن صار بإمكانه أن يحادثه، قال في نفسه. أن يتعرف على أحد ما هنا، كي يكسر دائرة الصمت والقلق والخوف. هو الذي ردّ عليه في الصباح، وها هو الآن يسمع خطى، تمدد على الأرض وحاول أن ينظر من تحت الباب، حقاً.. كانت الزنزانة المقابلة له مفتوحة، لكنه لا يرى شيئاً، لحظات، وعادت الخطى تدبّ من جديد، رأى قدمين تجرجران بعضهما، وصاحبهما يتكيء إلى عصاه! لم يجرؤ على الكلام، ظل صامتاً، ينظر إلى الباب المقابل له، مفتوحاً، والضوء ينير الممر.

قرابة الظهيرة، عادت حركة فتح الأبواب تسمع في المكان، جاءه الحارس وطلب منه أن يجهز نفسه للذهاب إلى الحمام، حين يأتي دوره! حضّر ثياباً داخلية نظيفة مع المنشف، وجلس ينتظر، وبعد دقائق كانت كافية له، خرج قبل أن يطرق الحارس

الباب عليه، ويعيده إلى الزنزانة. شعر بسعادة غامرة وارتياح كبير، ارتفعت معنوياته لمجرد إحساسه بأنه إنسان، يغسل يديه ووجهه، يستحم.. لم يُعر لغياب الصابون أي اهتمام.. فالخروج من الزنزانة، التجول في المكان، والتعرف إليه يشغل باله الآن. لكن ذلك ممنوع عليه، ويشددون الرقابة على حركته فلا يشاهد أحداً، ولا شئ سوى الأبواب العازلة بين الأجنحة!

الحياة هنا مليئة بالضجر، يمضي وقته كاملاً بين التمدد على الفراش، الوقوف خلف النافذة للتلصص على الساحة، أو الانبطاح أرضاً ليراقب حركة الأقدام عبر شق الباب.. طعام، حمام..مرّ به يوم كئيب آخر ممل، ليس ثمة شيء ينشغل به عن التفكير في الحياة خارج المعتقل.

مع غروب الشمس، لم يعد قادراً على احتمال السكون والرتابة، وكان خوفه من المجهول، ينسج من حوله خيوط الكآبة، وهو يرى كل شيء حوله مظلماً، وقلبه يشتد خفقاناً، ودون شعور منه، وجد نفسه يناجي الله، يسأله السلامة والفرج، يلحّ في السؤال تضرعاً، ومرّة اخرى وجد نفسه يتجه نحو المساحة الأرضية العارية أمام الباب، ويأخذ قنينة الماء ويتوضأ، ثم يصلي.

تلك الليلة أكثر من الصلاة والدعاء حتى نال منه التعب والنعاس، وبعد خمسة أيام اكتشف انه كان يصلي عكس القبلة تماماً! فأجاه الحارس وهو يدفع إليه طعام العشاء، قطع عليه صلاته، وأشار بيده، إلى الوجهة الحقيقية للقبلة.

صباح السبت جاءه الحاج بابتسامة واسعة، دخل زنزانته وقدم إليه كأساً كبيراً من القهوة العربية، كان في أمسّ الحاجة إليها، رّبت على كتفه قائلاً:

-نحن نعاملك معاملة خاصة.. يجب أن تعرف ذلك.

-أريد أن أطمئن على أسرتي.

طلب منه أن يكتب دراسة مفصلة عن أحداث الحادي عشر من سبتمبر، لم يطلب منه شيئاً محدداً.. إنما أشار إلى أنها يجب ألا تقل عن ثلاثين صفحة، وأن يعطي رأيه بصراحة:

-أريد استنتاجات.. هذه خدمة شخصية لي، لا علاقة لها بالعمل، وغداً صباحاً أمرّ بك لاستلامها.

-ليس لدي ورق، أو أقلام.

-سأرسل لك، تريد شيئاً آخر.

-صابون.. أريد صابون.

بعد قليل جاء مساعده، وضع الأوراق البيضاء أمامه على الأرض، وأخذ يرقمها، من واحد إلى ثلاثين. ثم سلمها مع القلم، مشدداً عليه أن يحرص على تسلسل أرقام الورق .

أخذ رشفتين لذيذتين من القهوة شديدة الحلاوة، وهو لا يصدق أن الدراسة حاجة شخصية للحاج، وبعدُ لم يمرّ وقت طويل على هجمات سبتمبر.. نظر إلى الورق، نظرة عاشق يلتقي معشوقته بعد حرمان طويل، لم يضع وقتاً في التفكير، فانكب يعمل بجدٍ ونشاط وكتب على الورقة الأولى، بخط جميل العنوان الذي اختاره:
"أحداث 11 سبتمبر: المقدمات والنتائج"..
شرع في الكتابة، مرّة يتكئ إلى الجدار والورق على ركبته، وأحياناً يتمدد على الأرض، وكلما تعب عدّل وغيّر من جلسته. كان يكتب بسرعة وغزارة وهو يحلل ما حدث من حيث الأسباب التي قادت إليه، وطبيعة الحدث، وانعكاساته ونتائجه على المستويين العربي والدولي.
في ذلك اليوم سارت أموره على ما يرام، كان الحارس يفتح الباب عليه من حين لآخر، يخرج إلى الحمام، حصل على كأسين كبيرتين من الشاي ظهراً ومساءً، ساعده ذلك في إنجاز قسم هام من الدراسة، مع انتصاف الليل. كان عليه مساء اليوم التالي، أن يقدم سبعاً وعشرين ورقة،وأن يسمح له بالاحتفاظ بالقلم، وثلاثة أوراق بيضاء: يا للكنز الثمين!
الورقات الثلاث بمثابة جائزة، والقلم جائزة أخرى، عليه ألاّ يُفرط في استعمالهما.
فكر في نفسه، أسرع في إنجاز الدراسة، كي يكون جاهزاً لأية لحظة يطلقون فيها سراحه، فلا يبقى شيء يربطه بالمكان. كان اعتقاده كبيراً، إلى درجة الإيمان، بأنهم سيفون بوعدهم: إطلاق سراحه، أو رحيله عن البلاد.. لكن الأيام تمرّ، ولا شيء جديد.
ما إن أُغلق الباب عليه ليلاً، حتى سارع إلى القلم، واختار ركناً مخفياً من الجدار، أسفله تماماً عند رأسه، وبدأ يرسم خطوطاً شاقولية متوازية، كل خط يعنى يوماً من الإعتقال، على شكل مجموعات، تشير كل واحدة منها لخمسة أيام، وعلى نفس المستوى من الجدار المحاذي دوّن يوم وتاريخ الإعتقال.. لكنه لم يكتب اسمه، وأعاد الأمر نفسه مع كيس الملابس الملون، بطريقة لا يمكن مشاهدتها واكتشافها دون تدقيق أو تفتيش.
أخذ الحاج يتردد على زنزانته بصورة شبه يومية خلال الأيام العشرة الأولى، وفي كل مرّة يطلب منه تفسيراً لمسائل مختلفة. مرّة عن علاقته بجبهة تحرير عربستان، ومرّة عن باولابيكيت صديقته البريطانية الجميلة، ومرّة عن علاقاته بكتاب وصحفيين عرب أو أجانب، وفي كل مرة يعيد عليه طرح السؤال عن ضابط الأمن في السفارة السورية.. وعمن تكون لديه الشيفرة! وما إذا كانت له علاقة ما بالمعلومات التي تنشرها الأمم المتحدة عن بلاده!
-حتى هذه، ستنزل برأسي أنا!

لكن الشيء الذي ظلت أجوبته في جوفه، سرّاً لم يفش به، رغم إلحاح الحاج ومساعده ، كان حول المذبحة التي تعرض لها سجناء سياسيين، ذات نهارمن حزيران عام 1996 في سجن ابو سليم، كانوا يقولون له أن المعلومات المضبوطة لديه صحيحة: العدد تقريبي، والظروف وملابسات الحادث.. تماماً، إلى درجة تكاد تطابق الحقيقة، يذهبون ويأتون، والسؤال نفسه:
-من أين لك هذه المعلومات.. وما مصدرها؟
لم يجب رغم التهديد بإعادته إلى الاستراحة، أو ممارسة أي شكل جديد من التعذيب ضده، لكنه في مسائل أخرى كان يجيب على أسئلتهم التي لا تنتهي، ويوقع على الأوراق.
صباح اليوم العاشر، دخل الحاج عليه، ضبط دمعته في لحظة كانت ترتجف فيها اعصابه.
-ما الأمر؟
-أسرتي..
-إنها بخير..
-هل أستطيع محادثتها؟
-لا يمكن.. يجب مراجعة المسؤول قبل ذلك، إن كان يسمح. اطمئن.. صحتها بخير، وهي الآن تقوم ببعض الإجراءات عن طريق السفارة، أبلغتهم باعتقالك.. إنهم يسألوننا عنك.
للوهلة الأولى شعر بالإرتياح، فقد يكون لهذا التحرك نتائج إيجابية، تساعد على الإسراع في الإفراج عنه، لكن "تجري الرياح بما لا تشتهي السفن"..فقد اعتبرت السفارة أن أعتقاله شأن خاص بهم..ويخدم تعاونهم المشترك!
لم يكن غريباً ذلك..فقد تجاوز كل الخطوط الحمر، بما تجرأ عليه في دراسته التي أثارث ماتبقى حياله من حفظيتهم، وجعلته عدواً، بما نشره في جريدة الزمان، بمناسبة مرور عام على خطاب القسم " ماذا وعد الرئيس.. وماذا قدّم "..ليست هذه وحدها، ولكنها التي أفاضت الكيل عن آخره!

مرّة إثر أخرى، صار يتجرأ على مدّ النظر أين يمكنه ذلك، يتلصص ليلاً ونهاراً عبر شقيّ الباب والشباك. أصبح يرى وجوه المعتقلين الآخرين، ويميزهم بأسمائهم وأصواتهم وجنسياتهم.. لقد اكتشف بعضاً من تفاصيل المكان.. وكثيراً من تفاصيل الحياة اليومية داخل مقر المخابرات.. وكذلك نوبات الحراسة!
البناء الذي يقبع فيه، مستطيل، طابق واحد فوق الأرض، وعلى جانبي الممر الذي يقارب طوله العشرين متراً.. توجد أربع أو خمسة زنزانات متقابلة، والمبنى يقسمه

باب حديدي كبير على حجم الممر تماماً، إلى قسمين، الأول يضمّ زنزانتين واسعتين متقابلتين، يسكن أحداهما عامر، يليهما المطبخ ولا شيء فيه سوى حوض الغسيل، وخزانة فارغة، تستعمل لغسيل الأواني وتوزيع الطعام. وأمامه مباشرة دورات المياه، وتضم ثلاث حمامات ومغسلة. أما القسم الثاني، فيضم الزنازين الإنفرادية الصغيرة الأخرى.

الغرفة، أو الزنزانة المقابلة له، يسكنها رجل طاعن سبعيني، طويل القامة محني الظهر، طليق اللحية، حركته بطيئة، ويستعين بعكاز، مصاب بداء السكري، لذلك فإن الحراس لا يقفلون الباب عليه، ليتمكن من استعمال الحمام وقت يشاء، كان العم إبراهيم-وهذا هو اسمه-ينهض مبكراً لصلاة الفجر. تضم غرفته سريراً، وكرسياً، ومدفأة كهربائية! كانت تستخدم غرفته بين الحين والآخر للتعذيب بالكهرباء.. يخرج العم إبراهيم إلى الساحة، وتبدأ حفلة اللدغ والصراخ..

تضم الزنازين الأخرى، مجموعة من المعتقلين، متفاوتي الأعمار: شباب وكهول، ماجد العراقي، أحمد الجزائري، رضا السوري، أفارقة من جنسيات مختلفة، مصري وتونسي. يسمح لهم بالخروج يومياً بعد الظهيرة، يقومون بأعمال التنظيف، والغسيل والطعام، وأعمال السخرة الأخرى الكثيرة. وكل يوم جمعة ينظّمون زنزاناتهم، ويخرجون مفارشهم وحاجياتهم إلى الهواء الطلق، ويعرّضونها لحرارة الشمس لتعقيمها من الحشرات.

كان يراهم يجلسون جنباً إلى جنب، يتحدثون بحرية، وأحياناً يأكلون، يعرفون بعضهم بأسمائهم، يتخاطبون دون حذر، ويتعاونون معاً في أعمال السخرة، وجميعاً كانت ثيابهم رثة، ضعاف البنية، إلا ماجد العراقي، طويل وصحته تبدو جيدة، وجسده قوي، كث الشاربين، لكنه بعد أيام بدا حليق الشعر تماماً، أصلع وبلا شاربين، إثر حملة الحلاقة التي قام بها، الضابط المناوب للجميع، قبل أن يذيقهم مرارة التعذيب، ويريهم نجوم الليل في عزّ النهار، ولساعات طوال..

كان الضابط قبيح الشكل والسلوك، ذميم الوجه، أفطس الأنف، أصلع الرأس، متوسط القامة، مربوعاً متعجرفاً، قاسياً وأستاذاً في بلاغة السباب والشتائم والإذلال، صاحب بيان في مفردات الرذالة! كان يعامل المعتقلين بأساليب بشعة قاهرة، ومشبعة بالإهانة، لا يراعي كرامة الإنسان، مهما كانت مشكلته، يعذبهم بلا رأفة، ولا رحمة.. إنه جلاد حقيقي للروح والجسد معاً.

رآه عامر، وجهاً لوجه مرّة واحدة. كان خارجاً من الحمام، يجتاز الممر نحو زنزانته، نظر إليه الضابط بارتياب. أحس بالخوف منه، رمى التحية عليه وعينيه في الأرض، خشية أن يضمّه إلى حفلة التعذيب.. كاد يحدث ذلك، لولا نداء الحارس له بالإسراع للدخول إلى الزنزانة.

كان يوماً مرعباً له، لكنه بائساً أسود للآخرين. كان نعمةً له، وجحيم للآخرين. قام الضابط بربط الجزائري بالباب الحديدي الداخلي الفاصل بين الزنازين ودورات المياه، قيّد قدميه ويديه، وعلقه مثل خروف، كان متدلياً لا حول ولا قوة له، يتلقى ضربات السياط التي تنهال على جسده كله، دون أن تنبس شفتيه بصوت واحد، لم يصرخ، ولم يتأوه، لكن الضابط هو الذي يملأ المكان زعيقاً، يكيل له الشتائم بلا حساب.

أمر الحارس، بإخراج كافة المعتقلين للتعذيب في الساحة.. وخلف الباب سمع الضابط يسأل عنه:

-وهذا؟

-هذا.. سيدي، لا.

-كيف لا؟

-التعليمات سيدي، من فوق..

-من فوق..! من هو؟

أنهى الضابط حديثه، ومضى يزعق بالمعتقلين المارين به نحو الخارج، وعامر وراء الباب مذعوراً، يسمع صوت السياط تلاحق المساكين المغلوب على أمرهم. جلس فوق فراشه متكوماً على نفسه لدقائق، ثم أسرع إلى شق النافذة، كان المشهد أمام عينيه واضحاً وكاملاً، أوقفهم الضابط في نسق واحد، كانوا اثني عشر رجلاً، أمرهم بالتجرد من الثياب، والزحف على الأرض حتى نهاية الساحة، والعودة لنقطة الانطلاق ولمرات عديدة. كانت السياط والهراوات تأكل من لحمهم، والمياه تنسكب عليهم من كل اتجاه، ومن يرفع جسده الزاحف عن الأرض، أو رأسه، تتكفل به الصفعات القوية واللكمات، والأقدام الراكلة بشدة بلا هوادة، أو شفقة.. ثم أصبح ذلك من نصيب كل واحد منهم، وهم يطوفون بالساحة رَمَلاً.. أو حين يجبرهم على القفز في الهواء، كالقرود، والعواء كالكلاب، أو النق والنطّ كالضفادع.. تماماً، وهو يدفع بهم، أخيراً نحو المياه الآسنة!

16

اقتاده الحارس إلى غرفة المطبخ، وطلب منه أن يبلل ذقنه بالماء والصابون، ثم شرع يحلق له لحيته، أخذت الموس تقطع الشعيرات، بألم وحدّة، فقد مضى اثني عشر يوماً لم يحلق فيها وجهه، منذ الاعتقال. كانت هناك قطعة صغيرة مكسورة من المرآة ، لا تزيد في حجمها عن قعر فنجان القهوة. وقبل أن ينتهي الحارس، قال له:

-بعد الحلاقة، خذ حماماً سريعاً، وارتد ثيابك.

خفق قلبه بالبهجة، ولمعت عيناه فرحاً، لقد أزفت ساعة الخروج إذن! أخذ يشكر الحارس على كلماته، ويزيد في الدعاء له بطول العمر، وبأيام من الفرح، ثم قال:

-دعني أكمل الحلاقة بنفسي.

-تكملها أنت؟!

أخذ يحلق ما تبقى من ذقنه، والحارس ينقل نظراته إلى الممر مخافة أن يفاجئه الضابط. سرق نظرة نحو وجهه في المرآة، كان جلّ شعره، قد داهمه الشيب هكذا، بصورة لم تكن ظاهرة عليه قبل الإعتقال. تساءل في نفسه، إن كان المصاب والهمّ والغم، قد أنزل به المشيب فجأة إلى هذه الدرجة! لم يهتم بالحلاقة، أنجزها كيفما اتفق، وأخذ حماماً بارداً، وخلال دقائق ارتدى بزته، ولملم حوائجه في الأكياس، أسرع للصلاة: ركعتي شكر لله..

أخذت روحه ولسانه يلهجان بمناجاة الله، وقلبه يخفق بشدة، ساعة..ويكون حراً. لقد انتهت الأزمة أخيراً على خير! بدأ يفكر بطريقة الوصول إلى البيت: سيفاجئ شام، ستعانقه، تشمّ رائحته، وستبكي على صدره، فرحاً بعودته. وسلام ستكون إلى جانبها، تقفان في ردهة البيت، أمام باب المطبخ، أو على الشرفة، فيكتشفان عودته بالسيارة..قرر في نفسه أن يفاجئهما، سيذهب للبيت عبر طريق آخر، وسيترك السيارة بعيداً قليلاً. وأول شيء سيقوم به هو الإستحمام، ثم فنجان..بل اثنين من القهوة..

-لو أذهب إلى الأولاد في المدرسة أولاً..أفضل، سأستأذن لهما..وأعود بهما إلى البيت. قال لنفسه، وهو يغيّر خطة المفاجأة بعودته مفرَجاً عنه. تخيل طفليه يركضان إليه في باحة المدرسة، يقبلانه، يتعلقان به، يحملهما معاً إلى السيارة. وسوف يرد على عتاب الأولاد بأنه سيعوضهما عن كل دقيقة مرت به في الغياب.. وفيما هو

يتخيل، يحلم، يخطط، سارحاً بصورة العودة حراً، دخل الحارس، نظر إلى جاهزيته، وإلى أشيائه سأله:
-ما هذه؟
-حاجياتي.. ألبسة داخلية فقط.
هزّ رأسه وخرج ثم عاد بعد قليل:
-أنت جاهز؟
-نعم.
-من قال لك أن تجهز أشياءك؟
-لا أحد..أنا، من تلقاء نفسي!
- تعال معي، دع الأشياء، سنأخذها نحن، ضع العصبة على عينيك جيداً.
مضى به الحارس نحو السيارة، ركب اثنان عن يمينه ويساره، والحاج إلى جانب السائق، ورأسه بين ركبتيه. انطلقت به السيارة في طريق ترابي عدة أمتار، ثم يساراً في خط طويل متعرّج مرّة أخرى، شعر بتقاطع طريق عام، خففت فيه السرعة ..وبين انحراف نحو اليمين ثم اليسار، دخلت العربة طريقاً إسفلتياً وانطلقت بسرعة كبيرة، وبعد دقائق حررت عينيه:
- ارفع رأسك.
رفع رأسه، وشاهد المدينة، الطريق العام. وها هي السيارة تصعد به جسر المطار في اتجاه المدينة! ثم انحرفت يميناً نحو الطريق الدائري السريع.. كان يتوقع -بعد أن سمح له بمشاهدة الطريق- أن تتوقف به السيارة، في أية نقطة هنا، أو هناك، أن تسلّم له سيارته ومفاتيحه، وحقيبته، ويقولون له: تفضل.. مع السلامة! تزاحمت الأفكار والتصورات في ذهنه، عن الطريقة التي سوف يطلقون سراحه بها.
"لعلهم سيذهبون بي إلى البيت!" اقتربت السيارة من وسط المدينة، واستدارت صاعدة جسر القصور شمالاً نحو حديقة الحرية، وخلال دقيقتين، وجد نفسه أمام مبنى مجمع المحاكم، خففت السيارة من سرعتها ثم استعدت للإنحراف يساراً أمام باب المحكمة. أصيب بالدهشة والوجوم.. ملأت روحه كآبة وقد أدرك الفخ الذي اقتيد إليه.. إنها المحكمة، لكنه لم يصدق بعد ما آل إليه الوضع، مازال يعتقد أن ثمة إجراء أخير، لابد أن يكون هنا، من هذا المبنى المزدحم إذن سيطلقون سراحه.
توقفت السيارة تماماً، أمام محكمة الشعب (الاستثنائية)! نزل الجميع برفقتة دون قيود! صعد الدور الثاني ودخل الممر الطويل، خطى فوق السجاد الأحمر! هدوء تام في المكان لا أصوات، لا جلبة، ولا حتى زحام المحاكم المعروف، أُدخل ممراً ضيقاً قصيراً مغلقاً يتسع لمقعدين خشبيين طويلين. جلس ومرافقيه، بادره الحاج:
- تعرف اين انت الآن.

- في المحكمة.
-أريد ان أذكرك باتفاقنا.. لا تنس أن تزن كل كلمة تقولها هنا..وأن تؤكد إفادتك السابقة، التي وقّعت عليها.. انتبه، أي تغيير في الإفادة، سينسف كل شيء.. وأنت تتحمل بعد ذلك كل النتائج.
صمتَ قليلاً، أشعل سيجارة مع زميله، نظر إلى النافذة خلف عامر، وأضاف:
-إلى حدّ الآن، أنا ضمنتُ لك الأمور كما يجب، وأي خروج عن المحاضر، لن يكون في صالحك..ربما تلتقي بقنصل بلادك بعد قليل.

خرج اثنان ثم عادا بعد دقائق بفناجين القهوة، وبدأ الحديث معه ودياً لطيفاً، كأنه يجري بين أصدقاء، كان الجميع يتحدثون براحة تامة.. وهو يشاركهم الحديث عن السفر والمدن، عن المقاهي والنوادي والحانات، عن نساء الليل..
تذكر السجين والسجان معاً، مقهى ومطعم فواكه البحر في مرسى شلوك، وشواء السمك يوم الأحد على شاطئ البحر، وحانات السان جوليان في مالطا..مدن وأماكن أخرى تسكع في شوارعها، وعلى شواطئها. تذوق خمورها وتعرف إلى لياليها ونسائها: دمشق، مالطا، تونس، باريس.. ومدن أخرى تضجّ الحياة فيها بنبض المتعة والشّعر ورائحة التاريخ.
- كثيراً ما ذهبتَ إلى منتجع النقازة.. قال الحاج.
-إنه مكان رائع جداً تلتقي فيه تلال الغابات مع رمال البحر، أحببناه فارتدناه في كل الفصول.. حتى تحت المطر..
- سيارتك تساعد على الرحلات.. سيارة جميلة.
لم يعلّق، لاذ بالصمت وكذلك الآخرون، كان الحاج يخطو في الممر ذهاباً وإياباً، يدخن بشراهته المعهودة، وقف أمامه وسأله: ماذا لو أفرج عنك اليوم؟
- لكم عندي ما تطلبون.
- وليمة في غابة النقازة.. خروف كامل، مع صندوق ويسكي!
- كما تشاؤون .
- والسيارة؟
تلعثم، لم يفطن لما يرمي إليه الحاج.. لحظات بطيئة مرّت، اتخذ فيها قراره بسرعة، ودون تردد: خذوها..
تبادل الجميع الابتسامة العريضة معه، ابتسامة الرضى، أم ابتسامة الفخ تراها؟! ثم خرجوا، وقف مساعد الحاج في الباب ثم عاد ليجلس إلى جانبه ، وقبل أن يتبادلا الحديث أطلّ رجل برأسه عبر الباب، رمى تحيته وسأل:
- وحدك؟

- الجماعة في المقهى.
رجع بعد قليل صحبة الحاج ورفيقه، ألقى نظرة فاحصة على عامر، وخاطبهم:
- كيف تتركونه لوحده..لا قيود، لا حراسة..ثلاثة معه فقط! ما هذه الثقة الكبيرة؟
تساءل متهكماً، ألقى نظرة هازئة، وقال لهم وهو يخرج:
-على راحتكم.. هذه مسئوليتكم، خذوا حذركم.
عاد الثلاثة يتبادلون أطراف الحديث، ثم اختلفوا حول مصدر العربة الملكية لزفاف ابن الزعيم. لم يتدخل حتى سأله الحاج:
-هل رأيت العربة؟
-هدية ملكة بريطانيا..
-كيف عرفت؟
-العالم كله يعرف. قال بهدوء، وأضاف أن العربة قطعت المدينة من شرقها إلى غربها..والناس كلهم رأوها تقلّ العريسين من قصر الضيافة، إلى باب العزيزية، لم يكن الحدث سراً. انقطع الحديث بدخول ضابط شرطة، أشار بيده للدخول.
اقتيد نحو الممر الكبير، مشى على سجاده الأحمر، عبر بوابة زجاجية، ثم جهازاً آلياً للتفتيش، انعطف به الحاج نحو اليمين بضع خطوات، توقفوا جميعاً يحيطون به ، طرق بخفة على الباب. دخل عامر لوحده إلى الغرفة، وبقي عناصر المخابرات الثلاثة يقفون خلف الباب المغلق. رجل كبير السن، ستينيّ، داكن البشرة، هاديء ووقور. رحب به قائلاً:
-قهوتك..عربية أم نسكافة؟
قهوة وماء نقية، سؤال وجواب، وعامر يبلع الطعم شيئاً فشيئاً، لم يغيّر إفادته إلا في مسألة واحدة، نفى أن تكون لأيٍ من أصدقائه أية علاقة به كمصادر للمعلومات، أو متعاونين معه، أو متسترين عليه!
- أنت الآن سجين سياسي. نكفل لك جميع حقوقك: محامي، ومحاكمة عادلة. أنت متهم بالإضرار بمصالح البلاد، وإفشاء أسرار تتعلق بأمن الدولة..ماذا تقول؟!
-أبداً.. لا يمكن، هذا غير صحيح!
نظر المحقق إلى كاتبه وأملى عليه: "وبعد أن أخذت كافة أقواله دون إكراه.. تم توجيه الاتهامات المذكورة آنفاً إليه، فأنكر قيامه بذلك.. قفل المحضر بساعته وتاريخه..". ووسط دهشة عامر وخوفه، قال له : سنحاكمك بسرعة.
أطرق برأسه، لقد أصبح كل شيء أمامه واضحاً، وضوح الشمس تماماً.. لقد أحالته المخابرات إلى المحكمة الاستثنائية، وها هو يدخل النفق المظلم من جديد. أحس بالدم يتجمد في عروقة ووجهه صار يابساً. رفع رأسه، نظر إلى المحقق، ثم اتجه ببصره نحو النافذة، شبّه حالته هذه بـ: "جلمود صخرٍ حطّه السيلُ من علٍ "، تلبّسه الضيق

والتوتر والقلق، ودبّ فيه الرعب من المجهول.. صار جسده يرتجف. نهض المحقق من مكانه، فتح الباب، ونادى رجال المخابرات:
-خذوه للحمام.
ذهاباً وإياباً، لم يتوقف الحاج عن استجوابه، عما سأله المحقق، وبماذا أجاب. وحذره مرّة تلو الأخرى من تناقض أقواله. أو أن يشير إلى أي تعذيب تعرض له، وأمره أن يبادر بإبلاغ المحقق عن "المعاملة الطيبة، والحسنة جداً" التي يتلقاها عند المخابرات.
- سنسمح لك بالزيارات، والمحامي..تفضل بالاتصال بأسرتك.
حثّه المحقق على محادثة بيته، فعل.. لكنه لم يجد شام:
- بابا أين أنت؟
- في البحرين.. مسافر.
- لا تنسّ الهدايا.. متى تعود؟
- أيام.. أيام فقط.
نهض المحقق، إيذاناً بانتهاء التحقيق، طلب منه التوقيع على الأوراق الجديدة، ومدّ يده مصافحاً! تقدم رجال المخابرات من الباب، تسلموه ، صافحوا المحقق ثم تبادلوا الإشارات، والأوراق والملفات، وقبل أن يغادروا مبنى المحكمة، قدّم مكتب الاستعلامات للحاج مغلفاً مغلقاً. ومضت المجموعة تقتاده مرة أخرى إلى مبنى المخابرات.
في الطريق، فتح الحاج المغلف، وتفحص محتوياته، كان عامر قد طأطأ رأسه.. لكنه بدافع القهر، حاول اكتشاف سرّ الأوراق بطرف خفي من عينه، كان الحاج يجلس إلى يمينه هذه المرّةَ.
-تمام؟
-تمام..
-ماذا؟
-خمس وأربعون.
سمع هذا الحوار القصير الغامض بين الحاج وأحد مساعديه.. لكنه الآن تعلّم الدرس الأول، وعرف أن المحقق قد جدّد حبسه شهراً ونصف، وأنه قدّم للمخابرات أوامر إلقاء قبض، وأوامر تفتيش مفتوحة.. فقط: ضع الاسم المطلوب، في الفراغ الموجود، وافعل ما تريد! خلال ساعتين، مع فنجان من القهوة.. انتهى الأمر! صارعلى يقين تام بأن كل شيء كان جاهزاً، معدّاً مسبقاً.. بما في ذلك الحكم عليه، قبل أن تبدأ المحاكمة!

17

مرّت ثلاثة أيام أُخر، لم ير فيها أحداً سوى حراسه. وبعد الظهيرة دخل عليه الحاج يرتدي بذلة رياضية، دار في الزنزانة، فتح النافذة، قال له ألاّ يقترب من النافذة إذا أرادها أن تبقى مفتوحة حتى المساء، وأنه الضابط المناوب لهذه الليلة. كانت الكآبة تلفّ المكان، وهو في حالة شديدة من الضيق والكرب، فقد أُهمل تماماً بعد عودته من المحكمة، فلم يعد يلتقي به أحد.. وصار يعامل كأي معتقل آخر مع العزل الشديد، ولم يكن قادراً حتى على مجاراة الحاج بالحديث، كما في المرات السابقة.

- المحكمة مددت لك خمس وأربعون يوماً

- والترحيل؟

- المحكمة هي تقرّر ذلك..

هزّ رأسه، وازداد توتره، وأخذت أصابعه ترتجف، وهو يتحقق الآن من أن الحفرة التي وقع فيها، لا قرار لها..

- أريد الاتصال بأسرتي.

- هذا غير ممكن، دون إذن المحكمة، أنت الآن مجرد ضيف لدينا.

- قال إن حقوقي محفوظة بالزيارات.. سمح لي بذلك.

- بالنسبة لأولادك وزوجتك، هم جميعاً بخير..تريد شيئاً؟

- أريد صابون.. والحمامات، هناك مشكلة، أحياناً يتأخرون في فتح الباب.

- يجب أن تعتاد على ذلك، لا تنس أن معاملتك خاصة، غيرك لا يخرج إلى الحمام.. إنهم يتبولون في القناني.

صعق وهو يسمع هذا الكلام، لم يصدق ما يقوله الحاج، كان شاقاً عليه التصور أنه يتبول هنا، في القنينة!

- من الآن حتى المساء، أريدك أن تكتب لي حول رأيك بالجمعيات الأهلية، ودورها في المجتمع، وعن علاقتك أنت، وتجربتك.. ما شاء الله، أنت عضو مؤسس في كثير منها! سأرسل لك ورقاً بعد قليل.

مرّ المساء هادئاً، أنعشته نسمات الربيع المعطرة برائحة الشجر، ملأ عينيه برؤية النجوم والقمر دون أن يقترب من النافذة، تغيرت رائحة الزنزانة، ومع مرور الوقت أصبحت باردة، بعد أن أرخى الليل سدوله، وعم الظلام. في تلك الليلة المقمرة لم تهدأ

روحه القلقة، رغم كلمات الحاج التي طمأنته عن الأسرة، لكن كلماته الأخرى أدمت قلبه أكثر، يكاد يختنق تحت وطأة القهر.. أمضى بقية المساء منشغلاً بالكتابة عن منظمات المجتمع المدني، إلى أن دخل عليه بعد وجبة العشاء، أخذ الأوراق، أغلق النافذة وعندما همّ بالخروج، استوقفه :

- أريد مقابلة الشيخ..

أدهشه..لم يتوقع طلباً كهذا منه، فالشيخ هو رئيس جهاز الاستخبارات!

- ماذا تريد منه.

- لديّ ما أقوله له.

لم يتحقق الطلب، وبعد أيام أخرى، سأله اسماعيل مساعد الحاج، عما يريده من الشيخ، وإن كان يعرفه.

-التقينا قبل أعوام، في خيمة الزعيم.

كانت تلك الكلمات بمثابة الصدمة، لاحظ مدى الإستغراب الذي ارتسم على وجه اسماعيل، هذه المرة اكتفى هو بهزّ رأسه، ثم انسحب بهدوء من الزنزانة.

كل صباح يسرع إلى القلم، ويرسم على الحائط خطاً جديداً.. وإلى أن يفتح الباب يقوم بالدوران حول نفسه، ويجري بعض التمارين الرياضية الخفيفة، يتناول إفطاره ثم يتمدد على الفراش، يقضي النهار والليل قلقاً، منكفئاً على نفسه، تسليته الوحيدة مراقبة الساحة، اتفق مع العم إبراهيم أن يوقظه لصلاة الفجر، وكلما حاول محادثة السجناء الآخرين، فشل..لا أحد يرد عليه، في إحدى المرات لاحظ توجه ماجد العراقي من الساحة إلى الزنازين، ركض نحو الباب، وأخذ يناديه ويطلب الصابون، لكنه لم يجبه، ولم يرمِ له حتى بقطعة صابون!

اليوم التالي، جاء دوره في الاستحمام، نظر إلى المغسلة فوجد قطعاً صغيرة من الصابون، وعلبة مسحوق فيها بقايا عالقة على الورق، أسرع يمسحها بكفه، ويصب عليها بضع قطرات من الماء لتشكل رغوة، يمسح بها يديه ووجهه وجسده، كانت فرحته كبيرة.. إنها المرة الأولى التي يشمّ فيها رائحة نظافة. توسل للحارس:

-أريد صابون.

-في المرة القادمة، سأتدبر الأمر.

-من أين يأتي به الآخرون؟

-يشترون من الدكان.

لم يعد يملك فلساً واحداً، كل ما كان معه سلمه منذ الساعة الأولى للإعتقال.

-سأختمر بأوساخي..

قال في نفسه، وهو يشاهد المعتقلين الآخرين يخرجون رتلاً واحداً نحو الساحة، منذ الصباح، وعلى مدار أربعة أيام كانت تأتي شاحنات كبيرة تقف وسط الساحة، ويقوم

المعتقلين بإفراغ حمولتها من مواد مختلفة مستخدمة: أبواب حديد، نوافذ، قضبان وألواح ألمنيوم، أخشاب، قضبان حديدية ضخمة، ألواح زجاجية، وأشياء أخرى كثيرة، ويمضون بها لمسافة تزيد عن عشرين متراً، حيث يجري تخزينها في مستودعات كبيرة مفتوحة على الهواء الطلق، ومسقوفة بألواح التوتياء، كان الإجهاد والإعياء واضحاً على ملامح هؤلاء المعذبين، الذين لا يسمح لهم بالتقاط أنفاسهم إلا في الفترة الفاصلة بين إفراغ حمولة ، ووصول عربة أخرى جديدة. كان ذلك لوحده صورة من صور العذاب اليومي، والأشغال الشاقة التي تنزل بهم طوال اليوم، إضافة إلى أعمال التنظيف الأخرى، مع الكمية المتواضعة والقليلة من الطعام، التي لا تسدّ الرمق!

عند الظهيرة وصلت سيارة الطعام، وقبل أن يتم توزيعه، وقف الضابط المناوب وأمر المشرف بالتقاط كافة قطع اللحم الموجود، في آنية خاصة، ثم وزع الطعام بدون لحم! العملية تكررت كل يوم، وهو يتابع ذلك بوضوح من شق النافذة، يشمّ رائحة اللحم، ويراه يمشي بعيداً نحو بطون الضباط ومساعديهم: دجاج، لحم خروف، لحم بقر، جمل.. يحرم منها المعتقلين جميعاً، ولم يصدف أن وجد حتى ولو قطعة صغيرة، سقطت سهواً في طعامه!

تلك الليلة، ما أن أغمض عينيه، واستسلم جسده للراحة، قرابة منتصف الليل.. حتى علا الصراخ والشتائم والضجيج داخل الممر، تحرك من مكانه بتثاقل، سحب قطعة السجاد التي يغلق بها أسفل الباب، انبطح على بطنه ورمى بصره خارج الزنزانة، لم يشاهد سوى أقداماً تروح وتجيء، أصاخ السمع فكان الصوت يأتي من الداخل، لابد أن أحدهم الآن معلق على الباب الحديدي، وبدأت تتضح الحكاية مع مرور الوقت، وهو يتابع الأصوات المختلفة، محاولاً فهم ما يجري.

كانوا يضربون أحدهم، ويطلبون منه أن يفتح فمه ويتكلم، أما هو فكان يرد على ضرباتهم بالصراخ والعويل، كان الرجل يبكي بكاء شديداً.

- ستظل معلقاً حتى تتكلم.
- ما عندي شيء.
- الكلام الذي كنت تقوله في الورشة.
- والله لم أقل شيئاً يا سيدي.. لم أفتح فمي بشيء.
- الكلام الذي قلته وصلنا حرفياً.

استمر الضرب، والسباب والكلام البذيء ينهال على الرجل لوقت طويل. وبدلاً من النحيب والعويل، أخذ يتأوه، وبين الفينة والأخرى يصيح بأعلى صوته:

- مظلوم.. مظلووووم..

كان الجلادون يتناوبون عليه، وكلما خرج أحدهم دخل بدلاً عنه اثنان أو ثلاثة.
الضجيج يملأ المكان، بصورة مزعجة ومقلقة تماماً، إلى أن نهض، وأشعل الضوء، فجاءه الصوت قوياً وآمراً وسريعاً من الخارج:
- اطفئ النور.
عمّ الظلام الزنزانة، أعاد إغلاق أسفل الباب، ثم اقترب بحذر من شق النافذة، رأى أحمد الجزائري مرمياً على الأرض، متكوماً على نفسه وهو يدرأ عن رأسه ووجهه الضربات السريعة التي تنهال عليه بلا هوادة بالعصيّ والأرجل، سكبوا الماء فوقه، ثم أمروه بخلع ثيابه، بقي في سرواله الداخلي، واقفاً في مكانه وهو يتحدث بكلام لم يفهمه، كانت المسافة بعيدة لا تسمح بوصول صوت الجزائري إليه بوضوح، قيدت يديه الى الخلف وأجلس على ركبتيه، ثم قيدت قدميه ووصلتا بمربط واحد مع اليدين، ثم طلبوا منه أن يدور في الساحة إلى أن يقرر الإعتراف.
سرى النعاس من جديد في جفنيه، وشعر بالبرد يداهم جسده، فتوقف عن مشاهدة الحفلة الليلية لتعذيب أحمد الجزائري، فانسحب بهدوءٍ وصمت وحزن نحو فراشه، وخلد إلى النوم.
صباحاً رأى الجميع يواصلون تفريغ الشاحنات، أما أحمد الجزائري فكان يمشي الهوينا على غير هدى! ثيابه مهملة أشبه بلباس رثّ لمشرد بلا مأوى، منكوش الشعر، حافي القدمين، يضع قماشاً فوق رأسه، ويهذي بكلمات غير مفهومة، لا يرد على أحد من محدثيه، أو معترضيه، يجلس حيثما يشاء، يمدد رجليه، أو يستلقي على ظهره ويحاكي السماء بإشارات غامضة ليديه وأصابعه.. صار يشاهده على هذه الحالة كل يوم، لكنه لم يسمع أي تعليق عن حالته المؤسفة، من أي معتقل حوله، ولم يعد يسمع صوته، أو يشاهده يعذّب بعد ذلك.
بعد ستة أيام من تلك الحادثة المحزنة لأحمد الجزائري، دخل الحارس ومعه كرسي، وآلة حلاقة كهربائية، أمره بالجلوس، وحلق ذقنه ورتب له شاربيه، وصفف شعر رأسه، كانت آلة الحلاقة الكهربائية قد أتت على جزء كبير من شاربيه، فتغير شكله ، صار شخصاً آخر ناعم الشاربين، ذو ذقن خفيفة، وشعر قصير! استحم على عجل، كالعادة، ثم ارتدى ثيابه، واقتيد إلى المحكمة.
رحب به المحقق، كما في المرة السابقة، قدم القهوة العربية، وسمح له باستعمال الهاتف ثلاثة مرات، وطلب منه التعرف إلى جملة من الأوراق:
- هذه الأوراق لك..وهذا خطك؟
- نعم.
- وقّع هنا..إذن.

الأوراق هي ذاتها، مجموعة من الدراسات والمقالات التي صادرتها المخابرات أثناء تفتيش البيت، سبق وأن عرضت عليه أثناء التحقيق، وطلب منه أن يثبت توقيعه عليها.. وفعل!

- هل تتعرض للإزعاج، أو..

سأله المحقق، وهو يحاول أن يقرأ الجواب من عينيه، عما إذا تعرض لمضايقتهم في شيء. تمنى أن يبوح له بكل ما جرى له منذ البداية، وكذلك ما يجري لغيره كل يوم، لكنه خائف ومرعوب.. وهو مازال في يد المخابرات، أن يذيقوه.. ما لم يتذوق طعمه من قبل، كانت صورة أحمد الجزائري هائماً مشرداً.. ربما مخبولاً أيضاً.. ماثلة في ذهنه.

في طريق العودة، حفّز حاسته السادسة، وأيقظ حواسه الأخرى، كي يرسم في مخيلته المنطقة التي يحتجز فيها.. سعى إلى ذلك بكل ما له من فراسة البدوي، ولهفة الفضولي، وألم الطائر الجريح، يسجل في ذهنه اتجاه السيارة وانحرافاتها يميناً وشمالاً.. وهي تغادر المدينة غرباً باتجاه طريق المطار، خففت سرعتها وتوقفت عند آخر إشارة للمرور، ثم انطلقت بسرعة عالية، تشق طريقها بين العربات الأخرى،كأنها تسابق الريح، فجأة.. حدث اصطدام كبير بين السيارات المتسارعة على الطريق الواسع، رفع رأسه لاشعورياً، ولم تلبث أن أصبحت السيارة محصورة في الوسط ، ثم ضربتها سيارة من الخلف، فاهتزت في مكانها وتكسّر زجاجها الخلفي، تناثر في الداخل، فوقه، ومرافقيه.. وعلى الفور نزل ثلاثة أحاطوا بالسيارة وهم يشهرون بنادقهم الرشاشة، فيما بقي الرابع إلى جانبه يطلب إمداداً عاجلاً لفتح الطريق، وسيارة جديدة، عبر الراديو. وخلال دقائق وُضع كيس قماشي فوق رأسه ، ودفع إلى سيارة مجاورة.. غادرت المكان، بسرعة فائقة مرّة أخرى، وسط صمت تام من عناصر المخابرات.

بعد العشاء أطفأ النور، استسلم لفيض الذكريات، ثم وجد نفسه يرفع عقيرته بأغنية قديمة، لم تخطر له من قبل:

" سجان شيل الشبك

لشوف حبابي

وان ما صار..

لشق ثيابي..".

18

لم يصب بأذى يذكر جرّاء الحادث، سوى جرح سطحي خلف أذنه اليمنى. لكنه أفاق صباح اليوم التالي وجسده متعب ومنهك من أثر الحادثة النفسي عليه، والهلع الذي انتابه لحظة الاصطدام المريع. كان الموت يدقّ الباب عليه، فكتب له عمراً جديداً.
لكن ذلك لم يزده إلاّ قلقاً وإحباطاً، بل وتشاؤماً مما يجري حوله، ضدّه وعليه من قِبل المخابرات. لقد أصبح موقناً كل اليقين أنهم ضربوا بوعودهم له عرض الحائط..وبعد أن انتهوا من أمره، تركوه مرمياً في الزنزانة ليواجه المصير الذي ترسمه له محكمة الشعب، ذات السمعة المشينة والمخيفة!
كان يعرف طبيعة المحكمة، خطورتها، وطريقة عملها، كتب مراراً عن ذلك، هي مجرد هيئة شكلية تجري محاكمات صورية للمعتقلين السياسيين، وتصدر أحكاماً تتلقاها من جهات أخرى (الأمن واللجان الثورية) عبر الهاتف، أو ورقة صغيرة يثبت فيها نوع الحكم، توضع أعلى الملف، عند الإحالة للمحكمة.
ما إن قال المحقق "سنحاكمك بسرعة" لم يتأخر بالتعليق بأن الحكم جاهز. تجاهله المحقق، لكن خيوط المؤامرة تتجمع عليه من حوله، ويقاد كالخروف إلى مصيره المجهول..
في اليوم الثلاثين لاعتقاله، دخل عليه اسماعيل باسماً متهللاً ونقل إليه البشارة:
- جهز نفسك..اليوم زيارة
ترك له الباب مفتوحاً، استحم، غسل أسنانه جيداً، ارتدى ملابس نظيفة، مشط شعره، ومسح ذقنه الطويلة، جلس ينتظر. الوقت يمضي بطيئاً، وطويلاً فيما ينتابه شعور بالخوف من إلغاء الزيارة، وقد اقترب الوقت من الظهيرة. فتح الباب، وأطلّ منه الحاج يتفقد جاهزيته:
- ستكون زيارة مميزة..ستأخذ راحتك في قاعة جيدة ولائقة، إنما عليك أن تكون متماسكاً، وإياك أن تبدي ضعفاً.. أو ضيقاً.
وضعت العصبة على عينيه مرة جديدة، منذ انتهاء التحقيق قبل سبعة وعشرين يوما، واقتيد في الممر ذاته فوق الحصى، نحو العربة وطوال الطريق كان رأسه بين ركبتيه، كانت السيارة تمضي بسرعة في طريق طويل.. طويل يكاد لا ينتهي، ويمر وقت يبعث على القلق والملل، لم يستطع أن يفهم أو يعرف إلى أين يمضون به

للزيارة، ظل صامتاً كالآخرين إلى أن أحس بانخفاض في السرعة، ودوران شبه كامل ثم إبطاء أشدّ مع قطع واضح للطريق، مشت السيارة مجدداً بضعة أمتار ثم توقفت وأطلقت المنبه مرتين، فتحت بوابة، دخلت وانطلقت نحو اليمين على طريق داخلي اسفلتي ثم توقفت عن بوابة ثانية، دار خلالها حديث خافت مع السائق استمر لدقائق، قبل أن يسمح للسيارة بالعبور مرّة أخرى، ومواصلة المسير حتى توقفت تماماً، أمام مبنى صغير من طابقين، يشبه بناء مدرسة ابتدائية صغيرة، في ظل هدوء كامل يحيط بالمكان.

أُدخل غرفة في آخر الجناح الشمالي، تشبه تماماً زنزانته، لكنها أوسع قليلاً، تضم سريراً عسكرياً، طاولة وكرسيان، مكيف هواء، ومكتبة صغيرة، تفحص بعينيه المكان، قلبه يدقّ، واجمٌ وقلق، لكنه مشتاق.

خلف الطاولة يجلس رجل أشيب، ستيني.. تجاذب أطراف الحديث معه عن الطقس، وأحواله، عن مشيئة الله والأقدار.. كان باسماً، طيب المعشر، أدخل الاطمئنان والراحة إلى قلبه.

- جاهز؟

قال الحاج وأشار له بإصبعه محذراً ومنبهاً، وهو في الباب، نهض من كرسيه..

لحظات، وشاهد شام وهي تتقدم عبر الممر نحوه، تركها تدخل، ظل واقفاً وسط الغرفة، وما أن دخلت حتى التصقا يتعانقان بشوقٍ كبير، أحس بجهشتها تهز كتفه، تماسك، ربّت بكفه على ظهرها ثم أبعد جسدها عنه، وأخذ يمسح دموعها، ويقبّل عينيها بشفتيه.. أمسك بكفيها، ضغط عليهما مهدئاً..وقادها لتجلس إلى جانبه على الكرسي، لم تكن شام قادرة على الكلام، وفي عينيها تتوالد الأسئلة، أخيراً خرجت الكلمات:

-لماذا؟

لم يجب، كان الحاج يقف أمامهما مباشرة، خلف الطاولة، ونظراته تنتقل بينهما، وبين النافذة.

-كيف الأولاد، وصحتك أنت؟

-كلنا بخير.. المهم أنت.

-أنا جيد.. كما ترين.

-ذقنك طويلة.. لماذا تهمل نفسك؟

تلعثم وهو يهمّ بالإجابة، خاف أن تدرك حقيقة الحياة في المعتقل، فإن كان التبول في القنينة، فهل حلاقة الذقن ممكنة! نظرت شام نحو الحاج، وقالت له:

-لِمَ ذقنه هكذا؟ اسمع.. لا تتركوه يهمل نفسه!

خاف أن تكون لكلمات شام ردّة عنيفة من الحاج، تقلب الأمور رأساً على عقب.. لكنه لم يجب، بل انسحب من الغرفة بهدوء:
- خذا راحتكما..
ما أن خرج، حتى بدأ يهمس في أذنها بضع كلمات وتوصيات، لكن السؤال الأهم الذي طرحه، كان غريباً على شام:
- ياسر عرفات..ماذا حلّ به؟
- ما يزال تحت الحصار!
- والوضع؟
- مذبحة بشعة في جنين.
أغمض عينيه مستنكراً، متصوراً هول الجريمة، صور الضحايا، أشلاءهم، ودماءهم التي تختلط بالتراب والبارود..
نظرت إليه بعينيها الحزينتين، تتأمله تحت تأثير المصيبة التي حلت بها وبأولادها، كانت أشبه بروح ضائعة لا تصدق حتى الآن ما يري، ولا تعرف إلى أين تمضي بها الأيام. قالت هامسة:
- عذبوك ..
- أبداً. لا تخشي شيئاً، أنا بخير..وسأكون كذلك، مهما يحدث.
لم تتجاوز الزيارة عشرين دقيقة، أشار الحاج لهما، نهضا استعداداً للمغادرة.
- خذ هذا دعاء، إقرأه كل يوم.
قبّل يديها، رأسها وعينيها، ضمها إلى جسده، همس لها ببضع كلمات بعيداً عن أعين وآذان الحاج، ثم غادرت، تتبع عيناه خطواتها، ويدها التي لوحت له مودّعة، عاد إلى كرسيه، وبعد دقائق أقتيد نحو السيارة، استوقفه الرجل المسن مودعاً، وسأله:
- من أي عرب الشام أنت؟
نقل نظراته بين الرجل والحاج، تمهل قبل أن يجيب:
- أنا من تونس..تونسي ياعمّ..
أخفض رأسه ليداري كذبته وقهره، ومضى في طريقه، وبعد أن أعيد إلى زنزانته قدم له الحاج كيساً، جاءت به شام، وطلب منه الورقة التي أعطته إياها:
- نقرأها ونعيدها لك:
قدّمها له واستلم الكيس، أقفل الباب عليه، فبادر من فوره يتعرف إلى محتوياته . قليلاً من الملابس الداخلية، مواد تنظيف كاملة: صابون وشامبو، وليفة للحمام، فواكه وخيار، كانت حاجته للخضار أكثر من أي شيء آخر، أما رائحة التفاح فقد ملأت المكان برائحة عطرة زكية.

كان الحراس يذهبون ويأتون، ويبدون تفاخرهم بتلك الرائحة الطيبة، وربما بوجود معتقل بين أيديهم، تفوح من زنزانته رائحة التفاح:
- آاا.. الجو طيب عندك.
قدّم له تفاحة، تمنّع بداية، ثم أخذها شاكراً، وهكذا تكرر الأمر مع الحارسين الآخرين، في اليومين التاليين. أحس بالخجل من رائحة التفاح النفاذة، تمنى لو أنه يوزع على المعتقلين الآخرين، ما يتذوقون به طعم الفاكهة، لكن ذلك كان ممنوعاً عليه، وممنوع عليهم أن يقفوا ببابه، أو أن يحدثوه.
تلك الليلة كتب أولى قصائده في المعتقل، قرأها بصوتٍ عالٍ مرات عدة، غناها بلحن حزين.. ظل يردد كلماتها حتى بكى، وصاح من القهر.. ثم هدأ. نهنه ونام يحتضن القصيدة، ويحلم بالحرية!
في الزيارة الثانية، بدت شام أكثر صلابة، وأشد تماسكاً، وأكثر جرأة على طرح الأسئلة، دون خوف أو توتر. لم يرافقه الحاج هذه المرّة، لكنه أرسل تلك الفتاة التي رافقتهم في حملة التفتيش إلى البيت ظهيرة الإعتقال.. ظلت جالسة خلف الطاولة أمامهما، تضع حقيبة اليد فوق الطاولة، وترمي بصرها بعيداً عبر النافذة.
- سيعيدون لكِ السيارة.
- ليأخذوها.. ويعيدوك أنتَ..أريد ان تعود لي ولأطفالك.
- سأعود قريباً..
في الخميس الثالث، وقد مرّ على اعتقاله خمسة وأربعون يوماً تماماً، قفز من مكانه نحو النافذة، على صوت مفتاح عجلات السيارة، تلصص عبر الشقّ، كانت سيارته التي بقيت رابضة تحت نافذته، قد سُحبت إلى وسط الساحة حيث يتم استبدال العجلة،راقب المشهد، حتى أصبحت جاهزة. ركب الحاج وفي يده مغلفاً كبيراً إلى جانب السائق، ثم انطلقت به دائرة يساراً نحو الخلف وغادرت. كان يتوقع أصطحابه للزيارة. مضى الوقت دون أن يأتيه أحد، انتصف النهار ولازال ينتظر..
بقي في ضيافة المخابرات، يومين آخرين. صباح السبت دخل عليه الحاج وأخبره أن يستعد غداً لتحويله إلى السجن المدني، بعد موافقة المحكمة على ذلك، أعطاه ورقة وأمره أن يسجل أسماء المحامين الذين كلفتهم زوجته للدفاع عنه، وعناوين مكاتبهم، وسكنهم.
-اثنان أعرفهم، أما الثالث فلا أذكر اسمه.
-نحن نعرفه..اسمع هذا كله زائد.. خسارة أموال فقط، المحامون لن ينفعوك..
في اليوم الثاني حلق له الحارس ذقنه، وشعر رأسه، استحمّ، رتب أشياءه وملابسه، وما أن صارت السيارة على الطريق العام سمح له الحاج أن يرفع رأسه، ويتصرف كأنه راكب عادي في سيارة عادية، مضت به نحو الطريق السريع، وهي تشق

المدينة من غربها إلى شرقها، باتجاه السجن المدني. كان عامر يملأ عينيه بالمناظر التي تعبر به: الشجر، والأبنية، يحاول أن يتعرف إلى أحد ما، من ركاب السيارات الأخرى التي تعبر به في الطريق، دون جدوى، عبرت السيارة البوابة الرئيسية للسجن المدني، وتوقفت إلى يسار الطريق الداخلي.

كان المكان شبه خالٍ، وعامر يستطلع المكان بعينيه، قرأ اليافطة التي تحمل اسم السجن المركزي (الجديدة الرئيسي)، ولوحة أخرى صغيرة: الزيارات، وتحتها كُتب بخطٍ صغير: الزيارات كافة أيام الأسبوع، ما عدا الجمعة!

- هذا جيد.

قال في نفسه، وهو يمنّيها بزيارات أخرى متكررة لشام، رأى أحدهم يدفع عربة كبيرة أمامه، فوقها عدد من الأواني الكبيرة للطعام.. وبعد قرابة ساعة قضاها في الإنتظار داخل السيارة، شاهد الشخص نفسه يعود بالعربة، دقق النظر فيها وهي تمرّ بقربه، كانت حوافها عامرة بالأوساخ، وبقايا الطعام، والذباب يرافقها. عاد الجميع إلى السيارة، أدار السائق المحرك، وقفلوا عائدين.

- متى نرجع؟

- قبل الساعة السادسة مساءً.

رفع الحاج جهاز المخابرة وقال لمحدثه:

- جهز رسالة إحالة، فوراً.

كان يجري كل شيء عادياً أمامه ، قالوا له أن حالة السجن جيدة، وسيكون الأفضل له بالنسبة للزيارات، وسيء بالنسبة للإقامة والأكل.

لم يُودع الزنزانة هذه المرة، بانتظار العودة عصراً إلى السجن، أُدخل إلى صالة رحبة، مفروشة بالمقاعد الوثيرة، قيدت يديه، وجلس في الانتظار. لم يكن هناك شيء يراه على الإطلاق. سوى الحشرات الزاحفة تطير من حوله، وتمشي على المقاعد، وتسكن زواياها الدافئة. قدموا له طعام الغذاء، تناوله مقيداً، شرب الشاي، تمدد قليلاً، وعندما حان موعد المغادرة، كانت المهمة قد أوكلت للطاقم المناوب.

بحث الحارس عن مفتاح القيد فلم يجده، ها هي معضلة جديدة تواجههم، جربّوا كل المفاتيح الموجودة لديهم، ولم تفلح في فك القيد.. حاولوا خلعه بالمطرقة، وأدوات حادة أخرى، تجمّع العناصر من حوله.. بلا فائدة.. ظل القيد في يديه. كان صامتاً لا يبدي أي قلق أو تبرم أو مشورة، كان مسروراً بما حدث من إرباك لهم، بل إن ذلك جعله سعيداً، تضجّ روحه حيوية، ويتقد ذهنه بالأفكار حول حكاية سيتذكرها ذات يوم بسخرية وفكاهة!

أخيراً، جلب أحد الحراس مشبك ورق، مدده طولياً، وثنى رأسه كمسمار أو كرأس مفتاح، وأخذ يحاول.. مرّة، اثنتان، وانفتح القيد.. وتنهد الجميع الصعداء.

اقتربت الساعة من الخامسة والنصف، فانطلقت به السيارة على عجل، ولم يسمح له هذه المرة، إطلاقاً بأن يرفع رأسه، وظل القيد الجديد في يديه، حتى تمت إجراءات التسليم للسجن المركزي.

- اسمك، وسنك، وعنوانك.
- عامرعبد الله، اثنان وأربعون عاماً، شارع الإمام مالك، حي الظهرة.
- ابصم هنا.
وضع بصمات أصابعه العشرة بالحبر الأزرق، في السجل المفتوح، حذاء اسمه، أمام الشرطي الذي لم يرفع بصره عنه، ثم اقتاده إلى زاوية مشمسة، وضع رقماً معدنياً على صدره، والتقط له صورة أمامية، ثم أعاد وضع الرقم على كتفه وصورة جانبية من اليسار.. وثالثة من اليمين! أمسك الشرطي بساعده، واجتاز البوابة الكبيرة، ودفعه إلى الداخل عبر باب صغير.
تلقفته الأيدي والأعين من شرطي إلى آخر، وهو يقف في الركن الداخلي لممر يؤدي إلى بعض المكاتب، رمقه الموظف الذي استلم ملفه وأخذ يدوّن المعلومات الأساسية فيه، دون أن ينبس ببنت شفه، ثم قدم له بطاقة صغيرة زهرية اللون مختومة، وأمره بالحفاظ عليها جيداً، "من الضياع أو التلف مهما كانت الظروف" وقبل أن يضعها في جيبه قرأ ما فيها:
- " القضية: إدعاء شعبي.
رقم النزيل: 185852.
الإيواء: القسم الخامس ".
دخل عامر عالماً آخر جديداً، صار رقماً مسلوب الإرادة والحرية، مع غروب شمس الأحد!

الجزء الثاني

1

عند البوابة الداخلية الأخيرة المؤدية إلى الساحة الرئيسية للسجن، استوقفه الضابط المناوب، كان الشرطي قد أمره بوضع أغراضه جانباً للبدء في تفتيشه، سأله إن كان الجديد، ودون ان ينتظر جوابه طلب أن يلحق به.
تغير موقف الشرطي الفظّ، وصار ليناً معه، اقتاده بلطف عائداً به إلى غرفة الإدارة، ألقى النقيب نظرة على ملف الدخول، ثم أعاده إلى الموظف:
- كاتب وصحفي..أين كنت من قبل؟
-عند المخابرات.
تدّخل الموظف وقال بفظاظة:
-إضرار بمصالح البلاد .سكت لحظة، ثم سأل: ما الذي فعلته؟
نهره الضابط محذراً بعصا الخيزران التي هوى بها أمامه على الطاولة، والتفت إلى عامر يتفحصه من فوق إلى تحت، يتعرف إلى شكله، وهذا الهدوء الذي يخفي خلفه ناراً تضطرم في أضلاعه. انتابت عينيه حرارة، فأدار وجهه نحو الحائط. تقدم الضابط منه:
-إجلس.. استرح.
- نفتشه سيدي؟
قال الموظف بعدائية ونهض من مكانه باتجاه الباب منادياً على أحد رجال الشرطة.
-اتركه.
أمر الضابط وعاد يسأل الموظف، بعد توقيعه على بطاقة الإيداع:
- لماذا الخامس؟ ضعه في السابع.
في الاثناء دخل شاب بدين، قدّم لعامر كأساً من الماء، هدّأ من روعه، بعبارات الصبر، والقدر المكتوب للإنسان، ومضى برفقته خلف الضابط، وما إن دخل الساحة العامة، حتى سمع تهليلاً وترحيباً من بعض السجناء، وهم ينادون الضابط:
- هاته عندنا..!
الساحة كبيرة، مترامية الأطراف، وهو ما يزال في أولها، ومن حوله أبواب مغلقة، وحبال شائكة فوق الجدران الداخلية، وأكوام القمامة تملأ الزاوية المقابلة له تماماً.
أشار له النقيب نحو باب القسم السابع، فاوصاه الشاب البدين:

-اذهب إلى الغرفة رقم اربعة، وأسأل عن مصباح.
دخل بصعوبة، يشق طريقه وسط السجناء المتزاحمين عند الباب، تجمع حوله نفر يرحبون به ويسألون عن جنسيته وقضيته وهم يقودونه نحو الحجرة الرابعة:
- قتل؟
- مخدرات؟
كان يجيب بالنفي، ولا يعرف ماذا يفعل، وسط هذا العالم السفلي الذي صار عالمه!
أشار أحدهم إلى مصباح في الزاوية الجنوبية الغربية من الغرفة. خلع حذاءه ودخل:
- ارسلني إليك واحد، لا أعرف اسمه.
- كيف شكله؟
- بدين، يرتدي بذلة عربية زرقاء.. من الإدارة.
- عمار.. هذا ابن خالتي.
جلسا صامتين، كان قلقاً، خائفاً، مرتجفاً.يخشى على نفسه من هؤلاء الناس الذين أصبحوا يحيطون به من كل جانب. بل إنه أضحى واحداً من المجرمين أمثالهم! في البدء كان خائفاً من إحالته إلى السجن العسكري حيث جرت المذبحة، فضّل البقاء عند المخابرات، لكنه الآن وسط شريحة منبوذة، كما ينظر إليها المجتمع.
قدم له مصباح كأساً من الشاي، بدا هادئاً دمثاً ونظيفاً، كان شاباً يانعاً في مقتبل العمر، أشاع سلوكه الحميد هدوءاً وطمأنينة في نفسه، وخلال دقائق تعارفا. كان مصباح محكوماً بالسجن عشر سنوات من محكمة الشعب بما عرف بقضية الشغب، حيث تصدى وأقاربه لإجراءات الدولة الظالمة، في التفتيش على ممتلكات الناس وأشغالهم ومواردهم، بذريعة محاربة الفساد..فيما عُرف بلجان التطهير. كانت تلك الإجراءات أشبه بمحاكم التفتيش..فثاروا عليها!
-كان عمري آنذاك ثمانية عشر عاماً تماماً.. أنتظر نتائج الثانوية العامة.
دمعت عيناه وهو يروي ما حدث بحزن وألم شديدين، وكيف أن الحكومة جعلت منهم عبرة لقهر الآخرين، لفقت الإتهام، وحكمت المجموعة بالسجن المؤبد، ثم خفّض إلى عشر سنوات.
-يريدون القضاء على مستقبلي..ومستقبل الشباب. تلك هي غايتهم، عندما يلحق بهم الفشل، ويصابون بالعجز.
صمت قليلاً، وهو يبتلع ريقه، ويتغلب على العبرة التي تخنقه، وأشار بإصبعه نحو ندبة طويلة في رقبته: هذه من آثار التعذيب.غطى وجهه بكفيه، وأطلق تنهيدة طويلة، وهو يلعن المحكمة وأبوها ومن يحميها! هزّ رأسه أسفاً وأسى، شرب جرعة من الماء، ربّت بيده على ركبة عامر، وهو يقول له:

-لا تخالط أحداً هنا، قبل أن تعرف الناس جيداً، لا تشرب منهم شاي أو قهوة.. كل شيء موجود عندنا.
استأذن مصباح لتحضير العشاء، وانشغل عامر بالتعرف على المكان، ووجوه السجناء من حوله، كانت الحجرة كبيرة مربعة الشكل يزيد ضلعها على عشرة أمتار، باب صغير إلى جانبه نافذة واسعة، وفي الجهة المقابلة إلى الأعلى، نوافذ صغيرة ملتصقة بالسقف، ودورة المياه: حمام واحد، وحوض ماء في الزاوية، ويسكن فيها مائة وعشرة أشخاص!
-يا للهول.. هذا المكان يبدو كقنّ الدجاج!
ضحك مصباح وهو يقول: هذه أفضل غرفة في السجن كلّه.
تحيط بالغرفة من الداخل دكة على ارتفاع نصف متر، وعرضها متر واحد، من ثلاثة أطراف تتسع طولياً لقرابة عشرين شخصاً. أما الآخرون فقد قسمت أرض الغرفة على مربعات، كل مجموعة تضم ثلاثة أو أربعة، ويصل بينها وبين الباب والحمام ممرات لا تزيد عن شبرين اثنين فقط. كان الجميع في حركة دائبة وقت المغرب، يأكلون، يشربون الشاي والقهوة، وتدخين كثيف بصورة شديدة!
أخرج عامر من كيسه تفاحة وبضعة قطع من المربى، وضعها بين يدي مصباح الذي أبدى دهشة واسعة:
- مربى! من أين لك بهذه؟
- من المعتقل.
لفت انتباهه دفتراً وقلماً بيد أحد السجناء:
- الورق مسموح به؟
-غداً تحصل على دفتر من الدكان.
ومثلما كان يتفحص الوجوه وحركة الناس، كانت الأعين ترمقه من قريب وبعيد تستكشف القادم الجديد، ولن يطول الوقت حتى يعرف الجميع اسمه وجنسيته، وقضيته أيضاً.
تقدم منه رجل عجوز ودعاه لتناول العشاء:
-سلطة جيدة، تفضل يا شاب.
أرخى الليل سدوله فخرج إلى الساحة، كانت هناك ثلاث حجرات أخرى تتسع كل منها لخمسين سجيناً، الساحة واسعة والأسوار عالية محاطة بالأسلاك الشائكة، وخلفها تظهر أشجار الصفصاف في الطريق العام، وقف في إحدى زوايا الساحة ينظر إلى السماء، يملأ عينيه من القمر، والنجوم المتلألئة، البدر يضيء الدنيا وهو يتربع على عرشه في نحر السماء. كان المنظر آسراً أخاذاً، وقلبه ينبض أشد..فأشد. لقد حُرم من

هذا المشهد البديع ،طوال فترة اعتقاله في الزنزانة الإنفرادية. قطع عليه مصباح متعته ، وهو يقدم إليه شاباً:
-سامر.. بلدياتك..
مدّ يده مصافحاً، وقد تهلل وجهه بالرضا:
هل تعرف أسرتك بوجودك هنا؟
-ربما.. لا أدري على وجه الدقة..
-اطمئن، سأتدبر أمر الاتصال الهاتفي بهم، هذه الليلة.
اخذه جانباً وأسرّ له :
-لا تتكلم في السياسة، أو حتى عن قضيتك.. انتبه، لا أمان لأحد هنا.
لم يختلط بأحد آخر تلك الليلة، أمضى وقته يدور في الساحة، إلى أن تمّ إغلاق الباب! وأخذ كل سجين مكانه، إلاّ عامر وجد نفسه يقف في الممر، الغرفة مكتظة جداً، والممرات ستمتليء هي الأخرى عندما يخلد الجميع إلى النوم. لم يساعده أحد في الحصول على مكان، بل لم يكترث لوجوده، أو وقوفه أحد.. حتى مصباح وعمار تركاه وحيداً، لم يكن لديه فراش أو غطاء..لا شيء أبداً..مشرف الحجرة قال له تدبر أمرك!
عتبة الباب، نصفها.. أي متر طولاً، ونصف متر عرضاً هي المكان الوحيد المتبقي، جلس القرفصاء فوق أكياسه. ثم قدم له أحد السجناء لوحاً كرتونياً، فرشه على الأرض، وأغلق فتحة الباب بأغراضه كي تمنع تسرب الهواء البارد، تمدّد متكوماً على نفسه بكامل ثيابه، حاول أن ينام.. دون جدوى، كانت المرارة والألم يعتصرانه، في هذا المكان الجديد..مدينة الرجال هذه، المكللة بالقسوة، والأنانية واللؤم..بالفضول والضغينة..
ما أن أغمض عينيه من شدة الإرهاق، مع شروق الشمس، حتى أجفلته الضربات القوية على الأبواب التي بدأت تفتح، وصوت ينادي:
-فطور.. هيا الفطور.
تدافع السجناء عند عتبة الباب، بانتظار فتحه، نهض مجبراً، متثاقلاً وتعباً، رفع أكياسه ولوح الكرتون وأفسح الطريق للمتدافعين.. وخرج معهم. وقف لا يعرف ما الذي يتوجب عليه فعله، ولا طريقة العيش، أو التعليمات والأوامر التي ينبغي عليه اتباعها، جلس حيث يقف، استند إلى الجدار المشمس، وحاجياته إلى جانبه، اقترب منه شاب أسود البشرة، قصير القامة، جلس بجواره وقدم له كأساً:
-حليب وقهوة..
-أنا بشير، مهندس من الجنوب.. إدعاء شعبي، أخذت إفطارك؟
-لا..لا حاجة لي بذلك.

-خذه.. ستحتاج إليه.
أشار بيده خلف الباب:
-كأس من الحليب مع بيضة كل يوم، والخبز يأتي بعد قليل.
فجأة تجمّع العشرات وتدافعوا حول شخص في وسطهم، وقد علا صراخهم وضجيجهم:
-ما الذي يجري؟
-يسجلون أسمائهم في دور الإستحمام، خمسون شخصاً كل يوم..
وبعد أقل من ساعة جاءت الشرطة، وارتفع الصوت منادياً على الجميع للخروج إلى الساحة، وإفراغ الحجرات تماماً لبدء العدد. وقفت كل حجرة على حدة، في صفوف خماسية، مثل صف العسكر وبدأ الشرطي بالعدد، واحداً واحداً، كأنه يعدّ رؤوس خراف على باب المذبح!
انتصف النهار، وأفاق سامر..فهرع إليه يسال عن الاتصال بأسرته:
-اليوم.. أعطيت الرقم لموظف الإدارة.
-موظف الإدارة؟!
تساءل باستغراب، وأضاف:
-هذا اللئيم كان سيرسلني إلى القسم الخامس.
-اسمه سعد، سجين وليس موظفاً، كان ضابطاً هنا من قبل، والحمد لله أنك جئت هنا، القسم الخامس كله مجرمين خطرين! الحراسة عليهم مشددة، ومشاكلهم كثيرة.
دعاه سامر لتناول القهوة، وأعطاه قطعة من القماش كي يتدثر بها ليلاً، ووعده أن يتدبر أمر الفراش والبطانية فيما بعد.
كان السجناء يروحون ويجيئون في الساحة، ويلتفون حول الشاي أو حول بعضهم في مجموعات مختلفة، ليس لهم أي اهتمام بمظهرهم او نظافتهم. يتعايشون مع بعض على أعصابهم، وكل وقت يمكن أن تنشب مشادة كلامية، تتحول إلى لكمات، أو تراشق بالأحذية، وجميعهم ذوي قضايا مخدرات وقتل وسرقة ونصب واحتيال.. أو من سرّاق المال العام! موقوفون أو محكومون بسنوات لا تزيد عن عشرة، وسياسيون لايتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة، يجمعهم شيء واحد، أنهم ذوو حظوة مالية، أو موصى بهم!
فجأة علا صوت الطرقات الشديدة المتتالية على الباب، وكثر اللغط بين السجناء، وملأت المكان رائحة كريهة، رمى عامر بصره نحو الجمهرة فرأى المجاري تفيض بما فيها بكميات كبيرة ،غطت مساحة واسعة من ثلث الساحة الجنوبي المحاذية للباب والحجرتان الأولى والثانية، كان الجميع يتأهبون لاستلام طعام الغداء، وكل واحد يحمل إناءه بيده، والمجاري تواصل فيضانها، دون اكتراث من أحد!

قفز رجل أمامه، وهو يصدر أصواتاً غير مفهومة، ويحرك رأسه ويديه مثل مهرج، إنه مختار، فاقد العقل والإدراك، يسدّ أذنيه وفتحتي أنفه بقطع الاسفنج، وقطعة أخرى يلوكها بأسنانه، ثم يرمي بها في وجوه الآخرين، ثيابه ممزقة ومتسخة، وتفوح منه رائحة نتنه. يدور حافي القدمين، ممنوعاً من الدخول إلى الحجرات. طلب سيجارة من عامر، ثم تفّ في وجهه وهو يضحك، وضحك الجميع من حولهما.

جاء عمار وأبلغه قرار المدير بنقله إلى القسم الخامس. أصيب بذهول شديد، ورعب أشد. سيرمون به إذن إلى " كرم الدب " حيث عتاة المجرمين!

-لكن.. لماذا؟

-هذا قرار المدير.

هدّأ سامر من روعه، حاول أن يطمئنه بأن الأمور ستجري على مايرام، وأن السجن كله مثل بعضه.

-لكنك قبل قليل حذرتني من القسم الخامس!

-لاتهتم، سنوصي بك جماعتنا هناك.

في الساعة السادسه،ارتفع صوت المنادي على عامر عبدالله من خلف الباب، وطلب منه أن يجهز حاجياته للإنتقال إلى القسم الخامس. وخلال دقائق كان هناك، يسال عن أبي حيان.

2

أعطاه مصباح فراشاً صغيراً ووسادة. وفيما هو يغادر باب الحجرة اعترضه شاب، وطلب منه أن يعيد الفراش إلى مكانه، أو يدفع ثمنه. لم يكن يملك شيئاً في جيبه، ألحّ عليه للحصول على أي مبلغ. وصل مصباح في اللحظة المناسبه، أبعد الفتى ورافقه نحو الباب الخارجي للقسم:

-لاتنس أن تبعث لي، إن احتجتَ شيئاً.

قاده الشرطي عبر القوس نحو القسم الخامس، ماراً بمكبّ النفايات وسط الساحة الرئيسية للسجن. كانت هناك أبواب حديدية مقفلة مزروعة في الجدران، ولا أحد هنا، سوى الحراس المنشورين في الزوايا، وعلى برج المراقبة الداخلي. توقف تحت البرج واجتاز الباب الأول. ثم ممراً قصيراً بطول عشرة أمتار، وصولاً إلى باب القسم الخامس، دفعه الشرطي وأغلق الباب دونه: إذهب إلى الحجرة رقم واحد. أول مكان شاغر قرب الباب. وضع أكياسه وفراشه على الأرض، ثم جلس عليه شارداً، ساهماً. تجمع حوله بعض السجناء يتعرفون إليه. كانت الساحة الداخليه مزدحمة. مكتظة بالجالسين والواقفين والمتجولين. والمكان أشبه بقفص تماماً: الجدران عالية جداً ملساء، مسقوفة بشبك حديدي على طبقتين تعلوه الأسلاك الشائكة الممتدة من الجدار إلى الجدار. وبالكاد يستطيع المرء أن يرى نجمة في السماء. لكنه لايستطيع أبداً أن يرى القمر كاملاً إن كان بدراًأو هلالاً، دون خطوط الحديد التي تقسّمه!

-هؤلاء الناس، هنا.. هم أخطر السجناء إذن! حدّث نفسه. وسأل أحدهم عن أبي حيّان. استأمنه عند متاعه القليل. ودخل إلى الحجرة الرابعة، عرفه فوراً من مظهره. كان رجلاً وقور المظهر، أبيض الذقن، حليق الرأس والشاربين، خشن الجسد. عينان زرقاوان تتقدان. يتربع على الأرض و بيده المسبحة، يتكئ إلى الجدار مقابل الباب تماماً، مثل شيخ عشيرة، في مضافته وسط البادية. محكوماً بالسجن مدى الحياة في قضية جلب المخدرات.

لم يستطيع أن يفتح فمه بكلمة واحدة، رداً على أسئلة أبو حيان. خنقته العبرة. أشار إليه وجاور سبابتيه. ذعر أبو حيان وسأله: مؤبد؟

هز رأسه نفياً.

-بلدياتك.. أرسلني إليك سامر.
عادا إلى الساحة معاً يتعارفان ويتشاكيان الألم والظلم، ويتقاسمان الهمّ .و من بعيد تقدم إليه شخصان، ناداه أحدهما بدهشة: أستاذ عامر! تعانقا وجلسا حنباً إلى جنب.
كان مجيد مصوراً صحفياً، القي القبض عليه في قضية مخدرات وحكم عليه بالسجن عشر سنوات.
-فخري.. مثلك، ادعاء شعبي، سياسي..
-أهلاً.. صار عندي الآن اصدقاء، وزملاء.
بعد قليل جاء مشرف القسم، يبحث عنه لضّمه إلى الحجرة الأولى، تدخل أبو حيان وفخري ومجيد، لادخاله إلى الحجرة الرابعة. ولم يكد يتحرك حتى نشبت مشادة بين سجينين توسطا الساحه، وطلبا من الجميع ألاّ يتدخل أحد.. وفي استعراض مثير بالنسبة لعامر. كانا يضربان بعضهما بوحشية. وفي قبضة كل منهما أداة حادة، الدماء تسيل على وجهيهما وجسديهما العاريين بثيابهما الممزقه. ولم تنته المشكلة إلاّ بعد أن سمع السجناء صافرات الشرطة، وخطواتهم المتراكضة في الممر. وعندما فتح الباب، كان كل شيء في الساحة هادئاً..وعادياً:
-أين هما؟
كرر الضابط السؤال بصوت عالٍ أكثر من مرّة، دون أن يردّ عليه أحد على الإطلاق.
-يخرجان بنفسهما، أو أقلب الدنيا على رؤوس الجميع في القسم.
تقدم منه المشرف:
-سيدي.. لاتوجد مشكلة..
-كيف لاتوجد مشكلة؟
-سوء تفاهم، وانحلّت الأمور على خير.
-اذن ليدخل الجميع.. كل واحد إلى حجرته ، هيا.
كانت تلك المشكلة الدامية، الأولى التي حضرها عامر، وكذلك العقوبة الأولى التي يتلقاها هنا. دخل الجميع، وأغلقت أبواب الحجرات عليهم. جلس القرفصاء إلى جانب أبي حيان صامتاً، ينتابه شعور بالإحباط والكآبة، الغرفة تضيق بمن فيها. ولم يمض وقت قصير حتى بدأ الجو خانقا، والضوء شاحباً، وكل شيء لونه رمادي! ارتفعت رائحة الرطوبه، إلى درحة ضاق فيها التنفس، فأسرع إلى بخاخ الفينتولين، يستجدي جرعة الدواء، قبل أن يؤدي نقصان الأوكسجين إلى مشكلة كبيرة لديه.
القسم الخامس، هو بناء نموذجي لأسوأ السجون! فالمبنى مغلق من كافة الاتجاهات، والحجرات الخمس في القسم يربط بينها ممر داخلي، وكل غرفة طولها ستة أمتار، وعرضها أربع. لها نوافذ علوية تلتصق بالسقف من جهة واحدة، عرضها نصف متر

محمية بقضبان وشبك من الحديد. وفي كل حجرة أربعة حمامات، اثنتان يشغلها سجناء، والآخران للإستحمام وقضاء الحاجة، وفي الليل تصبح عتبة الحمامات، منامة لمن لا يملك مكاناً داخل الحجرة التي يسكنها سبعون سجيناً.. وأحياناً أكثر من ذلك!

بسبب المشكلة، حُرم قرابة ثلاثمائة وخمسين شقياً.. من العشاء ومن مواصلة فسحة التنفس، تدبر أبو حيان أمر الطعام: قطع من الجبن، بيضة، حلاوة، وحبات من الزيتون. أخرج عامر قطعة الخبز التي يحتفظ بها منذ الصباح، أكل بلا شهية، ومضى إلى الحمام يجتاز بحذر الرؤوس والأجساء الممددة على الأرض.

أفرد له ابو حيان أقل من شبر من فراشة، وكذلك جاره مصطفى الجزائري، وضع رأسه بين قدميهما وتمدد بين الفراشين لا يستطيع حراكاً، فلم ينم. الجو داخل الغرفة يزداد اختناقاً، مع ازدياد التدخين، أُخفض صوت التلفزيون وظلّ الأرق يداعب روحه حتى الفجر، استحم بالماء البارد على عجل، ثم ترك له أبو حيان الفراش لينام قليلاً بانتظار الباب أن يفتح ويوزع الإفطار. ساعة واحدة كانت كافية ليرتاح جسده، ويرخي أعصابه المشدودة منذ يومين، ولأول مرّة يتناول إفطاره مع الناس..شعر بآدميته تستعاد بعد أن ظلّ محجوراً عليه طوال الفترة الماضية. شرب القهوة، وخرج إلى الساحة، يدور مع أرتال السجناء الدائرين، يحرك قدميه ويديه، قرر أن يجبر نفسه على التأقلم مهما كانت الظروف الصعبة تحيط به، وبحذر شديد..شديد جداً من هؤلاء السجناء.

انضم إليه فخري:

-أين مجيد؟

-لا زال نائماً، يسهر الليل كله.

-وأنت؟

-أنا مكاني عتبة الباب، مجبر على النهوض أول شخص.

-كيف تسير الأمور هنا.

-على أسوأ حال.. أعاني من أزمة حقيقية في التعامل مع هؤلاء السجناء.

-بسبب نزعتهم الإجرامية؟

-هذا آخر شيء أفكر فيه. لكن أحسنهم جاهل. وإن لم يكن كذلك فهو مريض، إما نفسياً، أو مصاباً بوباء..

-لكني رأيت أناساً مختلفين!

-هؤلاء قلّة.. إنهم عليّة القوم هنا.. الرؤوس الكبيرة، في هذا القسم تجد كبار تجار المخدرات، وأخطر القتلة، والأكثر عدائية وشغباً.

-ولماذا رموا بي هنا؟

-لعزلك، ومحاصرتك، وإحباطك.. وإفسادك أيضاً.
وحده فخري هو السجين السياسي في القسم الخامس، والآن صارا اثنين، ومعه بدأ يكتشف الطبائع الفاسدة لمجتمع السجن، بؤس السجناء، ضياعهم وخوفهم، وحاجتهم وجوعهم وأمراضهم! انتابه الرعب وهو يتخيل نفسه واحداً مثلهم. قاده فخري إلى الحلاق، وطلب منه أن يعتني به.
-لكني لا أملك شيئاً، لا مال، ولا شفرات حلاقة.
-لا تهتم بهذه المسائل، كل شيء موجود، لا عليك.
جلس على حجرٍ في الزاوية الجنوبية من الساحة، وخلال نصف ساعة، كان الحلاق المغربي، قد كشط له ذقنه، شذب شاربيه، وخفف له شعر رأسه، أسرع إلى الحمام، ينتظر دوره في الطابور الطويل للإستحمام، وقد بدأ الجميع يستيقظون من النوم، فاكتفى بغسل رأسه بالماء كيفما اتفق! كادت -بسببه- أن تتحول مشادّة كلامية إلى تبادل للضرب، حين حاول أحد السجناء دفعه بعيداً عن الحمام، فوقف له أبو حيان بالمرصاد، ارتفعت الأصوات، وانقلب الهدوء إلى معزوفة من الشتائم وبلغات مختلفة: عربية، وإفريقية دون أن تفهم كلمة واحدة.
-هذا جديد، بالأمس وصل فقط.
أشار إليه الإفريقي، وعيناه تقدحان شرراً، وفمه يقذف الكلمات وهو يرطن بلغة ما، وبعربية مكسّرة، فيما يتطاير الرذاذ من فمه، تراجع عامر قليلاً من وسط التجمع، ما أن رأى الأفارقة يتقدمون لمناصرة صاحبهم، دقائق قليلة، كانت كافية لتقلب الغرفة رأساً على عقب، من هدوء تام إلى ضجيج، ومن نوم للكثرة إلى استيقاظ شامل، بوجوه مستاءة، مستنكرة لما يحدث.
ربح عامر نصف جولة: يسجل اسمه في دور الإستحمام، ويغسل رأسه ووجهه الآن، ولولا وقوف بعض السجناء معه، لوقع في مأزق لا فكاك منه! شكى الأمر لفخري، مستغرباً طريقة التعامل بين هؤلاء الناس:
-هذه غابة وتحكمها شريعة الغاب! هنا يصدق المثل: إن لم تكن ذئباً.. أكلتك الذئاب.
أطرق يفكر في إمكان الحياة والتفاهم مع السجناء، وهو لا يصدق أنه يتوجب عليه أن يكون ذئباً..بل وأكثر من ذلك إن استطاع، عليه أن ينحدر إلى أسفل سافلين ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وإلّا ضاع..
-لا تخف.. سأفتح الطريق..سأعرفك على كبار المجرمين المتحكمين هنا..وعليك أن تكسب ودهم.
كان جميع السجناء يحترمون فخري، الأستاذ فخري، المثقف، السياسي، ينأى بنفسه عن التعامل معهم، يتفاخر أنه ليس سجيناً جنائياً، ينظر إليهم من فوق بتعجرف، وكانوا يقبلون به لسببين: أنه لا يتعاطى المخدرات، ويعرف كل أسرارهم! يحكون له

قصص جرائمهم، ليكتب لهم التظلمات..وهو من جهته، ينظر في عيني المتحدث بتمعن، ويقول له وهو يشير بسبابته مهدداً:
-اسمع.. لا تُخف عني شيئاً.. وإلا فاذهب إلى غيري.
يدبّج لهم خطابات التظلم، يستدعي كل عبارات الدعاء، والرجاء، والاستعطاف، والاسترحام، ويطيل لهم في الشرح والطلب..رغم أخطائه اللغوية والنحوية.. لكنه لا يتقاضى فلساً واحداً، يكتفي بفنجان شاي أو قهوة.. أو يوصيهم بجلب الورق والأقلام.
عندما يدخل السجين غرفته، وينام.. تغلق عليه سبعة أبواب فقط.. أخذ عامر يتخيلها، ويعددّها في نفسه. داخل القسم الخامس وحده أربعة أبواب: الغرفة، وباب الممر وباب القسم، وباب الممر المؤدي إلى القسم. أما الأبواب الثلاث الأخرى فهي البابان الرئيسيان للسجن، والثالث لمجمع السجون الثلاث المتجاورة: السجن الرئيسي، والمحلي، وسجن النساء!
-لكي أخرج من هنا، عليّ اجتياز سبعة ابواب.
-بل..قل أن تفتح لك!
قال فخري ضاحكاً، ثم أردف هازئاً، ومؤاسياً في الوقت نفسه:
-يارجل تفكر في الإفراج، وليس لك في القصر، إلاّ من أمس العصر؟
-وماذا أفعل..لن أستسلم حتى لو كان القدر متآمراً ضدي!
-هذه ضغائن البشر، ولا علاقة للقدر بها.
ما أن اقتربا من الباب، حتى سمعا جلبة الأقفال، سرت همهمة بين السجناء، وانتشروا بسرعة بعيداً عن المدخل، فيما طلب فخري منه أن يجلس وحيداً في أي مكان بعيداً عن الأعين، واتجه هو إلى الساحة الأخرى.
دخلت الشرطة..وصاح المساعد: كل واحد في مكانه.. لا يتحرك أحد.
كانوا أربعة، دخل اثنان يميناً، والآخران يساراً، وقف الأول بالباب، يراقب المشهد كاملاً أمامه، أما الثاني فقد أخذ يمشي بين السجناء ينظر في عيونهم وأيديهم، وعلى الأرض، بحثاً عن أي شيء..اتجه إلى الحلاق، وصادر مقص الحلاقة:
-دعني أكمل حلاقة الرجل.
-ممنوع، ألا تعرف ان المقص ممنوع.
-والرجل.. قليلاً وأُكمل رأسه!
-هذا ليس شأني.. دبر رأسك!
وعندما همّ الحلاق بالكلام ثانية، سبقه بالرد:
-كلمة ثانية، وتصير في الإنفرادي.

قام الشرطيون بجولة سريعة على الحجرات , وغادروا القسم، فدبّت في جنباته الحركة النشطة، وعاد كل سجين إلى مكانه، وكل جماعةٍ إلى انشغالها يلعبون الورق، أو التدخين، أو حتى تعاطي المخدرات، غير عابئين بأحد!

بدأت الشمس التي لا يرى قرصها الأحمر أحداً، بالمغيب.. فتح الباب الخارجي، وبدأ الشرطيون يدقون الأبواب بالأقفال إيذاناً ببدء العدّ. وخلال دقائق قليلة، كان كل سجين في الغرفة قد مدّ فراشه، وأخذ مكانه وبدت الحركة هادئة، والأصوات تخفت شيئاً فشيئاً، فيما آذانهم على أهبة الاستعداد، ما أن تسمع وقع أقدام في الممرات. حتى ينتبه الجميع. جلس إلى جانب أبو حيان يتجاذب معه أطراف الحديث وهما يحضرّان كوباً من القهوة بأدوات ممنوعة. أخرج خيطاً كهربائياً وربط في آخره مسماران صغيران، وأسقطه في كأس من الماء، ثم وصله بالتيار. وبعد دقيقتين كانت الماء تغلي، والقهوة جاهزة.

لاحظ أن معظم السجناء بدأو بالتدخين، ارتفعت سحابات الدخان كثيفة في فضاء الغرفة. أخذ جرعتين من من بخاخ الفنتولين تحسباً لضيق التنفس، وهو يراقب السجائرتنتقل من يد إلى أخرى، كل واحد منهم يأخذ سحبه ، فتتوهج حمرتها، ويحيلها لمن يليه إن كانوا ثلاثة، أو أربعة، أو اثنان يتناوبان تدخين اللفافة. لكزه مصطفى بكوعه، ثم مدّ له اللفافة، ارتبك، وشعر بالحرج:

-شكراً، لا أدخن.

-خذ لك سحبة يا رجل.

حدّق فيه ابو حيان بغضب، ونهره:

-مصطفى..قال لك لا يدخن.. فهمت؟

مال عليه أبو حيان، وسأله إن كان يرغب في تدخين الحشيش.

-أنا ضد تعاطي المخدرات!

-انتبه لكلامك، لا أحد هنا يحب سماع مثل هذا الكلام، إن سمعوك، سيعتبرونك قواداً مخبراً للشرطة.

-هذا ما كان ينقصني!

ارتفع السعال في جنبات الحجرة، ساد الهدوء، وخمد الجميع ومن بقي يقظاً منهم، ظلت عيناه جاحظتان حمراوان، شاخصتان إما على التلفزيون الوحيد في الغرفة، أو على إحدى النوافذ، ساهماً في عوالم أخرى، لا يعرف أحد أين هي، حتى هو نفسه لا يدري بشيء مما حوله، ممددٌ في مكانه، مرخي الفم، تائه الروح..

3

الأحد يوم الزيارة، حلق ذقنه واستحم مع خيوط الفجر الأولى. ارتدى ثياباً جيدة ونظيفة، أخذ مكانه على الجدار، قريباً من الباب، بانتظار المناداة عليه. مرّ الوقت بطيئاً، مقلقاً ومربكاً، ومع الواحدة ظهراً نادى صوت باسمه خلف الباب، فخرج خطوتان فقط ليجد نفسه أمام ضابطين: اسمك بالكامل، وقضيتك، وجنسيتك.
أجاب متلهفاً لاهثاً عجولاً على أسئلة الضابطين، أسئلة متناثرة ومبتورةلم يفهم من ورائها شيئاً، واحتار فيما يريدان، قبل يتبادلا النظرات ويرمقانه، ثم هزّا رأسيهما، طلبا منه أن يعود إلى القسم، وغادرا المكان.
قال له فخري أن أحدهما هو ضابط الزيارات، وأنهما جاءا بقصد التعرف إلى شخصيته، لأن زيارته غير مسموح بها دون إذن من محكمة الشعب. أصيب بخيبة كبيرة، كان يأمل بزيارة شام.. والآن لم يعد الأمر ممكناً.. حتى الأسبوع القادم!
قاده فخري إلى الداخل، مخففاً عنه كآبته، جلس على الأرض المفروشة بالحصائر، أسند ظهره إلى الجدار يغالب قهره، استسلم للألم الراعش يكوي أضلاعه، وضع رأسه بين ركبتيه ندّت عنه آهة مكتومة، لكن جسده كان يرتعش. ربت فخري على ظهره، وهزّه بمودة دون أن يتفوه بكلمة واحدة، بدأت روحه تهدأ، ثم شرب جرعة من الماء.
بعد إغلاق الباب ليلاً، رتب أبو حيان كل شيء كي يؤمن اتصالاً هاتفياً، وأخذ عامر طريقه نحو مكان منعزل وناءٍ من الغرفة واتصل بشام. كان خائفاً ومربكاً، وصاحب الهاتف يجلس أمامه، يرقبه بعينيه، ويسمع كلماته كلها. لم تكن تعلم أنه نقل إلى السجن المدني.. ولا أي شيء آخر عنه. استوقفه صاحب الهاتف وسأله بفضول وإلحاح عن قضيته، وظروف اعتقاله، حاول أن يبدي أسفه، ويبعث فيه روح الإطمئنان، ليحمل عامر أن يفتح له قلبه ويحدثه، أو يجيب على أسئلته الكثيرة، لكنه لم يبح بأكثر من كلمات قليلة، حول الكتابة والصحافة، سبب الاعتقال، ولا أكثر من ذلك.
في الصباح كان عليه الإستعداد للذهاب إلى المحكمة، لقد انتهت فترة التمديد الأولى التي استغرقت خمسة وأربعون يوماً، استدعي إلى الساحة الرئيسية للسجن، مع العشرات المطلوب إحالتهم إلى المحاكم. وقف الجميع في صفوف ثلاثية، وحده كان

يرتدي بزّة سوداء، وحذاء أنيقاً لامعاً، ولأول مرّة شاهد ضابطاً قصير القامة، نحيل الجسد، شعره أبيض، برتبة عقيد، كان هذا هو مدير السجن، يتفحص الوجوه من بعيد!

أُودع في صندوق حديدي لشاحنة صغيرة، انطلقت به عبر المدينة نحو بناء المحكمة، كانت ثمة نافذة صغيرة، لصق فيها وجهه، ينظر بعيون تمسح الأمكنة يميناً ويساراً، على مدّ النظر. صعد الطبقة الأولى من البناء، فالثانية، والشرطي أمامه، رأى على بعد خطوات منه صديقه المحامي محمد الفاسي، فأبطأ حتى وصل إليه، تعانقا وسط دهشة الحارس، حثه على الإسراع في الحركة. أقل من دقيقة كانت كافية ليتبادلا بضع كلمات خفية في الأذن:

-محاميك سيأتي بعد دقائق.

قال له، وهو يمضي في طريقه نازلاً الدرج.

لبث في غرفة صغيرة، في الطابق الثالث. لا يمكن الدخول إليها أو الخروج منها إلا عبر الاستعلامات، مرّ الوقت دون أن يُعرض على المحقق، أو يزوره المحامي، ظلّ واقفاً أمام النافذة الكبيرة يحدق في المدخل الرئيسي علّ شام تأتي لزيارته..

دفعه الحارس إلى جانب السائق، وركب قربه، وعادت السيارة في الطريق نفسه إلى السجن.

-ماذا حدث في المحكمة؟

-مدّد لك المحقق شهراً آخر.

بلل شفتيه وبلع ريقه، على ألم داخلي يطحن أضلاعه، ويزيد في أوجاعه. غامت الدنيا بوجهه، ولم يعد يهتم بما يراه أمامه في الطريق، حتى أثارت السيارة عند توقفها غيمة ترابية ارتفعت عالياً، ترجل وسط الغبار، وقاده الحارس نحو البوابة، وسلمه للضابط المناوب الذي أخضعه لتفتيش شخصي دقيق. ظل صامتاً، يبتلع تعليقات الشرطي الذي يفتشه، ويتجاوز كلماته الاستفزازية، ثم دفعه باتجاه الساحة رفقة شرطي آخر، مع سلسلة من المفاتيح.

كانت شمس ظهيرة الإثنين الثالث من حزيران، تلهب الأرض تحت قدميه وهو يعبر الساحة الإسمنتية. الريح ساكنة، والحرارة عمودية على رأسه ورقبته، نزع سترته، فأخذت الشمس تلسع ظهره وساعديه، ولم يكد يصل إلى حجرته، حتى كان العرق يتصبب من وجهه وجسده، التفّ من حوله السجناء يسألون عما حدث معه في المحكمة: تمديد.. تمديد شهر.

بعد قليل وجد طريقه نحو الحمام، صبّ الماء البارد، فرك رأسه وجسمه بالصابون، ثم خرج على عجل، كي يفسح المجال امام طابور الاستحمام، الذي اخترقه بلفافة تبغ واحدة، دفعها لمشرف الطابور، تدبر أمرها أبو حيان!

القيلولة التي اعتاد عليها، لم تعد ممكنة.. على الاطلاق. الزحام وهذا الجو الكئيب والطقس الحار قضى على آماله براحةٍ يمدد فيها جسده، ويخفف من قلق روحه المتعبة قليلاً. ازدرد لقمتين من الخبز، وهو يتابع أبو حيان يحسّن وجبة الرز البارد المطبوخ بصلصة البندورة، وضع فصاً من الثوم، وحبّة من البندورة المقطعة، كي يصير للطعام نكهة ما.. أية نكهة، سوى طعم طبيخ السجن! ثم أخذ يقشّر حبتي خيار، فمدّ أصابعه نحو القشور:

-هل ترمي بها أبو حيان؟

كانت رائحة الخيار نفاذة، سال لعابه لها، وأحس بطعمه يتغلغل في مخه! وأخذ يرمي القشور في فمه ويلوكها بتلذذ. نظر إليه أبو حيان بدهشة:

-أعطيك خيارة؟

-الفائدة في القشرة.. أبو حيان!

خرج إلى الساحة والشمس في ذروة توهجها، أماكن الظل كلها مشغولة، يفترشها السجناء، بين نائم ومضطجع، أو مجموعة تلعب الورق وتدخن، استند إلى الجدار الجنوبي ، نصفه الأعلى في الظل، والأسفل من سرته حتى قدميه في الشمس، وعلى بعد خطوات منه بركة الماء الآسن تسببت بها فتحة المجاري المغلوقة بتراكم الأوساخ، وعلى أطراف الماء يجلس رجل لا يعبأ بحرارة الجو، يهذي، يحدّث نفسه بصوت خفيض، يحرك يديه في كل الاتجاهات. فجأة نهض من مكانه، ثم انحنى واضعاً سبابته اليسرى على الأرض، وأخذ يدور حول نفسه وهو يلوّح بيده الأخرى في الهواء.

كانت ثيابه جديدة ونظيفة إلى حدّ ما، ذقنه حليقة، ولولا حركاته وهذيانه لا يمكن أن يتبادر إلى ذهن أحد، أن هذا الرجل مختل العقل، شعر بالأسى والأسف، وهزّ رأسه وهو يتطلع نحو فخري:

-ما حكايته؟

-قتل زوجته، ورمى جثتها في البحر.

-أسأل عن حالته هذه!

-مثل كثيرين غيره، لم يعترف، أنكر فعلته، وتحت التعذيب كسرت قدمه فوّقع على محضر اعتراف.

مال إليه وهمس في إذنه: اعترف بعد أن تعرض للاغتصاب..وبعد أن حُكم عليه بالمؤبد، فقد عقله ، أصابته لوثة. والآن تراه في وضع حسن بسبب الأدوية المهدئة.

ـ أيعقل..ما الذي تقوله أنت ؟

ـ أسأل أي واحد، كلهم يعرفون حكاية تعذيبه.

ـ وهل قتل زوجته فعلاً.

ـ هذا مشكوك فيه ! خذها قاعدة: هنا، لا أحد يعترف بجريمته. ولا يحكي لأحد قصته الحقيقية. ثمة شيء خفي وسريّ داخل كل سجين، لا يبوح به لأحد .. على الأطلاق .
أخذ عامر يطمئن إلى فخري، ويقترب منه أكثر. وخلال أيام صارا صديقين، يقضيان غالب وقتهما معاً، من الظهيرة إلى المساء. كان فخري مثقفاً متنوراً ومنفتحاً. لا يدخن ولا يتعاطى المخدرات . ولكنه دائم التوتر والقلق بسبب الظروف التي تعرّض لها أثناء التحقيق، ولأسباب أخرى عائلية. ذات مرة فاجأه بالقول أنه يعرفه، وقد التقى به عدة مرات، وأنه كان يكتب في المجلة ذاتها التي يكتب فيها مقالاته داخل البلاد.
ـ لا أتذكر أني قرأت لك شيئاً.
ـ أما أنا فقد قرأت مقالاتك، في جميع الأعداد. وكنا نلتقي في أنشطة ثقافية عديدة، في دار الفنون، ورابطة الأدباء، والمركز الثقافي الفرنسي.
ـ آسف.. أنا لم الحظك!
شكوكاً ما، راودته . لا يتذكر حقاً أنه قرأ لهذا الأسم شيئاً في المجلة، التي توقفت فيما بعد، بسبب ضغوط الدولة وأجهزتها الأمنية.. آثر رئيس التحرير إيقافها، على إخضاعها للرقابة! وما أن بدأ يقرأ ما يكتبه فخري من نصوص، حتى تعززت شكوكه، فليس لديه أسلوب، ولا يعرف كيف يقبض على الموضوع، وكثير من الأخطاء النحوية والإملائية، تزيّن دفتره!
عصراً يبدأ تنظيف الحجرات، يخرج الجميع إلى الساحة والممر المظلم، ويبقى في الغرف بضعة أشخاص، لا يتجاوز عددهم أصابع اليد، واثنين يقومان بتنظيف الحمامات وأرض الحجرة، ويعملان على تغيير هوائها ما أمكن، يتناوب التنظيف كل يوم اثنان، إما أن تنظف بيديك، أو تدفع ثلاثة سجائر، هذا هو قانون النظافة.
تسلل إلى الحجرة بمساعدة فخري وأبو حيان، استلف من الأخير ورقة وقلماً واختلى بنفسه، وكتب في تلك الأمسية، والشمس مائلة إلى الغروب، أولى نصوصه الشعرية.. هنا داخل هذا السجن، أما في المعتقل الأمني، فقد تمت مصادرة كل ما كتبه هناك، ولم يسمح له باسترداده!

" كلما جنّ المساء
هطل الحزن على قلبي
يعاند شوق العينين للضوء
تحول الأبواب المغلقة
دون روحي ونجمة بعيدة
تعاتب الأيام في شجن
نثرته الحبيبة خلف خطاي، وبكت..

هو الشوق المأخوذ به حتى ثمالة القلق
فألوذ بالذكرى
أصلي صلاة الذين حصلوا..
وبدمعات سخيّات تكوي حرقتها
أحداقاً لا تذوب فيها أحلامي
حيث
لا وردة،
ولا عشبة،
ولا
طير..
سوى الألم ! "

كفكف دمعته وهو يطوي الدفتر، ويديه ترتجفان. كأنه يقرأ نصاً ليس له، ترك أثره العميق جرحاً بليغاً في القلب. أما فخري فقد كان مطرقاً، نظر عامر إلى أبي حيان فوجده عابس الوجه، متجهماً، ممتقع اللون: ما هذه صلاة الذين حصلوا؟
أبدى انزعاجه، وهو ينظر بعتب بطرف عينيه إليه، أفلتت ضحكة قصيرة من فخري وهو يضرب كفاً بأخرى. فأصبح في حيرة حيال ما يجري أمامه: واحد عاتبٌ، والأخر يضحك.
"صلاة الذين حصلوا" لم تكن سوى دعابة ساخرة، ابتدعها فخري، وصار يرميها على أبي حيان، وأمثاله ممن كانوا لا يعرفون ربهم بالإشارة، أما بعد أن دخلوا السجن فقد تحولوا بين ليلة وضحاها إلى أئمة وفقهاء، يقضون الساعات الطوال في الدعاء والصلاة، وقراءة كتاب الله!
-رميتَ لي طعماً إذن!
-هذه من أجل عمي أبو حيان.
-خذ حذرك منه.. فخري ثعبان.
-صاحبك..
انتفض أبو حيان وقد امتقع وجهه، مشيراً إليه:
-صاحبي نعم، لكنه مسموم.
صمت قليلاً، خفّ توتره، وهدأ ثم أضاف مبتسماً:
-هذا ما عنده صاحب!
التفت نحوه وهو يدعوهما إلى شرب الشاي:
-الله يرضى عليك يا عامر، هاتين الكلمتين أريدك أن تَخذفهما.

-ولو يا عمي! أريدك أن تدسّها بين أغراضك.. ونسخة خاصة لك كي تتذكرني بها.
-يا لها من ذكرى.. وفي دفتري أيضاً؟
في وقت متأخر من تلك الليلة، دسّ رأسه بعناية بين أقدام أبو حيان، ومصطفى الجزائري، ومدّ رجليه بين جسديهما، وقدميه بين وجهيهما، وحاول أن يهجع قليلاً دون حراك، كي لا يزعج الرجلين الذين مازالا يستضيفانه حتى الآن، ووسط الصمت المتفق عليه، بدأت السجائر الملغومة بالحشيش تشتعل، وتدور بين أفواه السجناء، وقبل أن يغطّ في النوم، وبعيون شبه مغمضة، اكتشف أن أبو حيان يسحب نفساً عميقاً من سيجارة ناجح، ويعيدها إليه بسرعة وسرية، رغم أنه لا يدخن!
كان الدخان يملأ الغرفة، وتوخز رائحة الحشيش أنفه، فيما تمتص جمرات السجائر ما تبقى من أوكسجين، مما يزيد من رطوبة وحرارة الجوّ الخانق!

4

ألحّ أبو حيان في إيقاظه، فنهض على مضض مضطراً ومكرهاً. كان جسده المتعب مبللاً من التعرق، وجفنيه مثقلين برغبة النوم، حرك ساعديه يميناً وشمالاً، وإلى أعلى وهو يتثاءب:

-لم أنم جيداً..نعسان يا أبو حيان. حلم..حلم والعياذ بالله!

عادت المرأة الجميلة لزيارته مرّة أخرى..عارية أيضاً. لكنها الآن أكثر فتنة وإغواء، أحكمت حصارها حوله وهو قابع في ركن الزنزانة. أما عطرها القوي النفاذ، فقد أخذ يحرق عينيه بشدته، ويدخل حلقه مع الهواء الذي يتنفسه، وما أن استسلم لها حتى فتح الباب مجدداً، ودخلت فتاتان أخريان، تتهامسان وتشيران إليه، لم تقتربا منه، ظلتا تحومان حوله مثل نحلتين، أو فراشتين ملونتين، تطيران حيناً فوق رأسه، أو تسيران مستندتين إلى الجدران، كان الضوء باهتاً، وهو يلهث ويتعرق، دون أن تكفّ عينيه عن مراقبة الفتاتين اللتين تتساويان في الطول، وفي سواد الشعر، واتساع العيون، جفّ حلقه، وشعر بالعطش فمدّت له إحداهن كأساً من الخمر، وقبل أن تلمسها أصابعه، كانت يدٌ تهز كتفه وتوقظه.

قطع عليه أبو حيان حلمه، منع عنه حلاوة الكأس التي كاد أن يبلغ بها ذروة شهوته.

-آخ منك يا أبو حيان، لو تركتني قليلاً فقط.

-صار وقت الصلاة.

الساعة تقترب من التاسعة صباحاً، مضى على تقديم وجبة الإفطار والقهوة، أكثر من ساعتين، ولم تأت الشرطة لأخذ العدد وفتح الأبواب كالعادة. بدأ السجناء داخل الغرفة يتململون في أماكنهم الضيقة وقد ارتفعت من جديد سحب الدخان، وارتفعت حرارة الجو تدريجياً، مع تصاعد الروائح الخانقة، للأجساد المتعرقة ورائحة التغوط والبول، التي يسمح فتح الباب لها بالخروج، أو على الإقلال من كثافتها داخل الحجرة.

"مونو" الوحيد الذي يتحرك، يأتي من مكانه إلى وسط الغرفة، يقف امام الباب، يتطلع من بعيد عبر نافذته الضيقة نحو الممر الداخلي المظلم للمبنى، مستطلعاً دخول أحد..والجميع يترقب، يريد أن يفتح الباب، وأن يعرف سبب التأخير. كان "مونو" النيجري أسود البشرة فاحماً، ضخم الجثة قوي البنية، عريض المنكبين، ينهض باكراً لممارسة الرياضة، ثم يتفرغ لعمله في نحت أعمال فنية ورموز دينية، من عظام البقر التي يحصل عليها من بقايا الطعام، وخلال ذلك يقوم بعمل سري أهم: بيع

المخدرات للسجناء، مونو اسم اكتسبه من جدارته في تأمين تموين الهيروين للمدمنين الذين أذهبت المخدرات بعقولهم، وبأشياء أخرى..مخجلة!
أخيراً علا صوت الخطوات في الممر، وبدأت الأقفال تنزع، والأبواب تفتح، كان النقيب خليل يأمر الجميع بمغادرة الحجرات على عجل لإتمام العدد، وعندما وصل إلى حجرة عامر، كان ثمّة من يزال نائماً، فأمر على الفور بعودة الجميع إلى الداخل وأغلق الباب عليهم، وهمّ بالمغادرة.
-تبقون في الحجرة اليوم عقوبة..عقوبة كي تتعلموا تنفيذ الأوامر فوراً.
تطلع عامر حواليه، وهو متكوّم على نفسه مثل قنفذ، كان الكل مستاءً مما حصل، وبدأ السجناء يرمون الكلمات ساخطين على أولئك النائمين الذين تسببوا في هذه العقوبة:
-كم مرّة قلنا لكم النقيب خليل مزاجه صعب.
-ماذا سنفعل، الجو اليوم يبدو حاراً وجافاً منذ الصباح.
بدت الحجرة، مثل علبة سردين تماماً.. لكنها فاسدة! حك جبينه وفرك مؤخرة رأسه، وهو يفكر في هذه الصورة الملونة الباهتة أمامه. إنها ليست علبة سردين فاسدة فقط، بل إنها تشبه علبة كبريت، قال لنفسه، وربما كان محقاً. فمع تجربته القليلة في السجن، أدرك أن التوتر السائد داخل الحجرة قد يؤدي إلى انفجارها، وأي مشادّة بين اثنين كافية لاشعال القتال، على أشدّه بين الجميع، وفي أي لحظة.
بعد قليل نزل نجم من فوق سقيفة الحمامات، التصق بالباب يبحث عمن يرسله إلى النقيب خليل، لكن محاولاته كلها باءت بالفشل، وظل مصراً على موقفه، ولم يفتح الباب إلا لخمس دقائق فقط لاستلام الغذاء من داخل الحجرة، لم يسمح لأحد بالخروج. ازداد الزحام والإرباك فانقسمت الغرفة إلى قسمين: الأول يفترش الأرض لتناول الطعام، فيما تلوذ البقية بجزء من الغرفة، لكن الازدحام الحقيقي في الحمامات، بين داخلٍ وخارج.
أغلب السجناء كانوا يأكلون بأصابعهم، لا يسمح هنا بالملاعق، ومقابل سيجارة واحدة، يمكن لأحد الأفارقة أن يصنع ملعقة من البلاستيك، يقصّ قطعة ويلفها من الأمام على الجانبين، المهم أن تحمل شيئاً من الطعام. لكن عامر لم يكن مضطراً لذلك، أبو حيان لديه ملعقة حقيقية. إنما من البلاستيك، كانا يتبادلان استعمالها معاً لقمة، بلقمة..
بعد العصر، رضي النقيب خليل، فتح الباب مع دخول وقت العشاء، خرج الجميع إلى الساحة، عطشى للهواء النظيف، وتحريك الجسد بالدوران في الساحة، أو أداء بعض التمارين على عجل..وتمرير قطع الحشيش وجرعات الهيروين، ولن يمضي وقت طويل على ذلك، فموعد الإغلاق بعد ساعة ونصف على أكثر تقدير.

تلك الليلة، تدبر أمره في الحصول على مكالمة، لم يجرؤ على الاتصال بالمنزل لادراكه التام بأن الخطوط مراقبة، اتصل بصديقه الطبيب عزام، اطمئن منه على شام والأولاد:

-أنا في القسم الخامس.

-غداً ساتدبر أمر زيارتك .. تشجع.

في الغد، رتب أموره انتظاراً للزيارة، مرّ الوقت بطيئاً دون جدوى.. لم يأتِ أحد، وفي المساء استدعي إلى العيادة، وبعد أن تثبت الممرض من شخصيته قدّم إليه كيساً مليئاً بالدواء:

- زيارة من الدكتور عزام، استلم: مضاد حيوي، مسكن، بخاخات عدد اثنتان، شراب، حبوب..

حمل الدواء بين يديه، وعاد بخيبة كبيرة إلى القسم، وقد اسودت الدنيا في وجهه، ولم تعد لديه آمال بالحصول على زيارة، أية زيارة من أي شخص قريب منه، تخفف عنه متاعبه وتطمئنه على أسرته، وقبل أن يصل إلى القسم لحقه به المساعد عمر:

-عامر عبد الله.

التفت إلى الخلف فأشار إليه الإنتظار حيث هو، كان يحمل ورقة صغيرة بين أصابعه:

-ضمّ أشياءك، وتعال للقسم الرابع.. منقول.

ألم آخر فوق الألم، وخيبة أخرى فوق الخيبات! بلع ريقه، عضّ على شفته كي يذيب العبرة التي تخنقه، فلا تطفر دمعة من عينيه، تمالك نفسه وأجاب بهدوء:

-حاضر..

مضى الشرطي إلى جانبه، وانتظره عند باب القسم الخامس:

-أسرع.. لا تتأخر

لملم حاجياته بأسرع ما يتصور. كيسان صغيران أحداهما للملابس، والثاني لأشياء مختلفة، والفراش..لاشيء آخر. ودّع أبو حيان وفخري بصمت. كانا يطمئنانه أن الأمور ستكون بخير في القسم الرابع، وأنهما سيوصيان به هناك. ودعهما عند الباب بنظرة أسى ومضى رفقة الشرطي نحو قسمه الجديد، وقبل أن يدخله نبهه المساعد عمر:

-اذهب إلى الحجرة رقم واحد..تذهب لمشرف الحجرة سالم الفزة..مفهوم؟

اجتاز عتبة الباب الحديدي، وما أن أُغلق خلفه حتى شعر وكأنه يدخل السجن لأول مرة. لقد بدأ يعتاد على الحياة في القسم الخامس، وصارت الأمور بالنسبة له سهلة ويسرة، وهناك نوع من الحماية والأمان بوجود أبو حيان وفخري ومجيد . وقف

بباب الحجرة الأولى، نظر حواليه ثم توجه نحو أشخاص مضطجعين قبالة الباب مباشرة:
-أين سالم الفزة؟
تبادل الثلاثة المتجاورين النظرات بصمت، اعتدل الأوسط في جلسته وقال بجلافة:
-تعال !
مدّ عامر يده مصافحاً، وهو يحسّ أنه يقوم بشيء غريب هنا..وزائد. وضع فراشه وحاجياته أمامَ الفزّة، في الممر المؤدي إلى الحمام، وجلس فوقه، دون أن يبادله أحد الحديث.
كان سالم الفزّة طويلاً، ضخم الجسد، بدين أسمر اللون، شعره مشبع بالشيب، وكذلك شاربيه ولحيته، يدخن مثل أغلب السجناء بشراهة. وما إن ابتسم حتى بانت أسنانه الصفراء القليلة في فمه. كثير السعال، تفوح من جسده رائحة التعرق.
منظر الغرفة يثير الغثيان، كل شيئ فيها كئيب: الوجوه والجدران التي تعلوها شبكات العناكب. والحمامات الوسخة، الجلبة والفوضى، والأشخاص الذين يتحركون مثل أشباح، وكانهم مرضى مصابين بالسّل!
وقف على عتبة الحمام حائراً، في اكتشاف أسس التعامل مع مرافق هذه الغرفة، وهؤلاء الناس. التقت نظراته بعيني شاب أمامه، يسأله عن ماء الشرب. قاده إلى عمق الحجرة، دعاه بدماثة إلى الجلوس: الماء في الحمامات، لاتصلح للشرب.. انتبه. شكره وهمّ بالنهوض. فاستوقفه : إبقَ هنا الآن. أنا فائق.. جزيري، أخوك من الجزائر.
غابت الشمس، وبدات حملية الإغلاق، وقف جانباً حتى انتهى عدد السجناء في الحجرات الخمس. كان الشرطي الأول يعدّ الطابور، والثاني يتأكد من العدد بضربة عصاه على قفا كل سجين يمرّ أمامه باتجاه الغرفة. أما الثالث فيسجل العدد على الورق، ويقارنه بأرقام الصباح والأمس.
-أين الجديد؟
ارتفع صوت الشرطي ينادي. فرّد برفع اليد، لم يكن هناك أحداً غيره. عاجله بضربة مؤلمة على ساقيه: افتح فمك عندما تسمع من ينادي عليك، تعال هنا..
جذبه من أذنه، وأوقفه أمامه مباشرة قبل أن يسجّل اسمه، ويدفع به إلى الحجرة رقم واحد. وما أن أغلقت الأبواب، حتى كان الليل يرخي سدوله. وقف في عتبة الباب، وهو يستطلع طريقه نحو الداخل، أذهله منظر الإكتظاظ الشديد داخل الغرفة. كانوا ثمان وستين. والأن بدخوله صاروا تسعاً وستين سجيناً، وليس ثمة فراغ في أي مكان. أخذ كل شخص مكانه بسرعه، ولم يلتفت لوجوده أحد أبداً، حتى سالم الفزّة مشرف الغرفة، لم يعره أي اهتمام. اقترب من فراشه وجلس عليه. ولم يلبث أن أحس

بيد تربت على كتفه، رفع رأسه فإذا بفائق الجزائري يدعوه للإنضمام إليه. طوى فراشه، ثم مدّ رقعة قماشيه وضع فوقها حافظة للطعام، وأشار له، فاعتذر رغم جوعه.

-كل يارجل.. لاتهتم. مايجرى لك جرى لنا من قبل.. هيا، أين خبزتك؟

-بقيت في الخامس.

قطع الخبزة إلى نصفين، وشجّعه بابتسامة عريضة، على تناول طعام العشاء المكون من شوربة حمراء، مع بضعة قطع من البطاطا والجزر، وقطعة لحم صغيرة واحدة، أضاف إليه مثلثين من الجبنة وخلطها مع بعض، فأصبحت عجيناً خفيفاً متماسكاً لونه مائل إلى الأحمر!

أكل بصمت، ثم مسح فمه بظاهر كفه ونهض، اتجه نحو سالم الفزة يسأل عن المكان الذي سيأخذه، لم يجبه باديء الأمر، ظل واقفاً أمامه برهة، ثم جلس ثانية فوق فراشه، نظر إليه الفزّة بقرف، فتح فمه بتكاسل وقال:

-دبر رأسك..في مكانك.

تبادل النظرات مع فائق وسالم:

-لكن هذا مدخل الحمامات!

ندّت ضحكة ساخرة عن سالم الفزّة، وهو يدير وجهه باتجاه آخر، منهياً الحديث كلّية معه. كانت المسافة تزيد عن المتر طولاً وشبرين عرضاً، ساعده فائق على ترتيب المكان بتجفيف الماء، وقدّم له كيساً كبيراً من النايلون مده على الأرض، ثم طرح فراشه فوقه، ووضع كيس الملابس في المسافة المتبقية عند عتبة الحمام مباشرة. إلى جانبه يتمدد أبو القاسم التشادي، يغط في نوم عميق منذ أغلق الباب، أيقظه فائق كي يلصق الفراشين مع بعضهما البعض, ويترك ممر قدم واحدة باتجاه الحمامات للدخول والخروج. وما أن هم فائق بالذهاب إلى مكانه, همس في أذنه بكلمتين:

ـ أبي القاسم مصاب بالسلّ.. ضع رأسك على الجهة الأخرى، أو تدبر أمرك.

نزلت عليه الكلمتين مثل صاعقة، أن يضع رأسه على عتبة الحمام، فتلك مصيبة كبرى، وإن بقي وجهه بوجه أبو القاسم، سينتقل إليه المرض لا محالة! وكأن داء الربو لا يكفيه.. قال في نفسه، وهو يفكر في طريقة ينجو بنفسه فيها من الهلاك المحتم. وعلى عجلٍ حسم أمره، تمدد في فراشه فتجاوزت قدميه عتبة الحمام قليلاً..على الحافة الباردة الرطبة وضع قطعة القماش الوحيدة لديه، بينه وبين ابو القاسم، كي تمنع تبادل الهواء أثناء النوم.

ظلت عيناه مفتوحتان تحدقان في الأفق الضيق للحجره. هاله المنظر: لقد كان فضاء الغرفة مقسوماً إلى مستويين أفقياً من الهواء، رآه رأي العين.. كان دخان السجائر يشكل سحابة داكنة أعلى الغرفة، وعلى طولها. أما النوافذ فقد كانت ضيقة وعالية إلى

درجة لا تسمح بتجديد الهواء على الاطلاق. انطوى على نفسه وهو يردد قول الشاعر:

حَبستُ كما ضمَّ المهندَ غِمدُهُ وقيدتُ مثلَ القَرْمِ يضغطهُ العَقْلُ

5

الفجر..
جلس مقرفصاً منطوياً على نفسه، منكسراً، تحت شعاع الضوء الخافت المتسرب من كشّاف الساحة، عبر النافذة. كان مشبعاً بمرارة الوحدة في هذه الغرفة، التي لم يجد فيها شيئاً يبعث على الإطمئنان، السجناء نائمين باستثناء سالم الفزة واثنين آخرين، يقظين طوال الليل، يدخنون سجائر الحشيش، يتبادلون الأحاديث ويضحكون، دون أن يتحركوا من أماكنهم، كأنهم خشبٌ مسنّدة.
فجاة، حدثت جلبة فوق سقيفة الحمامات، وسرعان ما سقط أحدهم على الأرض، وقع فوق أكتاف عامر، كانت سقطة قوية أطاحت به فوق أرجل الآخرين، فدبّ الفزع في الغرفة جرّاء الصراخ، واستيقظ النيام يستطلعون الأمر. ووسط الزحام، زحف عامر على ركبتيه خطوات، ثم نهض، لم يُصب أحدٌ بأذى يذكر، سوى بعض الآلام التي يستطيع المرء أن يتحملها، كان الرجل الذي سقط ما يزال في مكانه، لا يقوى على الحركة، لحظات، ثم أخذ الجميع يضحكون ويتندرون للحادثة. كان "كعفاص" ثملاً، تفوح منه رائحة الكحول، وقد أفقدته الحبوب المخدرة، والحشيش مع التاكيلة، الوعي والتوازن. تقلّب فوق السقيفة ثم سقط. كاد يموت، ويقتل معه عامر، لولا ألطاف الله!
سُحب كعفاص نحو عتبة الحمام، وبدأ الماء يندلق على رأسه لإفاقته، فيما عاد الآخرون إلى زواياهم، دون أن يتوقف اللغط، والهمهمات التي تصدر من هنا وهناك.
-خلاص شباب..
رفع سالم الفزّة صوته، فسكت الجميع، وساد الصمت الغرفة، تمدد كعفاص على جانبه، وغط في نوم عميق، ولم تمض دقائق حتى كان شخيره يملأ المكان، ويقلق من حوله..
بدا القسم الرابع أكثر رحابة، قفصاً أكبر من القسم الخامس. إلا أنه شديد الإكتظاظ، يظهر ذلك جلياً ساعة الظهيرة عندما تكون الشمس عمودية فيهرب جميع السجناء إلى الحجرات والممر، حيث الظل والبرودة. أما عند العصر، فيضطر الجميع لمغادرة الغرف للنظافة، وتكون الشمس قد انسحبت قليلاً فينعكس ظل الجدار الغربي على الساحة، حيث يتجمع المئات، وتبقى المساحة المتبقية للعب كرة القدم. أما عامر فقد امضى معظم وقته مع فائق، يتعارفان ويحدث أحدهما الآخر، عن همومه.
تحدّث فائق بحزن ومرارة عن طفليه المصابين بالشلل، وعن الفقر الذي أوقعه في براثن تجار المخدرات، ليعمل شيّالاً للحشيش من الجزائر إلى ليبيا، فتم ضبطه عند

الحدود، أُلقي القبض عليه مع البضاعة، وحصل على حكم بالسجن ثماني سنوات، يكاد ينقضي نصفها، هو في السجن، وطفليه يكبران مع الألم والإعاقة، دون أن يتمكن من معالجتهما.

-وأنت.. ما قضيتك؟

تردد في البوح، سجين سياسي، في هذا الوسط الخليط بالجهل والجريمة والعدائية!

-ادعاء شعبي..

-قضية مصارف يعني؟

سأل فائق، فأسرع يؤكد استنتاجه:

-نعم.. مشكلة صكوك بلا رصيد، وتلاعب في الحسابات..

سكت وهو يختلق حكاية جديدة له، وعنه، ثم أضاف وهو يغيّر الموضوع:

-لكن أنا لا علاقة لي، سرقت الحقيبة في المطار، وضاع معها كل شيء.

-تطلع منها.. قضيتك بسيطة.

اعتقد أن فائق صدّق حكايته، وهذا ما أراده، كي يذيع خير قضيته بين السجناء الفضوليين التوّاقين لمعرفة سبب اعتقال هذا الوافد إليهم.. فيرتاح من إلحاحهم ونظراتهم، وأسئلتهم التي لا تنتهي، إلا أنه أدرك، منذ اليومين الأولين، ارتياب معظم السجناء به، فهو غريب جداً بالنسبة لهم، لا يدخن، ولا يتعاطى الحشيش، ولا يدوخ. كان تعبير الدوخة بمثابة كلمة سحرية أخاذة، فالكل هنا يدوخ.. إما بتناول الحبوب أو الحشيش أو الهيروين، أو ما يتيسر لهم من كحول.. أما عامر فهو بعيد عن ذلك، حريص على النظافة، لا يأكل مع أحد سوى فائق، ولا يشرب من أحد شيئاً على الاطلاق، وتلك وحدها كافية للإرتياب به، لكن ما زاد الطين بلّة هو استدعائه في العاشرة ليلاً من قبل الضابط المناوب، خرج قرابة الساعة وعاد، دون أن يعرف أحد سر خروجه، ومالذي جرى، لم يتكلم، وظلّ الأمر طيّ الكتمان.

أحس بنظرات الشك تدور من حوله، لكنه لم يبال، ولم يحاول أن يبدد وساوسهم، وما دام الأمر كذلك، سيظل الجميع خائفاً منه، ويحسبون لحركاتهم أمامه ألف حساب. لم يكن سعيداً بذلك، ترك للأيام أن تبدد المخاوف.

تلك الليلة استدعاه النقيب فرج بتفاهم مع أحد السجناء، أدخله إلى مكتبه خلسة وسمح له بالاتصال الهاتفي مع بيته، تحدث مع الكلّ براحة تامة.. شرب الشاي، وتبادل أطراف الحديث مع الضابط الذي كان ودوداً، دمثاً، ومتفهماً لظروف اعتقاله ومعاناته.

-غداً..غداً بالتأكيد سأزورك. قالت شام بحزم، وهي تطمئنه وتخفف عنه وطأة المصيبة، وتنقل إليه الحاح والدته في السؤال عنه.

كان صالح السجين الذي رتب أمر المكالمة، يعمل في ورشة السجن، يستطيع الخروج والدخول متى شاء، طلب من عامر أن يسجل على ورقة ما يريده من أشياء من البيت، وسوف يتولى إدخالها بنفسه، بصورة سرية. عاد إلى الغرفة، مرتاح البال، يملؤه شعور بالراحة، وسعادة تغمره، ما بعدها سعادة. كانت نسائم الليل الناعمة تداعب وجهه، القمر يتربع صدر السماء المرصع بالنجوم، وابتسامة عريضة غيرت ملامحه، ما أن أُغلق الباب عليه ثانية، حتى لزم مكانه، تمدد على الفور وأغمض عينيه، كأنه قابض على حلم جميل، وهو يمنّي نفسه بلقاء شام في الغد.
يكاد يلتصق بالباب، مرّ على وقوفه أكثر من ثلاث ساعات، ينظر من شق بين الباب والجدار، نحو الساحة العامة للسجن، التي تفضي نحو البوابة الرئيسية. وإذا ما فتح الباب لأمر ما، يمدّ رأسه إلى الخارج، وسط زحمة المتجمعين حوله، كل واحد يريد غرضاً ما من وقوفه، عامر ينتظر أن ينادي عليه أحد للزيارة، وثانٍ يريد التسلل إلى قسم آخر، وثالث يريد العيادة، ورابع يريد مراجعة الإدارة، وخامس يهرّب الحشيش والحبوب من تحت الباب.. الشق واحد، يتبادل الجميع النظر من خلاله.
لم تأت شام لزيارته، أو أنه لم يسمح لها بالزيارة على الأغلب، أصيب بخيبة كبيرة. في اليومين التاليين أعاد الوقوف طوال ساعات النهار، من الصباح حتى الظهيرة، دون جدوى، لم يناد عليه أحد، عاد إلى غرفته، انطوى على نفسه حزيناً، مكسور الخاطر. دمعت عيناه، فبادر إلى إخفائها عن الآخرين. كانت حرارة الجو ترتفع مع تقدم أيام الصيف، الكهرباء مقطوعة عن الأقسام، ولا توجد أية مراوح في الغرفة.. على خلاف القسم الخامس. كل ما هنالك ماء مالحة، ووجوه كالحة، حرّ شديد، وأبواب مقفلة، وعزلة تامة مفروضة عليه.
عصراً، وهو ممدد في برودة الغرفة، سمع صوت الباب يفتح، ثوانٍ وبدأت الأصوات تتناقل اسمه، ثمة من ينادي عليه، قفز من مكانه باتجاه باب الغرفة، فاصطدم بمن يهمّ بالدخول فوقع منه إناء الماء، أخذ الرجل يسبه بأقذع الشتائم، ويوبخه، والشرر يتطاير من عينيه، والرذاذ من فمه:
-افتح عينيك جيداً.. ما بك مسطول.. دايخ؟
ركض باتجاه الباب، فأشار إليه الشرطي بالخروج، كان صالح يقف جانباً، حيّاه على عجل، وهو يسلمه حقيبة:
-البيت يسلمون عليك، وحالهم جيد.
سأله إن كان يريد شيئاً آخر، أو أن أحداً يضايقه ويزعجه.
-ألا توجد طريقة للنقل من هذا القسم؟
-اصبر قليلاً.
قال صالح، ثم أضاف بصوت خفيض:

-أمورك إن شاء الله تنفرج قريباً، وزوجتك تعمل بجد ونشاط من أجلك.. وقد حضّرت ملفاً كبيراً من كتاباتك، وشهادات الآخرين لصالحك.
ثم سلّمه رسالة شام، وهو يحذره بالإنتباه نفسه، والابتعاد قدر الإمكان عن المشاكل، كي لا يجد نفسه في قسم آخر أكثر سوءاً، أو في الانفرادي.
ارتفعت معنوياته، تحسنت أحواله النفسية، فتلك الأخبار نزلت على قلقه وغليانه الداخلي، برداً وسلاماً. تنفس الصعداء، اعتدل في مشيته، مرفوع الهامة، منفوش الصدر، حمل الحقيبة واتجه نحو غرفته يجتاز السجناء المزدحمين عند الباب، وفي الممر، وهم ينظرون إليه وإلى حقيبته بإعجاب، ويلوّحون له بعبارات التودد:
-آنسوك.
تلك الكلمة تتردد في المكان، كلما زار أحدهم، أو وصلت إليه حاجياته مثله، وأن تصل إليه مساءً، وبهذا الشكل، فإن صاحبها مدعوم. وفي كل الأحوال فإنه يعيش بعض الوقت متفاخراً، متعالياً على الآخرين!
رائحة العطر الناعمة، هي لمسة شام الأخاذة، ما أن فتح الحقيبة حتى ملأت روحه المشتاقة، أخذ يتفقد محتوياتها: ألبسة داخلية وخارجية صيفية، مفكرة سنوية، أقلام، مناديل ورقية ملاعق وكؤوس بلاستيكية، مواد تنظيف، وقليل من الطعام والأدوية المسكنة، وضع الحقيبة عند فائق، لحمايتها من السرقة، وجلس يلتهم سطور الرسالة، حرفاً.. حرفاً. كانت تلك أول رسالة يتلقاها من شام.
أخرج حافظة الطعام، كان الرز المزين باللحم الناعم واللوز ما يزال دافئاً، مع سلطة اللبن والخيار، استلّ من الحقيبة مجموعة من الملاعق البلاستيكية الجديدة التي وصلت للتو، دعا فائق، وسالم الفزّة، وبعض ممن حوله. كانت وليمة فاخرة، أسالت اللعاب، وأثارت الإندهاش، كان سالم الفزّة يأكل كمن اكتشف منجماً للذهب، يأكل وكأنه في حلم.. لا يصدق ما يراه أمامه: رز باللحم واللوز!
تضاعف عدد المتحلقين حول مائدة الطعام، وكثيرون ممن يمرون بها، يأخذون ملعقة واحدة، يتذوقون بها الطعام القادم من وراء الأسوار: طعام الحرية! بعد وجبة الرز، تغيرت معاملة سالم الفزّة، وعلى الفور مال إليه وهو يتجشأ:
-أي خدمة.. انا جاهز.
مضى إلى مكانه، تمدد وهو يلفّ رجلاً فوق أخرى، منفوش الصدر، مثل ديك، فوق مزبلة.. وقد علا صوته الأجش وهو يطلب سيجارة، دون أن يتوقف عن التلمظ، ونكش أسنانه الصفراء، وتمشيط لحيته الكثة بأطراف أصابعه.
ما أن أغلق الباب بعد مغيب الشمس، حتى دبّ نشاط غريب داخل الغرفة، في الجهة المحاذية للباب والحمامات والسقيفة، ملأت رائحة الحشيش المكان بكثافة التدخين، وصار من لا يدخن، يشمّ، أخذ يشق طريقه من حين لآخر نحو نافذة الباب الضيقة

يعبّ من الهواء النظيف إلى حدّ ما، ويستعين ببخاخ الفينتولين كي يتجاوز أزمة الربو التي بدأت أعراضها بالظهور. كانت السقيفة مركز الضجيج، فقد استعار طارق مسجّلاً كبير الحجم من غرفة أخرى، وضع فيها شريطاً لمطربة شعبية تصدح بأغاني الراي المغربية، كان الصوت ضائعاً بين الموسيقا العالية، وضجيج السجناء، فبات مصدراً للتوتر والأرق، فلا مغنى..ولا من يحزنون!

لم يكن الأمر يحتاج إلى عناء، لمعرفة ما يحدث: لابد أن كمية كبيرة من المخدرات قد دخلت إلى الغرفة، ربع كيلو فقط من الحشيش، بحجم قطعة الصابون، كافية لإغراق القسم ليوم واحد، وجني أرباح مضاعفة، فيعم الكيف، ويدوخ الجميع. ظل الأمر كذلك حتى الفجر، فركن الكل إلى النوم، بعد أن ارتخت أجسادهم، واحمرت عيونهم، وذهبت عقولهم، وسلطنت أرواحهم حتى بلغت نشوتها.

طوال ذلك الوقت، جلس رضا إلى جانبه، يسامره في أحاديث شتى، وهو يتثاءب يتمنى لو ينهض ويمضي عنه، دون جدوى في الإشارة والتلميح، أو إغفاءة العين للحظات.

-سأذهب إلى تونس، وأقيم هناك. قال له رضا: والله لن أبقى في هذه البلاد ساعة واحدة.

-ألم تقتل!

-بلى.. ولكن، يا أخي مرّت على الحادثة اثنتي عشرة سنة..

كانت الحبوب تجعله يحس بالسعادة، وبالنشوة التي يحلّق بها في الفضاء مثل طائر. فيما الحروف تخرج من فمه متعثرة بالرذاذ:

-سأترك لك عنواني.. ولابد ان تزورني.

-أين ستقيم؟

-في نابل.. عند أخوالي.

-آ.. نابل! مدينة جميلة، ولنسائها جمال فينيقي!

-زرتها؟

-إلى حدّ ما.. لستُ بعيداً عن أجوائها. أعرف فنانة من هناك.

-أخ منك، يا أبو الفن.. أنت! من هي؟

-مغنية.. لكنها آسرة، عندما تعتلي المسرح، وتفرد حنجرتها، تبدو مثل بجعة برية، على ضفاف الروح..

أطلق عامر تنهيدة طويلة، وهو يتذكر الأيام الخوالي.. أيام الحرية، التي ولّت، وربما لن تعود!!

بعد تناول الإفطار، فتح باب الغرفة، دخل النقيب خليل، وأمر الجميع بالنهوض والخروج إلى الساحة فوراً، وظهرت من خلفه مجموعة من الضباط وعناصر

الشرطة، في مشهد غير معتاد. كانت السياط تلهب جسد كل من يتثاقل أو يتأخر في مغادرة الحجرة، فيقفز في الهواء مثل قرد، ويحك بشدة مكان السوط، متأوهاً، مقطب الجبين، راضياً مستكيناً مستسلماً لما أصابه، يدعو الله ألا تزيد جرعة التعذيب عن ذلك.

-تفتيش..

تناقلت ألسن السجناء الخبر، ولم يلبث أن لحق بهم شرطيان إلى الساحة، وصرخا بصوتٍ عالٍ:

-أنت وهو.. إخرس، كل واحد في مكانه.. ولا حركة، ووجوهكم على ذاك الجدار، يا كلاب.

ثم بدأ التفتيش الشخصي لكل سجين، كان العدد قليلاً، تسعة وستون، وخلال عشرة دقائق كانت هناك أكوام من علب السجائر، والأدوات الحادة، والأموال، جمعت في جانب من الساحة، وصودرت، وحين عثر شرطي على قطعة صغيرة من الحشيش في ثنايا بنطال أحدهم، أقام الدنيا عليه، ولم يقعدها:

-يا كلب يا حقير، تعال.. تعال هنا.

اقتاده وسط الساحة، وأمام الجميع انهال ضرباً عليه بيديه ورجليه، وبالسوط، صار السجين مثل كرة بين قدميه:

-قل لي الآن من أين حصلت عليها.

لم يتفوه.. لم يفتح فمه بكلمة، حاول أن يقي وجهه من الضربات المجنونة التي تنهال عليه بلا شفقة، كان الشرطي أشبه بكلب مسعور أعمى، أفقده صمت السجين واحتماله، أعصابه واتزانه، وهو يتفوه بكلمات نابية تخدش الحياء:

-ابن العاهرة، ابن الزانية، يالوطي.

فجاة، خرجت مجموعة الشرطة والنقيب خليل، هاله منظر الجلاد والضحية:

-اتركه!

ابتعد عنه الشرطي خطوات، وقف إلى جانب الضابط المناوب ،وأخرج من جيبه قطعة الحشيش وقدمها إليه:

-وجدناها عنده.. سيدي.

تناول القطعة، تفحصها بعينه، وأمر السجين أن ينهض:

-قف هناك.. هناك في الخلف.

استدار نحو السجناء، وأمرهم بالتراجع نحو الجدار المقابل وإعطائه ظهورهم، ثم نادى:

-سالم الفزّة..طارق صلّوح..

اشار النقيب خليل إلى مساعده، وطلب منه نزع ثيابهما. بقي الاثنان عاريان بسراويل داخلية. ثم أصدر أوامر بهدوء.
-حلاقة على الصفر، وإلى الانفرادي.. كل واحد في زنزانة لوحده.
ما أن اتجه النقيب والشرطه نحو باب القسم مغادرين,، حتى تدافع السجناء نحو الغرفة، يستعجلون الوصول إلى أشيائهم. كانت الحجرة مقلوبة رأساً على عقب، الفرش والأغطية مبعثرة، الحقائب مفتوحة وفارغة. لاشيء في مكانه. انصرف الجميع للبحث عن حاجياتهم والتقاطها قبل حدوث السرقات المؤكدة، في حالات مثل هذه. وفيما بدأت أصوات الخلافات تعلو، اتجه عامر نحو حقيبته وكيسه. كان كل شيء يخصه ، في مكانه تماماً. الحقيبة على الأرض فقط. لم تفتح، ولم يمسها أحد على الأطلاق. تنهد براحةٍ ورضى، وانصرف يُعين فائق والآخرين على توضيب فرشهم وأغطيتهم..كان ذلك جلّ مايستطيع القيام به، في هذه الفوضى العارمة، التي لم يشهد مثيلاً لها من قبل.
بعد قليل، انكشفت الحكاية.. كان طارق صلوح يحضّر للفرار! وضجيج الليلة الماضية، الأغاني،الحشيش، والحبوب المخدرة. تمويه لعملية حفر الجدار التي كان يقوم بها فوق السقيفة منذ عدّة ليال. يشعل السخانة الكهربائية ثم يلصق وجهها الملتهب بالجدار لدقائق، وبعد ذلك يصب الماء، فتصبح طبقة الإسمنت الرقيقة هشة، يسهل تفتيتها بأية أداة حادة. وعند الصباح يملأ الحفرة بالصابون، يُسدل على الجدار ستاراً، ويعلّق عليها صورة الزعيم بانتظار الليل، ليبدأ الحفر من جديد!
-ثمة من وشى به.
قال فائق، وهو يشرح ما حدث.
-لا أحد غريباً عنهم.. منهم فيهم، والوشاية تمت عند تقديم الإفطار.
أخذ الفضول يلعب برأسه، فتقدم نحو السقيفة. صعد على حجر الحمّام، ومدّ راسه يرى مكان الحفر. لم يستطيع أن يميز شيئاً دون إرشاد الآخرين المتجمعين حول السقيفة، يتندرون على طارق وسالم الفزّة، وسهرة الأمس. فيما ادرك عامر متاخراً سرّ مسامرة رضا له لإشغاله عما يجري فوق، لأنه كان الوحيد الذي لايدوخ، بين أكوام المساطيل!

6

الثلاثاء السابع من تموز. السابعة صباحاً، خطى عامر في الطريق المشمسه عبر الساحة، نحو البوابه،سترته السوادء على ساعده. هادئ، يتلو في صدره آيات قرآنية، وأوراداً، يتضرع إلى الله أن يأخذ بيده في محنته هذه!
وقف في طابور النيابات، استعداداً لترحيله إلى المحكمة، لحظات ولحق به الملازم عادل:
-مااسمك ؟
-عامر عبدالله.
-قضيتك ؟
-ادعاء..
-أعرف ادعاء.. ماهي قضيتك, ما التهمة؟ قال بنزق.
-سياسي. أجابه ببرود ظاهر..
نظر إليه الضابط من أسفل إلى أعلى. أعاد التدقيق في شكله، وقد أصابه الجواب القطعي والمفاجئ بالدهشة. تمتم بكلمات مبهمة، تركه ومضى.. أدرك أن أناقته، عطره، والسترة المطوية على ساعده مثل الأكابراستفزته، فاندفع نحوه. لكن كلمة "سياسي" أوقفته عند حدّه، وأبعدت شرّه..
في السيارة التقى المهندس بشير وأخيه ثابت. وإلى جانبهما جلس داخل قفص محكمة الشعب الإستثنائية. وأمامه كانت القاعة تغصّ بالحضور، أكثر من مائة شخص على المدرج. وقرابة ثلاثين محامياً في الصفوف الأولى..وثلّة من عناصر الشرطة والأمن، يدورون بين الباب والقفص. وعلى البعد، في آخر القاعة، لمح عامر ثلاثة من رجال الأمن الذين استجوبوه- فيما سبق- التقت عيونهم، فلّوح له "الحاج" بكفه..
نظر إلى صفوف المحامين, يبحث عن فريق الدفاع. لم يجد أحداً. هناك اثنان من اصدقائه, تبادل التحية والنظرات معهم. وعلى مقربة منه, في مقدمة الصف الأول، تجلس محامية شابة، نظر إليها تملّى وجهها المستدير. عينيها الواسعتين، شعرها الخرنوبي المنسدل على كتفيها، يضفي جمالاً مميزاً على ثوب المحاماة. حانت منها التفاتة نحو المتهمين داخل القفص، فالتقت العيون مع بعضها. غضّت الطرف وأدارت وجهها نحو منصة القاضي..نظرت ثانية إليه، فالتقطت عينيه نظرتها، فأربكتها..وطوال الوقت ظلاّ يلعبان:نظرة بنظرة، ولمحة بلمحة.
كان الموقف صعباً ومؤلماً. وعامر يفكر في مقامه هذا، خلف قضبان المحكمة، فيما يسمح لنفسه الأمارة بالسوء بمعابثة المحامية الجميلة!

أخذت القاعة تفرغ تدريجياً من متهمين ومحامين، نظر القاضي في كل القضايا المنظورة أمامه، وبقيت قضية عامر. طلب القاضي من الجميع مغادرة القاعة، معلناً بدأجلسة سرية. ونادى بصوت بالكاد يسمع:

-عامر عبدالله.

هبّ واقفاً داخل القفص. نهضت المحامية الشابة من مكانها واتجهت نحوه، يسبقها صدرها النافر الرجراج:

-هو ..أنت!

-ماذا؟

-أنت موَّكلي!

-وجه حسن، وحظ عثر، في مكان عفن..

-ماذا قلت ؟

-آه..قلت كيف ستجري الأمور؟

-سأطلب التأجيل.

انسحبت إلى مقعدها في القاعة الفارغة التي لاتضّم إلا محام ثان، وشرطي الحراسة، وعناصر المخابرات الثلاثة. أنيرت القاعة بأضواء كاشفة.. فتح باب القفص، واقتيد نحو المنبر على بعد خطوتان، قريباً من منصة القضاة. وقبل أن يبدأ الاستجواب، أخذت أجهزة التصويربتسجيل الوقائع:

-اسمك، وسنّك، وعملك ؟

فتح القاضي فمه أخيراً بعد صمت قاسٍ.

-أنت متهم بالإضرار بمركز البلاد السياسي والعسكري.

-أبداً..

-أنكر الإتهام. أنت متهم بافشاء أسرار تتعلق بأمن الدولة.

-أبداً.. على الاطلاق.

-أنكر الإتهام.

أمر القاضي بإعادته إلى القفص. سؤالين فقط وانتهى استجوابه. ثم سمح للدفاع بالحديث. وقف المحاميان إلى جانب بعضهما البعض، حددا بهدوء واختصار مطالبهما:

-نريد الحصول على ملف القضية.. ثلاثة اشهر ولم نتمكن الإطلاع عليه، أو الحصول على نسخة منه.

-يمنح الدفاع نسخة من الملف.

-نطلب مهلة لدراسة القضية.

-تدبروا أمركم في ذلك.

قال القاضي رافضاً اعطاء مهلة لفريق الدفاع للدراسة، وإعداد الدفاع اللازم. شعر عامر بغصّة في حلقه، وهو يلاحظ تسلط القاضي..وضعف المحامين أمامه !صمت قليلاً، وهو يقلّب الأوراق بين يديه، ثم نطق:
-تؤجل المحاكمة خمسة وأربعون يوماً، وتحجز الجلسة القادمة للمرافعه.
حاول المحاميان ثنيه عن قراره. فأسكتهما قبل أن يكمل أحدهما جملته الأولى:
-رفعت الجلسة.
نهض القاضي من مقعده، استدار وخرج من الباب الخلفي للقاعة، يتبعه المستشارون والمحقق. لم تستغرق الجلسة أكثر من عشرة دقائق..وقف المحاميان أمام القفص، والأسف بادٍ على وجهيهما. تردد المحامي في الكلام..تجنب النظر إلى عينيه ثم قال:
-لاتهتم.. ستجري الأمور أفضل في الأيام القادمة، ما أن نتسلم ملف القضية.
ضغط بأصابعه على كفه الملتفة حول قضبان القفص. شجعه على الاحتمال، ثم غادر القاعة. تطلع نحو المحامية،وسألها عن شام .
-لم تصل بعد، لكن سلام تنتظر في الخارج. سأرى إمكانية دخولها.
مضت المحامية، واقتيد نحو الممر، دقائق مرت كأنها دهر، ثم أطلّت سلام. تعانقا بصمت..همهم:
-أين شام؟
استبدّ به القلق وهو يرى غيابها، وتملكه خوف شديد أن يكون المرض قد أقعدها عن حضور المحاكمة، أو الزيارة!
-لابد أنها في الطريق إلى هنا.. لم نعرف مكان المحاكمة.
مسحت دموعها وهي تقول إن أحداً لم يخبرهم بالمكان الحقيقي، فاضطرتا للمرابطة في مقري محكمة الشعب! حاول الشرطي التدخل لإنهاء الزيارة، لكن المحامية صدته:
-لدينا إذن رسمي بالزيارة، من المحكمة.
لوحت بإصبعها في وجهه، ثم أضافت:
-وزوجته ستزوره أيضاً.
نظر الشرطي باستغراب لعامر وسلام والمحامية:
-ومن هذه إذن؟!
-وما دخلك أنت؟.. قلت لك عندنا إذن.
شام وصلت أخيراً، لاهثة، تجرجر رجلها اليمنى المتعبة، قفز إليها يحتضنها إلى صدره، يربّت على ظهرها بكفه، قبّل رأسها، جبينها وعينيها المغرورقتين بالدموع، سحب منديلها من بين أصابعها، مسح دموعها، قبّل المنديل ودسّه في جيبه، دفنت رأسها في صدره، وهي تتشمم رائحته، هامسة بشغف:

-اشتقت لك..اشتقت كثيراً..
-وأنا أيضاً..
-بيتك ينتظرك..وأولادك، كتبك وطاولتك..ستعود لهم.
قالت بحزم، وعيناها تبوحان بإصرار وعزم، لا مثيل له، لتجاوز الأزمة. أمسكت بكفيه، ضغطت على أصابعه، فتغلغل الدفء يسري في جسده، رفع يدها إلى شفتيه وقبلها، وهو يوصيها بنفسها وبالأولاد. دمعت عيناها مجدداً، وهي تنكر عليه ما يقول، لا تريد أن تسمع كلاماً كهذا، رفعت رأسها نحوه، وحدقت في عينيه. ضمّها إلى صدره، ربت على كتفها وهو يطمئنها. سكت قليلاً، ثم أضاف يسألها عن المحامين الآخرين.
بدا الإرباك واضحاً على محياها، رمت نظرها جانباً، تلعثمت وهي تحاول الإجابة، بكلمات مقتضبة انهما أصبحا شاهدين في القضية، طلبتهما المحكمة للشهادة، فأجبرت على إلغاء التوكيل.
لم يكن بحاجة لمزيد من الشرح، ليدرك أن المخابرات أكرهتهما على الإنسحاب طواعية، وكلاهما سجينان سياسيان سابقان، ومجازفتهما من أجله، ليست سوى حماقة، قال لنفسه هو يهزّ رأسه أسفاً، لسطوة الجلادين التي لا تعرف حدوداً.
أُنزل السجناء من مبنى المحكمة، نحو الساحة الخلفية المسيجة، وخلال ذلك الوقت جلبت سلام شام وسلام، الماء والمشروبات والوجبات الخفيفة السريعة التي تقاسمها مع رفاقه. ظلت شام برفقته دقائق قليلة، حتى وصلت سيارة السجن، أرسل لها قبلة وابتسامة عبر الهواء، وما إن همّ بالصعود على درجات الصندوق الحديدي الرمادي الكبير حتى استدارت إلى الخلف، كي لا تراه يدخل الصندوق، الذي سيغلق عليه. التصق بالباب، وبالنافذة الصغيرة التي تعلوه، وهو يراقب حركتها، لم تنظر نحوه إطلاقاً، ظلت مستديرة للخلف حتى سمعت صوت عربة السجن، تتحرك وتبتعد، فاتجهت نحو سيارتها، دون أن ترمي ولو نظرة بعيدة على الحبيب، الذي أدمى غيابه قلبها الصغير وأتعبه.
كانت عجلات الصندوق الرمادي تلهب إسفلت الطريق في ذروة القيظ، الساعة تقترب من الثالثة بعد الظهر، الشوارع خالية، والسائق ينطلق بسرعة جنونية أربكت السجناء وأقلقتهم، كانت السيارة تميل مع الإنعطاف، وتهتز بقوة، تكاد تنقلب حينما تتجاوز عربات أخرى، فتصعد فوق رصيف الوسط، لينقذف السجناء داخل الصندوق من جانب الآخر. فلا شيء يمكن التمسك به سوى قضبان الشبابيك القليلة، الضيقة والقصيرة، لقد أفسد السائق بهجة السجناء في تملّي وجوه النساء العابرات في الطريق، والفتيات المتسكعات على سياج الجامعة، المتمايلات بأجسادهن كأغصان الرمان، عندما تهبّ الريح..

في كل مرّة، عندما تصل السيارة مدخل الجامعة، تضطر لتخفيف السرعة، أو التوقف عند إشارة المرور، فيتزاحم السجناء على الشبابيك العالية الضيقة. ولكن هذه المرة، كانوا يتدافعون لحماية أنفسهم من السقوط، أو الإرتطام بالحديد!
انحرفت السيارة نحو اليمين بزاوية شديدة الانعطاف، ثم توقفت فجأة، لترتد عجلاتها إلى الخلف ثم تثبت بالفرامل الذي أصدر زعيقاً عالياً امتزج مع منبه السيارة المتلاحق، فتح الباب الرئيسي لمجمع السجون فانطلقت العربة نحو الداخل الترابي، مائة متر، ثم ترجل السجناء واحداً.. واحداً، وأخذوا يعبرون البوابة الثانية والأخيرة، وقف الجميع حذاء الجدار..مرّت لحظات ثم أطلّ العقيد مسعود، نظر بعينين حمراوين وأوداج منفوخة، وجبين مقطب نحو سجناء النخبة، سجناء محكمة الشعب.
ثم أمر الشرطي بإجراء تفتيش شخصي للجميع، ومصادرة كميات الحليب والتمر التي يحملها الذين التقوا بأقاربهم إثر جلسة المحاكمة. كان عامر في مقدمة الطابور، ظل ممسكاً بوجبة الغذاء، وعلبة المشروب والماء، لم يقترب منه المدير، ولم يصادرها، بل إنه أبقى على المبلغ المالي القليل بحوزته، عدّ الشرطي النقود أمامه، ثم أعادها إليه.
أفلت الطابور في الساحة باتجاه الأقسام، بانتظار المفاتيح، مضى بخطوات هادئة، وسط الساحة نحو القسم الرابع، وقبل أن يصل إليه بثلاثة أمتار انحرف يساراً نحو القسم الخامس، دخل الممر، ووقف عند الباب، قال له الشرطي وهو يضع المفتاح في القفل:
-أنت من الخامس؟ شكلك يقول لي أنك لست من الخامس.
-لن أتأخر.. قليلاً من الوقت فقط.
-معك ساعتين..
وما أن همّ بالدخول، حتى استوقفه، وهمس له:
-هات معك علبة دخان.
أخيراً دخل القسم الذي غادره، قبل أكثر من شهر، خطا في الممر المزدحم ببذلته السوداء الأنيقة، وسط تحايا وسلامات السجناء، والسؤال الإعتيادي الذي لابد منه، والجواب الذي يتكرر ذاته: تمديد شهر ونصف.
وضع وجبة الغذاء أمام أبو حيان، ونهض: أنادي فخري، يتغذى معنا.
-اتركه..نائم الآن.
جلس يزدرد لقيماته على عجل، مسح يديه بمنديل، ثم سكب في جوفه كأساً من الشراب، وذهب إلى حجرة فخري، وقف بالباب ينظر إليه، كان ممدداً في مكانه، يغطي جسده بقطعة قماش خفيفة، اقترب منه أكثر، وأخذ ينصت لأنينه الخفيض، سعل وتقلّب فانحسر طرف الغطاء عن كتفه العاري، مدّ أصابعه يعيد الغطاء، ففتح

عينيه بتثاقل، ثم أسبل جفنيه مرحباً به، وتأوه بصوت حزين يكويه الألم، حاول أن يعتدل، لكنه منعه من النهوض، جلس عند قدميه، فأشار إليه أن يعطيه كيس الشحاطة،
لفّه جيداً بأصابع مرتعشة ثم دسّه تحت الوسادة، ليرفع رأسه قليلاً. بالكاد قال أنه متعب، كان صوته خافتاً متحشرجاً، وجسده منهكاً، ازداد نحولاً، ووجهه شاحب يميل إلى الإصفرار.
-ألم تراجع الطبيب.
-طبيب؟
أجاب بتهكم، وهو يحرك رأسه يمنة ويسرة. أحسّ عامر، لأول مرة، بالكآبة تشي بها ملامح فخري، وبكلماته المشبعة باليأس، وبنفسه المحطمة، أخرج منديلاً من جيبه ومسح له جبينه، جفنيه، ووجهه حتى رقبته وخلف أذنيه.
-ما الذي يؤلمك؟
-كل شيء.. كل جسمي، لم يعد بي شيء سليم..كليتاي تؤلماني، ظهري، يداي، قدماي.. بالله عليك، هل ظل شيء فيّ لا يوجعني؟
-ألم تحصل على دواء؟
نهض خارجاً من الغرفة، مضى بسرعة نحو أبو حيان، وطلب منه بصوت خفيض أن يعطيه كيس الدواء الذي أودعه لديه من قبل، تلكأ وبدا صوته مربكاً، متردداً بعض الشيء، وهو يخرج الكيس:
-والله.. لا أعرف إن بقي شيء منه..أعطيت منه للجماعة.
مدّ يده وأخذ الكيس، فتحة وفتش محتوياته، لم يبق منه سوى شريطين وشراب السعال، وبخاخة فنتولين، أخذ شريطي الحبوب، أعاده وهو يرجوا أبا حيّان ألاّ يتصرف بما تبقى منه، وقفل راجعاً إلى فخري، وقدم إليه المسكنات. لمعت عيناه فرحاً، جرى الدم في عروقه، وعلت الابتسامة شفتيه، تبدلت ملامح وجهه، وضع حبتين في فمه وابتلعهما.
-قل لي، ما حكاية هذا المرض؟
سحب الغطاء عن صدره، أشار له أن يرى، ثم تحرك إلى جنبه الأيمن، وقبل أن يعاود الإستلقاء على ظهره، إغرورقت عيناه وهو يتمتم:
-أرأيت؟
هاله ما رأى، لم يتمالك نفسه، فندّت عنه صيحة استنكار خافته، مخنوقة، أغمض عينيه لحظات وأشاح بوجهه، كان المنظر غاية في البشاعة، مثيراً للإشمئزاز، وآثار حروق ظاهرة على جانبيه قريباً من موضع الكليتين، وعلى صدره..
-خيرات التعذيب..

قال ساخراً، ثم مدّ ساعديه، وكشف الغطاء عن قدميه حتى أعلى الكعبين، ثمة آثار واضحة تماماً للتعذيب والأصفاد في معصميه ورسغيه!
-وهذه أيضاً.. كانوا يحمّون القيود، ثم يضعونها في يدي ورجليّ. الكلى أصيبت بسبب الصدمات الكهربائية، وأحتاج الآن إلى عناية مركزة: غسيل كلى، مسكنات مركزة للألم، أما الباقي فقد تسببت فيه كابلات الضرب، وأعقاب السجائر.
صمت قليلاً، وكأنه ينتظر وقع كلماته على مسمع عامر، أو أنه كان يتذكر ما حدث له:
-بقيت مقيد اليدين والقدمين، واحدٌ وتسعون يوماً. أكثر من ذلك، القيد الرباعي، والتعذيب ليلاً نهاراً، لا يساوي شيئاً أمام الإهانات المتعمدة، والتحقيق الذي أرهقني.
-لماذا كل ذلك؟
-لأنني اعترفت بكل شيء مبكراً..
-بماذا اعترفت؟
-بالتحضير لانقلاب!
فوجيء بما يقوله فخري، أربكته الصدمة التي رماها في وجهه، وأدهشته أكثر جرأته في البوح، علناً عما يؤمن به، أو يفكر فيه، دون خوف من المخبرين الذين يملأون السجن، مثل الصراصير، والفئران.
لم يقل فخري سوى بضعة كلمات، أما بقية الحكاية، فقد كانت لدى عامر، لكنه لم يكن يعرف أن فخري أحد أبطالها، ومع ذلك، فقد احتفظ بالسر في دخيلته، لم يبح به لأحد، ولا لفخري نفسه، قبل أن يدخل السجن ويتعرف إليه، ويأكل ويشرب معه.
-انقلاب يا فخري! وها انت تشكو مما صرت إليه.
-لكني لم أشكو أثناء التعذيب، ولم أطلب الرحمة.
-أضررت بنفسك!
-وربحت نفسي..
صمت قليلاً، نظر إلى السقف، وأضاف:
-عندما كانوا يوغلون في الحقد.. كانت لدي الشجاعة لأعترف، بأعصاب باردة، وهدوء، وقناعة بكل كلمة بحتُ بها.
-بماذا؟
-أنني أكرههم.. أكرههم حتى العظم!

7

صبّت كأسين من خمرة حمراء رقراق، واقتربت منه بخطوات مغناجه، قدمت إليه كأساً، رفعت نخب خلوتهما، ثم جلست في حضنه ومدت جسدها شبه العاري فوق الأريكة. تحسس بأصابعه فخذها المكتنز، تجرع كأسه دفعة واحدة حتى الثمالة، ورمى به فوق السجادة، أدار وجهها نحوه، تلمّس خديها وشحمتي أذنيها ورقبتها، مطت جسدها فارتفع رأسها قليلاً، ثم هوت بشفتيها تعتصر شفتيه، أحاطت رأسه بساعديها، فدفن ألنفه في خندق النهدين، يعبّ من رائحة الجسد الفوار المشتعل. تلوّت بين يديه، ارتعش جسدها، وندت عنها تأوهات خافته، ثم انسلت بهدوء إلى جانبه، تشرب كأسها، جذب خصرها إليه فانتفض صدرها، وعلت ضحكتها الصاخبة، تكسر صمت المكان:

-يكفي.. سيأتي الضيوف.

-ما يزال لدينا وقت كافٍ..

نهض فخري من مكانه واتجه نحو المكتبة، انتقى قرصاً مدمجاً، ضغط على مفتاح التشغيل، فأخذت الموسيقى تملأ فضاء الغرفة بروحٍ جديدة، بدأت موسيقى تشايكوفسكي تعلو.. اقترب من مليكة مدّ يده إليها، فنهضت تراقصه على أنغام بحيرة البجع.

جلس في الركن ينصت للموسيقى، وأمام ناظريه في الركن المقابل، تقف مليكة على الطاولة تصب الخمر، تمعّن في تضاريس الجسد، في قوامها الممشوق، جسمها الممتليء، نهديها الكبيرين، رقبتها الطويلة ووجهها البيضاوي، سمرتها الشفافة المشبعة بلون قرمزي، والكأس التي تحملها، ترفعها إلى شفتيها، وترشف منها، تضفي على جمالها بريقاً لا يوصف، وإنما يستطيع أن يتذوقه في الشفتين الجائعتين.. على الدوام.

نهض إليها، أخذ الكأس مع قبلة، فاحتضنته ضمّت إليها جسده النحيل. بطوله متوسط القامة. ووجهه الصغير بتفاصيله الناعمة: الأنف، والفم.. يكاد يضيع في صدرها، أمسك بيدها واتجه نحو البستان.

رمت على كتفها عباءة ملونة، فأنسدلت على جسدها العنابي، فرشت شعرها ولحقت به. كانت المزرعة تمتد أمام ناظريها دونما حدود، مدى من الأخضرار يلتقي مع صفحة السماء الوردية، وقد آلت الشمس نحو الغروب. على البعد تبدو أشجار الزيتون، ومن الجهة المقابلة، بيارة البرتقال. دخلا بين أشجار اللوز، كان عطر

زهيراتها يفوح قوياً مع المساء، يملأ المكان بأريج ساحر، يترك في الروح خدراً ناعماً ولذيذاً.
ـ ما هي أخبار الصيدلانية؟
سألته، قطعت عليه انسيابه الحالم بين خطاها، وعطر اللوز، والكأس التي ملأت رأسه نشوة أثقلته.
ـ أخبارها جيدة!
ـ إذن..نجحتَ.
ـما زالت عصية يا مليكة.
ـ إصبر.. إصبر عليها ولا تغب عنها.
وراء السور، علا زعيق السيارة، ومن بعيد ظهر الحارس بجلبابه الأزرق الداكن الفضفاض، وعمامته البيضاء، يفتح البوابة للضيوف.
ـ ألن تغاري منها..
ـ لماذا؟.. كل واحدة ولها نصيبها.. وممكن نصير أحباب.
ـ معقول..!
ـ رزان جميلة.. وغداً أذهب وأتعرف إليها.
على مقربة من الدار، توقفت السيارة وترجل منها شابان وفتاتان، وقبل أن يصلا إليهم، أفرغوا العربة من أكياس الخضار واللحوم، والمشروبات. لوحت بيدها ترحب.
ـ أووه.. مليكة أنت هنا؟!
ـ لتعدّ النساء العشاء والسهرة.
قال أنوروهو يصافح فخري، ثم التفت إلى زميله، وهو يرسم دائرة بسبابته:
ـ عمر.. ما رأيكم أن نقوم بجولة في المزرعة، قبل أن يخيّم الليل.
اتجه الثلاثة يقطعون المزرعة، نحو جنوبها الشرقي مارين باشجار اللوز والبرتقال، دون أن يتوقفوا عن الحديث.
ـ ما رأيكم بهذا المكان؟
ـ كم يبعد عن السور؟
-مسافة لابأس بها.. ثم أن المزرعة المجاورة مهجورة، والمكان بعيد جداً عن الطريق.
-الأرض لا تكفي، لا بد من قطع شجرتين.
ـ نبدأ غداً، العمال ومواد البناء عند عمر، وأنا الحداد.. وخلال أسبوع يكون كل شيء جاهزاً.

تحرك الثلاثة، يعودون أدراجهم. كانت الشمس قد غابت، وبدأت خيوط الليل تنسج رداء العتمة، وأخذت النسمات الباردة تنسرب تدريجياً، تتمايل معها أغصان الأشجار، ويرتفع حفيفها.. يقطع السكون، فيما تتسع خطاهم ـ صامتين- نحو الدار والدفء والنساء اللواتي تشتعل في دواخلهن، جمرات الشبق الأبدي.

أُنجز البناء على عجل، بأسرع وقت وأقل تكلفة، وفي سرية مطلقة..غرفة صغيرة، مع مكتب خشبي قديم،ومقاعد بلاستيكية. دورة مياه وثلاثة زنازين إنفرادية بدون نوافذ، تضمّ فراشاً وغطاءً ووسادة. أبواب حديدية، أقفال، أصفاد وسلاسل!

كانت المجموعة التي بدأت تكبر، وأصبح عددها أحد عشر، ممن ينتمون إلى أجهزة أمنية، ضباطاً من رتب صغيرة،شباباً في مقتبل العمر، قد رسمت لنفسها طريقاً يحقق لها الثراء السريع، دون مشاق:

ـ أنا أحدد الهدف. وأضع الخطة. قال فخري لزملائه، وأضاف: سأظل بعيداً، وأنتم تنفذون أثناء أوقات العمل، وخلال تأدية المهام الرسمية.

أخذت المجموعة تنتقي أهدافها من رجال الأعمال الأجانب المقيمين في البلاد، من التجار والمقاولين. يطرقون الباب، يداهمون المنزل ثم يقيدون الهدف، ويفتشون الغرف. يقلبون محتوياتها رأساً على عقب، يصادرون الأموال والمجوهرات.

يعتقلون صاحب البيت ويغادرون به إلى المزرعة، يرمون به الليلة الأولى في الزنزانة المظلمة الباردة دون طعام. يحققون معه في الصباح، يوجهون ما يشاؤون من اتهامات..ثم يجبرونه على توقيع تعهد بالالتزام بقوانين الدولة، وعدم مطالبته بما تمّ مصادرته من أموال ومجوهرات..وبعد ساعات يرمون به في أحد شوارع المدينة الجانبية، يمزقون أوراق التحقيق والتعهد، تتعالى ضحكاتهم وهم يتقاسمون المسروقات ويخططون لأهداف أخرى، وسهرات ماجنة مع مليكه وحسناء، وماجدة.. وأخريات جديدات، من أكثرهّن أناقة ورشاقة الصيدلانية رزان.

في كل مرّة يصطادون فيها ضحية، يظهر فخري في اللحظات الفاصلة، بين الليلة الطويلة في الزنزانه، وبين التهديد المستمر بالتعذيب.

-أنت غريب..وكيف فعلت كل هذا ؟

-ياسيدي أنا لم أفعل شيئاً خارج القانون.

ينظر إليه فخري بعيني ثعلب ماكر، وبابتسامة تبوح بالسخرية:

-يارجل.. كلكم تقولون نفس الكلام، وتبوسون الأيدي والأرجل، عندما تسقطون في أيدينا.

يصمت قليلاً، يدور حوله، ثم يسأله بوادعة ولطف:

-إذن.. من أين لك بكل تلك الأموال والحليّ؟!

-والله، إنها من عرق جبيني.

-انظر في عينيّ، أنا أصدق كلامك، لكن الآخرين..
-أرجوك يا سيدي..تكلّم معهم.
-وإن تدبرت الأمر لك.
-لك ما تشاء.
-رشوة.. يعني؟
-العياذ بالله.
يغادر فخري الزنزنة، يسود صمتٌ تام في المكان الموحش، الخوف والهلع يمزق روح الضحية، ترتعد أوصاله طوال الوقت، ويرتجف، ساعتان ثلاثة، أو يومان، ثم يعود إليه، يمثل الضحية أمام المحقق، وهو إلى جانبه:
-إقرأ التعهد، ووقع عليه.
-تعهد بماذا؟
-سنطلق سراحك، ولكن بشروط.
-أنا موافق.. موافق يا سيدي.
يوقع دون أن يقرأ، يفهم ما هو مطلوب..يتنازل عن كل ما صودر منه، ويطير في شوارع المدينة نحو بيته، مثل عصفور يتمسك الآن بشيء واحد فقط: قشّة، لا غير، ينجو بها من المجهول! يغلق فمه، يبلّغ السفارة بالأمر سراً إن قدّر له، ثم يرحل من البلاد، في ليلة بلا ضوء قمر!
نظر عامر بذهول واستنكار إلى فخري:
-لماذا فعلتم ذلك؟
-نحن بحاجة إلى المال.
-والدولة.. أين كانت؟
-كنا نقوم بأعمال مماثلة، في مهمات استخبارية، وكل شيء يذهب للدولة، فكرنا بالعمل لأنفسنا..لا أكثر!
-لا أصدق ما تقوله يا فخري.
-نحن لم نفعل شيئاً.. أمام ما كنا نُكلّف به.
-لكن ذلك غير مبرر..إطلاقاً.
-الآن انتهى كل شيء. الدولة تخلّت عنا.. لأننا أشرنا إلى طبيعة مهامنا، أثناء التحقيق.
-أنتم أخطأتم، ما فعلتموه جرائم!
-الغاية تبرر الوسيلة.
-ميكافيللي!
-وكتاب الأمير، أثير لديّ.

-عينيك على السلطة.
-بنهم، وشهوانية..لا أستطيع الفكاك منها، وأنا في السجن...
-دوّختم أجهزة الأمن..حتى قبضت عليكم.
-أبداً.. لا داخت، ولامن يحزنون. كانوا يعرفون كل شيء.
-إذن؟!
-اعتقلونا لسببين: أولها أن أحد الضحايا تعرف إلى واحد منا بالصدفة، فأبلغ السفارة، والثاني أنا..لقد اعترف أنور بطموحي، وقدّم لهم وثائق كنت أحتفظ بها لديه، والجميع بعد ذلك نالوا حماية أجهزتهم، في المحكمة، وفي السجن..إلاّ أنا..
قال كلماته تلك بأسى شديد، وطفرت دمعة من عينيه، لم يمسحها ولم يداريها..تركها تسيل على خدّه، ثم انتابته نوبة حادة من السعال، نهض بصعوبة بالغة إلى الحمام، تخفف من أثقال أمعائه، غسل وجهه ويديه، فاستعاد بعض حيويته، ورجع إلى مكانه بابتسامة شفيفة، يغالب آلامه المبرحة.
-ورزان.. ماذا حلّ بها؟
أدار عامر دفّة الحديث باتجاه آخر، بعيداً عن الجروح والآلام، رغم الشعور بالضيق الذي ألمّ به من حكاية فخري. انفرجت أساريره، برقت عيناه، فرك كفيه، ومال بجسده نحوه:
-آه.. لقد نقرتَ على الوتر الحساس.
رمى رأسه على الوسادة العالية، وتطلع نحو السقف، عيناه تدوران في محجريهما وهو يواصل حديثه: أكتشف الآن، أنني متعلق بها جداً.. وأشتاق إليها كثيراً.أضاف وهو ينظر إليه : تصور أنني أحياناً أبيت الليل مفكراً بها، غائباً في حنايا الذكرى، تأتيني صورتها في اليقظة والحلم! أكثر من زوجتي وأولادي!
-علك تحبها؟
-تلك العاهرة..تحيي على الدوام ذاكرتي، إنها حبل السرّة مع الحياة الأخرى.
-وأسرتك؟
-سأطلّق زوجتي..منذ ايام أخذت الأولاد وسافرت إلى زيورخ..ولأن حكايتي طويلة، سأترك لها حرية الحياة..
-الضياع..إذن!
قال عامر بحزن، وهو يستعيد صورة عائلته، وكلّما مرّت بذهنه فكرة الضياع هذه، خفق قلبه بشدة، وتسرّب الألم إلى أضلاعه خوفاً عليهم من غدر الزمن.
خرج إلى الساحة، وجد لنفسه ركناً قصياً وسط الزحام، قرفص في مكانه ووضع رأسه بين راحتيه، واستسلم للخوف، تركه يطحنه، وهو يرمي بنفسه إليه أعمق وأعمق متخيلاً غيابه الطويل في السجن، وأحداثاً تدفع إلى الضياع والشتات، فيتملكه

الذعر لمجرد التفكير أن وفاة شام، ستفتح الطريق أمامه وأمام أطفاله، واسعاً نحو المجهول، انهالت الأسئلة المرّة على نفسه، في داخله، كالرماح: أين سيمضون، وأين ينامون، من يعتني بهم، وهل سيأكلون..وما اذا كان سيتعرف إليهم، أو يجدهم بعد سنين الضياع والحرمان. غاب في تخيلاته إلى أبعد مدى يمكن تصوره، تحت وطأة الخوف من المجهول، صار يحدث نفسه، كما لو أنه ممسوس من الجن. ولم يدرك شيئاً من حوله، حتى أفاق على صراخٍ في وجهه، ويدٌ تمسكه بقوة، وتدفعه بعيداً عنه بجنون.. فسقط على الأرض:

-أبعد عن طريقي يا أبله!

تمالك نفسه ونهض بصمتٍ، دون أن يفتح فمه بكلمة. كان وسط الساحة خالياً، والجميع متراصين تحت الجدران. السكوت والهدوء يخيم على المكان. وحده السجين الذي رمى به عن طريقه، كان يدور في الساحة مثل ثور هائج..ينفخ، يضرب قبضته بكفه الأخرى، عاري الصدر. يقترب من الزاوية التي كان يجلس فيها، حيث يتوارى سجين آخر عن غضبه، ويعود إلى الساحة. ثم علا صوته يهدر في المكان:

-اطلع..اطلع لوحدك،لاتجعلني أسحلك.

لم يلق جواباً، فأخذ يتوعده، ويشتمه بأقذع العبارات:

-تعال إلى هنا إن كنت رجلاً..إطلع يا ابن الفاسدة..تعال يا بغل..

ثم هجم عليه، مثل ذئب أعمى.

8

كل صباح هو نهار جديد.. إلاّ في السجن. الرتابة والضجر، مملان إلى درجة قاتلة. لانكهة لشيء سوى الحرمان. التعذيب والإهانة والشتائم مملّة هي الآخرى..نفس الكلمات ونفس الضربات والسوط نفسه.. وإن تعددت أشكال السجانين الذين يتناوبون، يعملون يوماً كاملاً ويرتاحون يومين! فيرتاح السجناء من وجوههم التي تقطع الرزق والفرج يومين..

تثائب، فسرت العدوى بين المحيطين به، لا يزال الوقت مبكراً، لكن جو الغرفة كان خانقاً، وحرارة الجوّ في الخارج مرتفعة والضغط عالٍ وازدحامٌ شديدٌ على الحمامات كأن الجميع في حالة ضيقٍ في وقت واحد، ووسط الضجيج المعتاد، ارتفع صوت الشتائم من طابور الحمام، على برميل الماء المالح، كان خلف المحكوم بالسجن المؤبد، يمسك بالبرميل، وهو يدفع بيده الأخرى إسماعيل عن الماء، رفع إسماعيل قبضته القوية وهوى بها على كتفه فسقط على الأرض فوق المياه الوسخة، وقع البرميل فوقه وانسكب الماء يغمر جسده ووجهه معاً.

الساعة تقترب من العاشرة، وعلى غير العادة، لم تفتح الأبواب واكتفى الحراس بتقديم الافطار وإعادة الإغلاق منذ الساعة السابعة على عجل. كان الجميع متوجساً من هذا الإغلاق المفاجيء، يتوقعون حملة سوداء من التفتيش. وباكراً دبّ النشاط بينهم لإخفاء كل ما لديهم من ممنوعات: أدوات حادة، ملاعق، حبوب مخدرة، حشيش، وهيروين، استُهلك منه ما أمكنهم، وأُخفي الباقي بين طيات الثياب والفرش، ولفّت الكميات المحضرة للبيع بأكياس النايلون ورميت في حفرة الحمامات، أصبحت الدار خالية ونظيفة، أما الأموال فقد جمعت وسلمت عبر فتحة الباب، إلى أحد الحراس الذين يروحون ويجيئون في المكان لحفظ الأمن.

بعد قليل، مرّ أحدهم بالباب، همس بضع كلمات وانسحب، لحظات وانتشر الخبر بين الجميع، سرت الهمهمات، وندّت التأوهات معبّرة عن الأسى والأسف، الجرارات تسوّي ساحة الإعدام خلف السجن، بدأ الوضع يميل نحو الهدوء والصمت. والكل يصيخ بسمعه نحو النوافذ العليا. فجأة ارتفع صوت الجرارات تجأر. فأدرك الجميع صدق الخبر، لم تكن ساحة الإعدام تبعد أكثر من خمسين متراً، أخذت الألسن تردد أسئلة وأسماء بلا جواب عمن سيعدم اليوم، وبدات الهمهمة تعلو. قفز حامد من مكانه وهو يشير بيديه اليمنى نحو النافذة العليا:

-هسْ.. اسكتوا.

صمت هنيهة واستدرك: صوت رصاص.. سمعتم؟
تتالت عبارات التأكيد من أربعة، خمسة سجناء، على أنهم سمعوا صوت رصاص، خيّم الصمت لحظات، قبل أن ينطق أحدهم:
-صلياتٍ كثيرة من الرصاص.
-أُعدم أكثر من أربعة.. أكيد..
-أصلاً، تنفيذ الإعدام يكون هكذا، من أربعة فما فوق، يجمعونهم، ثم ينفذون الحكم في وقت واحد.
قال حامد وهو سجين قديم، ذو خبرة، ويعرف كيف تجري الأمور. عاد اللغط والثرثرة، والمشاكسات تملأ الغرفة، فالباب قد يفتح في أية لحظة، طالما أن الإعدام قد نُفّذ. لكن عامر في الحقيقة لم يسمع صوت رصاص..أو هكذا بدا له. فأذنه لم تألف بعد كيف تسترق السمع في مثل هذا المحيط ،الذي يعجّ به أناسٌ هم الدِرْك الأسفل من البشر، جراثيم كما تنظر إليهم الحكومة، أو كما يناديهم السجانون دون أي تحفظ: حثالة!
فُتح الباب بعد الظهر، وتدافع السجناء للخروج في ظل فوضى عارمة، وفي الممر كلٌ يبحث عن حذائه، أو نعله، يتسابقون نحو الساحة، وكأن الأبواب ستغلق بعد حين، وبدأت الأصوات تعلو مجدداً مجلجلة.. فرك جبينه وهو يتابع المشهد من الداخل:
-حقاً أنه لا يقارن بحمام نسوان!
مع أول شرطي وقف على باب القسم، وصل الخبر اليقين: أُعدم ستة،واحد مخدرات، والخمسة قضايا قتل. المخدرات ليبي، سوريان وتركيان ومصري!
اقترب الهادي منه، وقدم كأساً من الشاي:
-تفضل.. خذ رشفة.. شاي كيس، حضّرته بنفسي..مدّ الكأس نحوه، مصرّاً على الضيافة: نظيف. ثم همس في أذنه: سمعت الخبر..دولة لا تخاف الله.
-الله غالب.
كان حريصاً على عدم إبداء أي رأي قاطع في نقاشات مثل هذه، ومعرفته بالهادي لا تتجاوز يومين، تقرّب منه، بعد أن كان يراقبه عن كثب، وما إن عرف أن قضيته سياسية حتى بادر بالتعرف إليه، كان ساخطاً على الدولة التي لم تعره اهتماماً كما يستحق أثناء خدمته في القوات المسلحة، ولا بعد تقاعده، مارس أعمالاً شتى لسدّ رمق العيش، وبناء منزل، ثم استقر به المطاف تاجر مخدرات.
-الليبي، غير مدعوم، ليس له ظهر يسنده، فأعدموه!
والسوريان بريئان من تهمة القتل- والله أعلم- أما الثلاثة الآخرون فيستحقون العقوبة.
-لكن هذا شيء فظيع.. بالرصاص أيضاً، أليسوا مدنيين؟
تساءل عامر، مستنكراً عملية الاعدام برمتها.

-قلت لك: دولة لا تخاف الله، ماذا تنتظر منها؟
-لكن ذلك مخالف لكل الأعراف والقوانين!
-لا أحد يحاسب أو يسأل، وشعبٌ مرعوب، مغلوبٌ على أمره.
انقطع حديثهما مع تتالي الضربات على الباب، وارتفاع صوت من الخارج ينادي على الطعام، وخلال دقيقة واحدة، كان الجميع قد أحضر إناءه ليأخذ طعام الغذاء، انفتح الباب على آخره، وشرطيان عن اليمين واليسار، يصرخان بأعلى صوتهما.
-طابووووور..بالدور..واحد..واحد يابهائم..
وأخذا يلّوحان بالسياط المجدولة من خيوط الكهرباء، فجأة انقلبا إلى قردين غاضبين، وكأن النار تحرق ذيلهما، دخلا إلى القسم، أوقفا توزيع الطعام مؤقتاً وأغلقا الباب، وبدآ ضرب السجناء على غير هدى، لا يفرقون بين أحدٍ منهم، ولا أين تأتي الضربة، والكل متسمّر في مكانه، لا يعرف ما الذي حصل.
-الفاسد، الوسخ الذي لا يريد أن ياخذ طعاماً من هو؟
لم يرد أحد على الشرطي الذي أخذ يزعق بأعلى صوته:
-قلت.. يطلع لوحده، بنفسه.
لم يخرج أحد، أطبق الصمت على المكان، وكأن الطير على رؤوس السجناء، تقدم أحد مشرفي الحجرات من الشرطي قائلاً:
-لا أحد يا سيدي.. كلهم يأخذون طعامهم.
صرخ الشرطي في وجهه:
-عاطف.. احذر.. لا تتستر على أحد، فتأخذ مكانه.
أخرج الشرطي ورقة من جيبه، وقبل أن يقرأ ما فيها نادى على السجناء:
-فرصة أخيرة..
نفذ صبره، فأخذ يقرأ الورقة إسماً.. إسماً، ويطلب منهم الإصطفاف إلى يساره.
-لنر كيف لا تأكلون الطعام!
فتح الباب مجدداً، وأمرهم بالتقدم واحداً إثر آخر، وكلما خطى أحدهم الباب، تلقى ضربة على مؤخرته أو ظهره. فيسرع نحو عربة الطعام، ومع الضربة الثانية يهتز جسده وهو يأخذ قطعة اللحم في الوعاء، والضربة الثالثة تدفعه للعودة إلى القسم، وقد فقد جزءاً من الطبيخ، انسكب على ثيابه، أو على الأرض، أو سقطت قطعة اللحم!
كان المنظر مؤثراً للغاية، شعر بالأسف، تملكه إحساس شديد بوطأة الضعف والخوف والإذلال. همس الهادي:
-معلومة ساخنة.. وصلت للتّو!
-كيف؟
-وشاية.. من داخل القسم..

لم يكد السجناء الإنتهاء من طعامهم، حتى كان المدير وبرفقته أكثر من عشرين شرطياً وثلاثة ضباط يقفون بالباب. عادة مايتم استنفار جميع حراسات وضباط السجن والمنطقة الأمنية عند تنفيذ عمليات الإعدام. نادى المساعد سالم على ثلاثة سجناء كانت وشاية سبقتهم الى الإدارة بأنهم ينوون الإضراب عن الطعام بسبب حرمانهم من الزيارات لأكثر من شهر، لم يعرف أحد لماذا منعوا ومن هم. كانوا قد وصلوا مساء الأمس فقط، مرّحلين من سجن أخر، ولم يختلطوا مع أحد.

الساحة محتلة من الشرطة، والثلاثة معزولون في ثلثها الشمالي الذي تشويه شمس ظهيرة تموزية. نزعت ملابسهم واجبر اثنان على التمدد على بطونهم، فوق الأرض الإسمنتية الحارقة التي لاتحتمل، فيما بدأت عملية تعذيب بالعصيّ والسياط، بالأكف حيناً والركل، صار الشاب عجينة كروية حمراء يتقاذفها الشرطيون، قبل أن يتركوه ويبدأ استلام الثاني ثم الثالث، كلّ له نصيبه على انفراد..

أمر المدير مشرف القسم أن يأتي بحوائجهم، ثم أخرجهم عراة، مقيدي الأيدي والأرجل بالسلاسل، الى وجهة قيل - فيما بعد - أنها سجن آخر في الجبال الغربية.

في الداخل، كانت الحرارة ترتفع، والجدار الغربي الطويل للغرفة، يتعرض لأشعة الشمس الحارقة، مع السطح، فتنتقل الحرارة اللاهبة إلى جوف الغرفة الغارقة بالدخان، وروائح الأجساد المتعرقة. لم تأت الكهرباء، ما تزال مقطوعة على غير العادة، لسبب مجهول. مرّ الوقت بطيئاً والعيون شاخصة نحوالمصباح الوحيد فوق الحمامات، أو على المراوح القديمة الأربع في الغرفة، كان عامر ممدداً في مكان فائق ، ينظر بصبر نافذ إلى مروحته، يتأفف، ويمسح بمنديل ورقي جبينه ووجهه المتعرق.

اشترى عامر المروحة بثمن باهظ من أحد السجناء، بمشورة فائق، علقها على الجدار في مكانه، فصارا يتبادلان الجلوس أسفلها نهاراً، حيث يمضي فائق معظم وقته في الساحة يلعب الورق، ويبيع الدخان.

وعلى مقربة منه، كان يدور شجار مكتوم بسبب فقدان ثلاثة غرامات هيروين، من فتحة الحمام، كعكوس يتهم طارق بسرقتها، والأخير ينفي، يجلسان متقابلين، يفصل بينهما الممر إلى الحمامات، فيما يحاول سالم الفزّة أن يحلّ المشكلة دون ضجيج أو تراشق بالكلمات واللكمات..كان الجميع على يقين أن طارق قد فعلها ليشبع إدمانه.

-أقصّ إيدي، إن لم تكن أنت.

-قلتُ لك لا تكلمني في هذا الموضوع، بتاتاً..

-لا أحد غيرك.. أنت دخلت الحمام مرتين.

-وأدخل عشر مرات.. رأيتيني بعنيك! أحدٌ رآني، وأخبرك! اذهب واشتكي..

قال طارق ساخراً، وهو يدرك، أن أحداً لا يريد ذلك، فإذا وصلت الأخبار للشرطة بوجود الهيروبين، فستنقلب أوضاع القسم كله رأساً على عقب.
-في المرات القادمة، لن تحصل على ذرّة هيروين، قبل أن تسدد كل ديونك.
-ليس لدي نقود.. ولن أسدد شيئاً.
بلمحة البرق، ووسط ذهول الجميع وانكماشهم في مكانهم، قفز كعكوس نحو الجدار المقابل، اختطف حقيبة طارق، عاد بها إلى فراشه وجلس فوقها:
-لن تأخذها، حتى تسدد الدين، أو تعيد ما سرقته.
تجمع أصدقاء كعكوس من حوله لحمايته، وهمّ بكسر القفل الصغير وفتح الحقيبة بالقوة، صرخ طارق هلعاً: انتظر..هاتها..نتفاهم.
-من غير تفاهم
-من الآخر، آخذ غرام بودرة، ويسقط نصف الدين عني.
-تردها كلها، وتسدد الدين كله.
فتح كعكوس قفل الحقيبة نزعه ورمى به نحو طارق. اقترب منه سالم ووضع كفّه على الحقيبة:
-لا تلمسها..بضاعتك ترجع لك بالتفاهم، وبضمانتي.
حمل الحقيبة وسلمها لخلف.
التفت إلى طارق، وطلب إليه أن يتبعه إلى داخل الحمامات. أسدل الستار لدقائق، ثم خرجا، رمى بقطعة نايلون ملفوفة نحو كعكوس، وهو يقول كلمات حاسمة:
-هذه غرامين، والدين يسدده لك بالكامل.
في المساء، وقد هدأت الأمور تقاسم طارق وسالم الفزّة البودرة. امتلأت نفسيهما بالرضى والسرور..فالكمية التي حصلا عليها، لم يحلما على الاطلاق بامتلاكها، أو تعاطيها:
-نبيع..والاّ نشم؟
ضربة سالم الفزة كفاً على رقبته وهو يضيف: نام عليها الليلة يا فالح، وغداً نتصرف.
دفعه جانباً ونهض يخرج من باب الغرفة، فوجد نفسه يقف مباشرة أمام الضابط ، أربكته المفاجأة. ودون شعور منه أرتدّ بجذعه الى الخلف. أمسك به من صدره بقبضته،وأشار إليه بالصمت، أوقفه في الباب ثم دخل، نظر يمنة ويسرة، تفحص المكان والوجوه، بعينين لا معتين، لاذ الجميع بأماكنهم، التصقوا ببعضهم البعض يرتعدون خوفاً، استدار نحو سالم الفزّة، وأمره بالدخول، وقف أمامه مرتجفاً:
-قل لي.. ماذا لديك؟
-لا شيء عندي يا سيدي.

-سنرى.. ويا ويلك لو أجد شيئاً، إرفع يديك عالياً.
وضع الضابط عصا التشريفات تحت إبطه، وأخذ يفتش بدقة جيوب سالم، قميصه، ثيابه الداخلية، فمه، تحت لسانه، وإبطيه، مؤخرته، وبين فخذيه، ثم تركه:
-احذرني في المرّة القادمة.
-إن ضبطتني بشيء.. لا ترحمني.
-سأضبطك.. صدقني. وأستطيع أن أفعل ذلك الآن، أنت تفهم ماذا أعني!
خرج الضابط إلى وسط الساحة، نادى على الشرطة أن تعطيهم العشاء وتسكّر عليهم، والشمس مازالت حامية.
لم تأت الكهرباء حتى الفجر، كانت ليلة قائظة، عالية الرطوبة، لم يعش عامر مثلها من قبل، داخل السجن ولا خارجه. تصبب جسده عرقاً، ابتلّت ثيابه تماماً، ولم يتبق لديه سوى فوطة بيضاء، مسح بها وجهه، عينيه ورقبته، ضاق صدره بشدة، اخذ يتنفس بصعوبة وإجهاد، وسط ندرة الأوكسجين الذي تمتصه لفائف الدخان الملغومة بالحشيش.. تلمع جمراتها وسط ظلام دامسٍ في الغرفة، كانت ليلةً طويلة من ليالي جهنم!

9

ثلاثة أيام وهو لا يبتعد عن باب القسم، يلتصق به منذ الصباح حتى المغيب. يحاول التسلل إلى القسم الخامس، دون فائدة. تكاد روحه تطلع من جسده. قلّ طعامه، ونحل وجهه. كلما سمع صوت المفاتيح تدور في قفل الباب، قفز نحوه. صار كثير الشرود، يسير هائماً لوحده. انطوى على نفسه أكثر فأكثر ولم يعد يتبادل الأحاديث مع أحد. شعوره بالقهر والظلم يتنامى، وإحساسه بالخوف من المجهول أخذ يبني أعشاشاً في دخيلته!

مساء اليوم الرابع، اقترب منه إبراهيم، أخذه بعيداً عن الباب، نحو الجدار الشمالي، حدثه عن الصبر والإحتمال، وبطريقة غير مباشرة، افتتح معه موضوعاً عن مصائب الناس في السجن: من يرى مصائب غيره، تهون عليه مصيبته.

ثم عرج على وقوفه عند الباب، كل الأيام الماضية. أدرك أن إبراهيم يعتقد، وربما آخرون. أنه يلتصق بالباب طلباً لحريته. وأنه لم يعد يطيق السجن، وقد نفذ صبره أو..مسّه جنّ!

تمالك نفسه، ضبط أعصابه، أخذ نفساً عميقاً.. هدأت روحه قليلاً. رمى نظره نحو البعيد، كان خط الأفق أمامه نقطة تلاقي الجدار الجنوبي، مع سكة الحديد التي يستند إليها شبك يمتد على مساحة القسم. حتى تكاد السماء لا تظهر صفحتها. عاوده شعور بانقباضٍ في الصدر، أو القلب.. نهضا من مكانهما وأخذا يدوران في الساحة ذهاباً وإياباً صامتين. ظلت الكلمات حبيسة فاقترح أن يتناولا شيئاً:

-أشتهي فنجان قهوة.

-وأنا أتدبر الماء الساخن.

قال إبراهيم، تركه عند الباب ومضى نحو الغرفة. بعد قليل كان يسكب ظرف القهوة في كأسه. حركها، قرّبها من أنفه، تشمم رائحتها الفواحة، أخذ رشفتين كبيرتين، ثم نفث من صدره زفرة طويلة، رمى معها بقايا غصته وألمه.. إلى حين!

مرت عليه خمسة أسابيع، أو نحو ذلك، لم يتسلل إلى القسم الخامس. ومنذ آخر مرّة رأى فيها أبو حيان وفخري، لم تتح له فرصة الإتصال الهاتفي بزوجته وأولاده.

يزداد قلقه مع اشتداد الحراسة في الساحة العامة، وعلى أبواب الأقسام. ومن يومها لم يعرف شيئاً عن أسرته، ولم تصله أية أخبار جديدة. والرسالة التي حضرّها لا تزال في جيبه منذ عشرة أيام. الأوراق تقاوم الرطوبة، ولن يمضي عليها أيام أخرى حتى تتفتت. عاد إلى الغرفة، سحب الرسالة من جيبه. أعاد نسخها على ورقة جديدة، رغم

ندرة الورق. ثم أرفقها بورقة أخرى تضم قصائد قصيرة، كتبها طوال الأيام الماضية.. كانت بخط ناعم وصغير، كي تتسع النصوص السبعة كلها. يرسلها إلى شام، فيحافظ عليها من التلف، أو المصادرة.

أرتفع هرج ومرج في الساحة، قطع عليه شروده، طوى أوراقه ودسّها في المفكرة وخرج على عجل. كان عشرات السجناء قد تجمعوا في النصف الشمالي من الساحة، عيونهم شاخصة إلى أعلى يشيرون بأصابعهم، ويلوحون بأيديهم، فيما تطلق حناجرهم أصواتاً صاخبة وصفيراً. ثم بدأو يرشون الماء، ويقذفون ببقايا علب و خبز جاف.

كان ثمة عصفور يقف على شباك الحديد، داخل الاسلاك الشائكة، يغرّد، غير عابئي بما يفعله السجناء تحته..أثار المشهد شجوناً لا حدود لها في نفسه. شعر باشمئزاز من رعونة السجناء، وإصرارهم على إيذاء العصفور، اقترب منهم وصرخ:

-اتركوه..

لم يلتفت لصراخه أحد. ولم يلبث العصفور سوى دقائق أخرى، لم يحتمل الماء التي تصيبه، فطار. تعالت على الإثر صيحات الإعجاب، صفقوا، وهللوا له وهو يغادر نحو الفضاء البعيد.

ودعه بعينين حزينتين منكسرتين.. وقال يخاطبهم:

-هذا طائر الحرية.. جاء يبشركم، فطردتموه!

نظروا إليه باستهجان واستخفاف، أداروا وجوههم عنه وانصرفوا:

-ماذا يخرّف هذا؟

-تكلمهم.. وكأنك تحسبهم بشراً.

نظر خلفه. كان الهادي يضحك، عقد ساعديه على صدره وهو يضيف:

-دعك منهم.. هؤلاء رعاع، هؤلاء لا يسعدون إلاّ إذا قبضوا على العصفور، وربطوه، وأشبعوه، حتى يموت بين أيديهم!

اقتربا من الباب. وجد نفسه، يستأذن رفيقه، لينظر من الثقب الصغير، الذي يكشف جزءاً كبيراً من الساحة الرئيسية للسجن. وقبل أن يتمكن من رؤية شيء، جذبه الهادي نحوه برفق: تعال يارجل، مالك وهذا الثقب، ستهلك نفسك..ألم تتعب؟

-لحظة، أريد أن أرى..

قاطعه الهادي:

-تريد أن ترى كيف تتسلل إلى الخامس..غداً، عند توزيع الغذاء، نخرج معاً، تدبرت أمر الشرطي، بعلبة دخان.

انفرجت أساريره، برقت عينيه فرحاً.. كانت بشارة تستحق ابتسامة لطالما افتقدها منذ اعتقاله، تمتم بكلماتٍ لم يفهمها هو نفسه. كلمات أراد أن يشكر بها الهادي على

صنيعه، فخانه لسانه! قضى ليلته مرتاحاً هانيء البال، لم يأبه بكل الضجيج من حوله، أو يعبأ بالاختناق الذي كاد يصيب كل من في الغرفة حين شبّت النار على حين غرّة، بينما كان كعكوس يحضرّ طعامه.
تدبر كعكوس كمية قليلة من المعكرونه، واستلف طنجرة من غرفة أخرى. أخذ عصا بطول الذراع، ولف عليها عدّة طبقات من أكياس النايلون، وأضاف عليها طبقة من القماش المستعمل، صبّ عليها قطرات من الزيت واشعل النار فيها. كان عليه أن يظلّ ممسكاً بعصا النار، أما خلف فقد غلّف يديه بالقماش المبلل بالماء، وأمسك بالطنجرة حتى نضجت بعد ساعة تقريباً. ودون أن يشعر، تسربت قطرات من النايلون المحترق فوق طرف الفراش، فاشتعل الإسفنج على الفور، خلال دقائق اطفئت النار. لكن الغرفة امتلأت بالدخان الذي صار يتسرب من النوافذ. ضجت الغرفة بمن فيها هلعاً. وتعالت الأصوات من الغرف الأخرى، تطمئن وتسأل عما جرى.
كان الدخان ورائحته كافيان ليتدخل الحراس. فتح الباب، عاين الشرطي مكان الحريق، وهو يضع كفه على فمه وأنفه. أخذ الشرطي ينظر حواليه على الأرض، يرفع الفرش والأغطية، ثم يعيدها إلى مكانها. وقعت عينه على عصا النار، في زاوية الحمام، سحبها ووضعها أمام عينه.
-ماذا كنتم تفعلون؟ تقطعون الحشيش..
-أبداً.. طبخنا معكرونة.
رفع الطنجرة من زاوية الغرفة وكشف الغطاء عنها:
-هذه هي.
هزّ الشرطي رأسه محذراً، ومنبهاً من تكرار الأمر، أمسك بالطنجرة ليرمي بها في برميل الزبالة، لكن يد كعكوس أسرعت تلجم يديه عن الحركة، وهو يمنعه عنها:
-طعام .. ترميه بالزبالة؟
رفع الشرطي يديه، نفض ثيابه واستعد للخروج، التفت نحو كعكوس يطلب سيجارة، فأسرع إلى خلف يأخذ الدخان الأجنبي، وقدم العلبة له.
-لا.. لا سيجارة واحدة فقط.
-والله لن تعيدها.. هي لك.
وضعها في جيبه، وعلا صوته وهو يغلق الباب:
لاتعيدوها مرّة ثانية..
ضحك الشباب خلفه، على وقع خطواته في الممر. فرشوا قطعة قماش بعيداً عن مكان الحريق، وجلسوا يلتهمون المعكرونة قبل أن تبرد.. فتضيع نكهتها الممزوجة بالدخان والحذر، والشهوة التي لا تخبو نارها في القلوب المحروقة.

قبل شروق الشمس بوقت طويل، استيقظ عامر. جلس على ركبته دون حراك في مكانه، كي لا يوقظ الآخرين من حوله. كان الظلام الدامس قد بدأت حدّته تخف تدريجياً. ومع الساعة السابعة فتح الباب، فأسرع نحو حقيبته التي يضعها فائق الجزائري بدلاً من الوسادة تحت رأسه، أخرج المفكرة والقلم والرسائل التي سيبعث بها إلى شام. قرأ القصائد والرسائل عدّة مرات. وكل مرة يصحح كلمة أو حرفاً، حتى لم يبق مكان لإضافة شيء جديد. وفي الحاشية كتب إلى شام أن موعد المحاكمة يقترب..ولا يعرف شيئاً حتى الآن، ولم يزره أحد من المحامين! كما أن صلاح لم يره منذ وقت طويل، ولم يصل شيء مما وعدت بإرساله. وطلب منها أخيراً أن تحافظ على القصائد في ملف خاص بها، وتحرص عليها كل الحرص.

أعاد ترتيب الورقات، بشكل أنيق. دسّها في جيبه، وظل طوال الوقت يروح ويجيء في الساحة..مرّة في الظلّ، وأحياناً داخل الممر المظلم، قريباً من الباب الداخلي للحجرات. حالته النفسية تحسنت، وصار يتبادل أطراف الحديث، مع أي سجين يمرّ به، أو يقف عليه، يترقب بصبر حلول موعد الغذاء، ويراقب من بعيد حركة الهادي، كي يطمئن نفسه..لا أكثر، أنه سيفي بوعده اليوم.

قبيل الظهر بقليل، دخل الضابط المناوب، وبرفقته كوكبة من الضابط وعناصر الشرطة، إضافة إلى مدير السجن، وفي أيديهم السياط والعصي والخراطيم. طلب من جميع السجناء مغادرة الغرف والتجمع في الجهة الجنوبية من الساحة. بطابور ثلاثي لكل حجرة. نظر عامر بحزن لما يجري حوله. وقال للهادي بأسى:

-أترى حظي؟

-حظك يفلق الصخر..

ارتفع صوت المدير يهدر في الساحة.

-أخرس أنت وإياه.. ومن دون حركة، كل واحد في مكانه.

أخذ يمشي بخطوات وئيدة أمام السجناء. وهو صامت. ثم مضى يسير بين طوابيرهم. وقف في الخلف، اتكأ إلى الجدار، وطلب أن يخلع كل واحد ثيابه، في مكانه، ودون فوضى. كان الجو حاراً، وجافاً. وشمس منتصف النهار أواخر الصيف، تشوي كل شيء تحتها.

في الجهة المقابلة وقف الضابط المناوب، يحرك السوط بيمناه حركة دائرية في الهواء، فيصدر فرقعة خفيفة، تشخص إليها الأبصار والعقول جزعاً. ابتعد خطوات إلى الخلف وقال:

-الدار التي شبت فيها النار أمس.. أين هي؟

رفع سالم الفزّة يده عالياً:

-هنا سيدي.. الحجرة واحد.
-أي واحد عنده مواد تموينية، أو معدات طبخ، يطلع ويسلمها لنا..
صمت قليلاً. وعندما لم يصله جواب من أحد، أمر عناصر الشرطة بدخول الغرف وتفتيشها.
كان المدير يتجول بين الصفوف، يقف على هذا، ويحادث ذاك. فجأة وقعت عيناه على رزمة من الأوراق بين طيات الثياب الملقاة على الأرض.. لم تكن ظاهرة للعيان. لكن طرفها فضح سيف الذي أربكته عيون المدير، وهو لا يستطيع أن يتحرك من مكانه. دار العقيد مسعود إلى الخلف دورة كاملة، ثم التقطها وأخذ يتصفح الأوراق بهدوء. مرت لحظات بطيئة صعبة، وقلقة للغاية. وعلى رغم الحرّ الشديد، بدأ جسد سيف يرتجف. ولم يمهله المدير مزيداً من الوقت، رماه بصفعة قوية، تردد صداها في جنبات المكان الصامت، أفقدته توازنه، وكاد يسقط على الأرض:
-إطلع يا كلب.. إطلع أمامي.
وفيما كانت الشرطة تفتش الحجرات، وتصادر كل ما يقع تحت يديها، من ممنوعات ومسموحات. كان العقيد مسعود، والضابط المناوب يستجوبان سيف:
-ما هذه؟
-لا تريد أن تتكلم؟
-أخلع سروالك.
-سيدي أوراق سيدي..أوراق.
-شكوى يا ابن الكلب..تشكي بنا يافاسد!
أنهال عليه الضابط المناوب بالسوط، لم يدع مكاناً في جسده إلاّ وترك فيه آثاره الشديدة. فيما يصفعه المدير، صفعه تلوها أخرى، وركلة وراء أخرى، حتى سقط على الأرض. لم تكن الأوراق تخصه، ولم تكن شكواه. ولم يبح بأنه كتبها لسجين آخر..كريميد الذي كان يقف إلى جانبه في الطابور..لم يفتح فمه بكلمة واحدة.
امتلأ قلب عامر بالرعب، وهو يتابع مشهد التعذيب أمام ناظريه. لكنه نجا، ونجت أوراقه..وبعد ساعة انتهى كل شيء، خرجت الشرطة وارتدى ثيابه، هرع إلى الظلّ يحتمي من حرارة الشمس. وكأن شيئاً لم يكن. وكالعادة كانت الغرفة مقلوبة رأساً على عقب، وخلال دقائق عاد قل شيء إلى مكانه قبل أن تسمع الطرقات المتتالية على الباب مؤذنة بوصول الغذاء.
لبثا عند الباب..وما أن فتح حتى أطل الشرطي برأسه، وأشار للهادي أن ينتظر قليلاً، حتى الانتهاء من توزيع الطعام، ثم اقتادهما بمحاذاة الجدار الى الممر الضيق باتجاه القسم الخامس. تطلع نحو الهادي وأشار إلى عامر وهو يفتح الباب:
-اثنان بعلبة واحدة؟

-ستكون لك علبة ثانية.
-الساعة الخامسة تماماً، افتح لكما. ثم وجّه حديثه لعامر: مالبورو..لا تنس.
أخيراً تسلل، ومعه رسائله وقصائده. اتجه مباشرة نحو أبو حيان، وسأله عن حسين الذي تعهد بتهريب الرسائل إلى بيته عن طريق أخيه:
-هاتها..أنا أعطها له، وأوصيه..أطمئن.
-أبو جيان.. أريد هاتفاً.
انتظر..سنرى إن كان ممكناً.
كان أبو حيان طوال الوقت متململاً، يشغل نفسه بأشياء عديدة. وهو يلحظ فتوره بشأن ترتيب اتصال هاتفي، لكنه لم يفهم لماذا يتردد أبو حيان، هكذا، وهو يعرف أنه مخبأ الهاتف والممنوعات، كما أسرّ له فخري.
اقتربت الساعة من الخامسة مساء، اشترى مالبورو، وخرج عائداً نحو القسم الرابع، دون أن يتمكن من إجراء اتصال بأسرته. عاد، وقد ارتدى وجهه مسحة من الحزن والكآبة والمرارة.

10

تقلّب طوال الليل، في المكان الضيق. يكاد البعوض أن يمتصّ دمه كله، وقد ترك آثاره على جسده، حكّه بأظافره دون رحمة. ومن حين لآخر يطفيء حرارة الجلد بالماء البارد المالح والملوث. كانت ليلة الأحد مزعجة بسبب المشاكل التي أثارها السجناء فيما بينهم داخل الغرفة. الدخان كان نادراً للغاية، والحشيش والحبوب مفقودة تماماً، بعد تأكد الأخبار التي وصلت، عن ضبط شرطي وهو يهرّب كيلو حشيش إلى داخل السجن، معه خمس ليترات من التاكيلة. داخل كيس من الخبز والفواكه والجبن وعلب المشروب، قبيل منتصف الليل.

غياب سحائب الدخان، المنبعث من لفائف التبغ وسجائر الحشيش، ترك المجال مفتوحاً للبعوض كي يملأ فضاء الحجرة، ويمتص دماء النائمين، كيفما يشاء! غطى جسده بقطعة القماش الزرقاء الخفيفة واستسلم للإرهاق. ومع ساعات الفجر الأولى تغلّب على الأرق. ارتخى جفنيه وغط في النوم لساعةٍ من الزمن. كسر شوكة النعاس فارتاح قليلاً واستعاد حيويته. فتح عينيه ونهض. وجد جيب بنطاله مفتوحاً، منفوخاً. شكله أثار الإرتياب. مدّ يده فلم يجد النقود. فتش جيوبه الأخرى، مكانه وحوله، فلم يعثرعليها. كان الجميع نائماً، إلاّ ثلاثة ظلوا طوال الليل يقظين يتسامرون:

سالم الفزّه، طارق وبورا. فكر قليلاً قبل أن يتكلم. داخلته شكوك أن هؤلاء الثلاثة، أو أحدهم هو من سرق النقود، حين خلد إلى غفوته القصيرة. أخذ يراقبهم بطرف خفي خشية أن يقع اعتداء عليه، أو تسلط من هؤلاء الأرذال. تردد قبل أن يحسم أمره:

-شباب.. سرقت نقودي.

-كلهم نيام، من سيسرق؟

قال له سالم الفزة، فيما كانت عيون طارق تقدح شرراً.

صمت عامر، وظل جالساً في مكانه. فكر في أنه سيظل ضعيفاً، ويُسرق مرّة تلو أخرى، إن لم يسترجعها. استجمع شجاعته، وقال بصوت عالٍ:

-النقود سرقت من جيبي، منذ ساعة على الأكثر..سالم أنت لم تنم، ولا بد أنك رأيت من سرق.

-أنا لم أر أحداً..

قال بعصبية وحدّة، وقد استشاط غضباً.

-إذن.. لن أدع الحراس يفتحون الباب. سأطلب الضابط المناوب..نقودي وأعرفها.

أحس بانكماشهم. تملكته شجاعة أكبر ليواصل ضغطه، بكلام موزون وهاديء، وعابث أحياناً. لا يعرف أية علامة لنقوده سوى عددها. اغتنم خوفهم من النقيب خليل، الذي لا يرحم حتى نفسه، إذا استُفزت أعصابه.

-لا تنسوا النقيب خليل سيأتي ويفتش الغرفة، ومن لديه حشيش، حبوب..أو هيروين، فليتدبر أمره. أنا لا علاقة لي، من الآن..وقد أعذر من أنذر.

تدخل طارق:
خيرك.. مالك؟ أصبر، وسنرى أين نقودك.
-سأصبر حتى يأتي الحراس. وأن عادت نقودي سأنسى الموضوع.
تشاور الثلاثة، دخلوا الحمامات ثم خرجوا، عادوا للتشاور، وعامر يتكيء إلى جنبه الأيمن، ظهره لهم، ووجهه نحو الباب. اقترب البورا منه، قرفص قبالته وهمس له:
-اسمع.. أنا وجدت النقود مرمية من جيبك. أخذتها حتى يخرج صاحبها.
-أنذا صاحبها، خرجت..هاتها وسأعتبر الأمر مثلما قلت.
-تعطيني منها؟
-ردّها لي أولاً، وأنا..إن شئت أعطيك، لا تشترط عليّ.
استعاد نقوده كاملة، صار يتلذذ بشعور غامر بانتصاره على هؤلاء السارقين، بل إنه تمنّع في إعطاء مكافأة للبورا، بل طلب أن يشكره لأنه لن يشتكيه للشرطة.
تملك البورا توتر وغضب شديدين، صار نزقاً بعد افتضاح أمره. ينظر إلى عامر بحنق. يقابله بابتسامة ثم يشيح بوجهه، يرفض محادثته فيشتعل ويثور، يخرج من الغرفة، ثم يعود إليها. دخل يستحم عصراً، فوقف البورا خلف الستارة يحثه على الخروج، لمجرد المضايقة، وإرغامه على دفع أي مبلغ يمكّنه من شراء المخدرات. فلم يعره أي اهتمام. دخل إلى الحمام الثاني، تعرّى وأخذ يشقق جلده بشفرة الحلاقة، عشرات الجروح ملأت جسده دماً في صدره، ساعديه، وفخذيه، ووجهه. صار منظره مرعباً. لكن ذلك كله لم يزده إلا فضيحة في الحجرة، وانفلات الضحكات والتعليقات التي لا آخر لها، حتى وصل الأمر للشرطة.
أوقفه الضابط وسط الساحة، عاري الصدر، دار حوله دورتين ثم انفجر في وجهه يكيل له الشتائم:
-أيها الأبله..ما فعلته هو محاولة انتحار..أتفهم ما معنى ذلك؟
لم ينتظر منه جواباً. واصل كلامه، كأنه يلقي محاضرة في الأخلاق، وقد انتفخت أوداجه، وهو يقف وسط الساحة مثل ديك منفوش الريش فوق مزبلة:
-معناه أنك ترتكب جريمة، يعاقب عليها القانون. يعني قضية جديدة..هل تريد أن أحولك إلى التحقيق، والنيابة؟
-لا سيدي.. آخر مرّة، ولن أعيدها!
-آخر مرّة؟ كم مرّة قلت هذا يا مخروم..لقد أهلكتك المخدرات. الحبوب والسمّ الهاري، الهباب الذي تأخذه. ستنفُق مثل كلب أجرب..ثم ما هذا الوشم المرشوق على يديك وظهرك؟
-وشم سيدي.. وشم.
-ألا تعرف أنه ممنوع؟

نظر حوله، وبإشارات استعراضية طلب من نزلاء القسم التجمع أمامه في الساحة، وأن ينزعوا ثيابهم ويمروا من أمامه، نحو الحجرات. وبإشارة من رأسه، أو عينيه، يقف جانياً كل من يُرى على جسده وشماً، تجاوز عددهم المئة. طلب من اثنين أن يطرحا حاويات القمامة على الأرض، وأمر الموشومين بالزحف عراة، ملتصقين بالأرض، حول الساحة، مروراً بالقمامة، دون أن يرفعوا رؤوسهم!

استمر المشهد المؤلم أكثر من نصف ساعة، والجميع يتفرجون بصمت. استدعى أحد مرافقيه. حدثه كلمتين في أذنه، غاب دقائق، ثم عاد يحمل علبة من الدهان وفرشاة كبيرة. أمره بالوقوف إلى جانبه:

-وأنتم يا حثاله.. تمرّون من هنا، واحداً.. واحداً، بالطابور.

أخذ مساعده يطلي الأجساد باللون الرمادي، يغطي به الوشم أينما كان، ببشاعة لا يمكن تصورها. أمرهم بالوقوف في طابور ثنائي مجدداً، والدوران حول الساحة، حتى يعود، ثم خرج وأغلق الباب خلفه.

مع المغيب، اكفهر الجو، هبت ريح باردة مع الغبار. وما إن بدأ العدد تحضيراً للإغلاق، حتى هطل المطر. حث عامر خطاه مخافة أن تبتلّ ثيابه، وقبل أن يدخل المبنى صرخ الشرطي في وجوه السجناء المتدافعين:

-أرجع..كل واحد يرجع مكانه، لن يدخل أحد إلا بالنظام.

وقبل أن يصل غرفته، كان قد تبلل شعره وثيابه بالماء، وتوقف المطر عن الإنهمار. تشمم رائحة النسيم الناعمة التي خلّفها المطر فارتاحت نفسه، وصفا ذهنه، وخامره شعور بالبهجة وهو يشهد لأول مرّة في السجن هطْلَ المطر، في هذا اليوم التشريني الطويل. هجع إلى مكانه هادىء البال، وأخذ يتابع برامج التلفزيون، بانتظار الفيلم الأجنبي في قناة أبو ظبي. مرّ الوقت بسرعة وهدوء، بعد نهار مرهق..فجأة هبت عاصفة من الضجيج والصراخ والطرق على أبواب الحديد في القسم الخامس، تلاها أصوات الحراس فوق السطح، وبرج الحراسة المقابل. ثمة خطب ما، قد حدث في الخامس..لكن أحداً لا يستطيع التكهن بما حدث!

نصف ساعة، مرّ أحد السجناء الذين يقومون بخدمة الشرطة، وبأعمال السخرة والنظافة، وفَتح وإقفال الأبواب. أبلغ كعكوس إن مشاجرة دامية بين اثنين، مات الأول قبل إنقاذه، أما الثاني فقد نقل إلى المشفى!

ساد الغرفة صمت مطبق قطعه الرائد معمر، طلب من جميع الحجرات إطفاء أجهزة التلفزيون، والنوم فوراً. تجاوزت الساعة منتصف الليل. وارتفعت أصوات هادرة بدأت تقترب تدريجياً، وصارت تُسمع بوضوح، أدرك السجناء أنها قوّة من الشرطة. وعلى حين غرة، دخلت القسم الرابع، وفتحت أبواب الغرف الخمس. وصدرت الأوامر للسجناء بالمغادرة نحو الساحة. قوة التدخل السريع طوقت المكان بأكمله،

احتلت السجن، وفرضت عقوبات تأديبية جسدية على جميع السجناء. أمرت الكل بالتعرّي والزحف على الأرض المبتلة بالماء، الممزوجة بالتراب، تحت البرد، وفي ظل الهلع والخوف. تذكر عامر، وهو يزحف بجسده النحيل المرتجف، مذبحة سجن أبو سليم، ارتعد لمجرد التفكير، بأن أي أحمق تنفلت من بندقيته رصاصة، كافية لإفلات البنادق كلها من عقالها، وتحويل الأجساد المتعبة الزاحفة، إلى كومة من الجثث المحروقة بالنار، المجبولة بالدم والتراب والمطر، فوق اسمنت السجون البارد.

تنفس السجناء الصعداء. وهم يرون كتيبة الحمقى الهائجة، تغادر القسم، وتترك أمرهم لمعمر وشرطته. جافى النوم عينيه، سحب من تحت رأسه ديوان أدونيس، قلّبه بين يديه، قرأ نصوصاً غير محددة. مرت بعينيه عبارة استوقفته، رددها في نفسه مراراً:" الشرطة جرثومة الزمن.."..أغلق الكتاب، وصارت عينيه تدوران في محجريهما، وتنظران إلى السقف. كانت القصيدة الكامنة داخله، تفور وتغلي بين أضلاعه. أخرج قلمه، فتح ديوان أدونيس، وعلى الصفحة الأخيرة الفارغة الصفراء، كتب:

" يباغتُ الجندُ النيامَ
كالطليان، كالتتار..في أزمان غابرة
ساعة المطر، في ومضة البرق..
بالهراوات، بلا قبعات، بلا غايات
يعوون في ليلة بلا قمر
وعندما يمضون تضجّ الزنازين بالضحك..".

الصباح التالي كان غائماً، باهتاً وكئيباً. خرج الجميع نحو الساحة الداخلية للقسم-هذه المرة-لاستلام الإفطار، تحت الحراب. قوة التدخل السريع تواصل احتلال السجن، تسيطر على الوضع فيه، ويخضع لها شرطته ونزلائه، بلا أي مبرر. الذي مات.. مات وانتهى، وضجيجهم هذا، لن يغيّر من واقع الأمر شيئاً: فوضى وفساد وأبواب مقفلة!

-الكلّ تحت القفل، والأمن مستتب!

غمز لفائق . فامتقع وجهه هلعاً، تمتم بصوت مخنوق:

-استر علينا، الله يستر عليك.

-خائف!

-أتراهم أمامك؟ يضيعوننا، ونجد أنفسنا في الإنفرادي!

-فرصة، أدخل زنزانة، فأرى كيف هي هنا!

-يا أخي.. اشتهي حاجة أخرى.. الله يخليك.
أخذ كل منهما كأس الحليب الرائب، بيضة وخمس حبات من الزيتون. أضاف قليلاً من الماء إلى الكأس، ودلق ما فيه دفعة واحدة في جوفه، مسح فمه بظاهر كفه. وخبأ الزيتون والبيض بانتظار وصول الخبز بعد ساعتين.
نهض المريمي من فراشه متثاقلاً، نظر حواليه، تربع في مكانه، عقد كفيه فوق ركبتيه، تثائب، فرك عينيه ثم رمى بصره يساراً:
-حمّام..فيه أحد..؟ أنا مضطر يا شباب .
-كلنا مضطرين.
قال خالد، فرد المريمي بعصبية:
-جاءتني جنية.. و
قطع كلامه: لا جنية ولا غيرها. من قال لك تفتح لها الباب.
بلغ الإستفزاز مداه، ولم يعد المريمي يحتمل تعليقات الآخرين. لملم ثيابه ومشى إلى الحمام. وقف أمام الستار بانتظار خروج من فيه، وهو يتحدث بصوت عالٍ كلاماً غير مفهوم أحياناً، وأحياناً يسبّ ويشتم. يتوعد ويتهدد، والآخرون يستثيرونه كي تفلت أعصابه، فيقضون وقتاً ممتعاً في الدعابة معه. كان المريمي مصاباً بانفصام الشخصية وربما أمراضاً نفسية أخرى. تركته فاقداً لا تزانه العقلي، معظم الأوقات، إلاّ ما ندر. خرج من الحمام واتجه نحو عامر:
-تعبتُ من السفر.
-سافرتَ طويلاً!
-الطريق صعبة. وكلما رفعت رأسي إلى السماء، يخرج لي المرحوم، لا أعرف من أين.
-لوحده؟
-معه ثلاثة ملثمين. هم الذين قتلوه، دفنوه تحت العربة، واتهموني. أنا كنت نائماً. أعطاني جواز سفره، تذكرة الطائرة وقال لي سافر أنت. نمتُ أنا، وابتلعته الرمال. لم يصدقوني، أريد سكيناً وحبلاً.
- ماالذي ستفعله بهما؟
-أريد أن أهرب، تعبت منهم، كل ليلة وهم حولي.
صمَتَ، ثم تغيّر لون وجهه، وصرخ مشيراً نحو الباب:
-ها هم.. أمسكوهم.
ارتجف جسده، وانكمش على نفسه خلفه، يحتمي به. ثم قفز نحو الزاوية الجنوبية الشرقية من الغرفة، ارتفع عويله المبحوح وهو يضرب رأسه بالجدار. اقترب الغزواني منه، بلحيته الطويلة المخضبة بالحناء. وضع يده على رأسه وأخذ يتلو آية

الكرسي والمعوذتين، ثم نفخ في وجهه. هدأ قليلاً وتمدد في مكانه، لكن جسده ظل يرتعش، رمى عليه غطاءً وتركه ينام. التفت الغزواني نحو الهادي، وابتسم:
-بركاتك شيخي. تستحق المكافأة، تعال وخذ لك سحبة!
ضجّت الغرفة بالضحك، تجهم وجه الغزواني، تحرك بعصبيةٍ وتوترٍ، ورجع إلى مكانه، والشرر يتطاير من عينيه: ألف مرّة قلت لك، لا تمزح معي في هذا الموضوع.
-أنا لا أمزح، السيجارة ملفوفة وجاهزة.
-وتعيدها يا رجل؟
اقترب الهادي منه. مدّ يده مصافحاً، مال على رأسه وقبّله. جلس بقربه ولكزه يكوعه:
-ما بك يا شيخ.
-تحرجني هكذا..اتركها لليل..
-الليل نحضّر له صاروخ جديد.
أشعل اللفافة وقدمها للشيخ، أدار ظهره للآخرين، أمسك بها بطرفي إبهامه وسبابته، وضعها على شفتيه وامتصها بقوة فتوهجت جمرتها، حتى كادت تذيب نصف السيجارة. أعادها للهادي وهو يبتلع الدخان كله، انتابته موجة من السعال، فربّت الهادي على ظهره. أخذ سحبة ثانية خفيفة، شرب بعدها جرعة كبيرة من القهوة الحلوة:
-الآن، الوضع جيد، ينقصنا الحلاوة.
أخذت النشوة تملأ رأسه. ارتاحت ملامح وجهه، أرخى جفنيه واحمرت عينيه. عدّل من جلسته، مدّ رجليه فوق الفراش والتفت نحو الهادي وهو يشير بأصبعه:
-سحبة..سحبتين في الصباح، وفي الليل لا مشكلة.. الأمر يجوز على الوجهين!
-بركاتك يا شيخ.. لكن اتركنا من الفتاوي.
-هذا اجتهاد يا جاهل..
-حالتك لا تعجبني..والله.
-أولاد الحرام، لم يتركو شيئاً لأولاد الحلال..
نظر إليه الهادي باستهزاء:
-اتق الله يا رجل..لم يظلمك أحد، ألم يجدوا قطعه الحشيش في سروالك يا شيخ.
-للضرورة أحكام.
-سرقتهم ثم وشيت بهم..فعلت العار، وتطلب منهم أن يصلّوا خلفك!
-كلكم ضدي، أخذنا سحبتين، وبكلامك هذا طيرّت الدوخة من رأسي.
-ولا يهمك..نفجّر صاروخ في الليل، طمّاع وعينك فارغة.
-لا والله، وأنت الصادق، دماغي فارغة.

شهق ضاحكاً، فغر فاهه، فبانت بقايا أسنانه الصدئة.

11

جلس في القفص وحيداً..القاعة الكبيرة فارغة. القاضي ومساعديه على المنصّة يميناً، وفي الوسط فريق المحامين.تقدم أحدهم منه وهو يدخل القاعة، يحمل ملفين ضخمين:
-أنا منصف والي..اطمئن ستكون الأمور على ما يرام.

لأول مرّة منذ اعتقاله، يرى فيها محاميه وفريق الدفاع الذي تطوع بعضهم للدفاع عنه، رغم خطورة ذلك. كان الجميع بانتظار إعلان القاضي بدء جلسة المرافعة. لكنه أبقى على منصف والي فقط في القاعة، وطرد الآخرين خارجاً:
-ولكنهم فريق الدفاع سيدي القاضي!
-لا حاجة للمحكمة بهم.. ابدأ مرافعتك.
بدأ المحامي باستعراض لغوي وخطابي لمقدراته. مرت دقائق ثقيلة، فدّق القاضي مطرقته فوق الطاولة: ادخل في الموضوع يا أستاذ.
دخل المحامي في الموضوع مباشرة، مشدداً على الطبيعة القانونية للمحاكمة، والإجراءات المخالفة التي ارتكبت بحق عامر، وإكراهه على الإعتراف، وظروف الإعتقال:
-سيدي القاضي إن صحة الاتهام الموجه لموكلي، مرتبط بتوفر ثلاث شروط..غير موجودة!
قاطعة القاضي بحدّة:
-تريد أن تعلمنا القانون يا أستاذ؟
-أبداً سيدي، إنما أشير إلى جوهر المسائل القانونية.
-استمر..وباختصار.
-إن كل ما كتبه، وضبط بحوزته في منزله من أوراق، لا يعتبر بنصّ القانون جرماً.
-توقف..
قاطعه القاضي ثم دق مطرقته مجدداً:
-ما هذا الهراء الذي تقوله..ألم تقرأ ما كتبه حول تفاصيل القبر الجماعي، وإحراق الجثث.
-أنتم تنفون وجود ذلك.. فكيف تحاكمونه على أمر ترونه مزعوماً!
-أستاذ..أنهِ مرافعتك.
-المجزرة حدثت..والمرافعة لم تنته..
-قدّم نسخة مكتوبة منها إلى المحكمة خلال أسبوعين.
-ولكن هذا لا يمكن سيدي القاضي!
-تحجز القضية للحكم بعد شهر..رفعت الجلسة.
لم تستمر الجلسة أكثر من عشرة دقائق، وسط الإجراءات الأمنية المشددة، طرد المحامين، ثم عرقلة المرافعة، آلات التصوير المرئي التي كانت تصور كل شيء في القاعة. المشادّة بين القاضي والمحامي التي لم تنقطع طوال الوقت..شيء أشبه بالخيال تجري أحداثه أمام عينيه بذهول أذهب تركيزه..لم يعد يعرف ماالذي يحدث في المحاكمة..وإلي أين يمكن أن تقوده تلك الأحوال المتشنجة. كل ما أدركه أنه كان

يقف في القفص. عيناه تنتقلان بين المحامي والقاضي، يهز رأسه بين الحين والآخر موافقاً على ما يورده منصف والي..لكن حرارته بدأت ترتفع وقطرات التعرّق تنساب على وجنتيه وتحرقة، تناتبه رعدة خفيفة، وجزع يُلزمه صمتاً شديداً. أخرج منديلاً من جيبه ومسح عينيه، واستعد لمغادرة القفص.
لملم المحامي أوراقه، نظر إليه، التقت عيونهما، فرسم ابتسامة عوجاء على شفتيه، سوّى هندامه وخرج. ثم قاده الشرطي عبر الممر الخلفي لمبنى المحكمة، وعند البوابة التقى شام وبقية المحامين:
-الأمور تسير بخير.
قالت شام تطمئنه، أخفت دمعتها وهي تشيح ببصرها عنه، وتمسك بيديه. أدار وجهها إليه، ثم احتضنها.
-قدّم مرافة ممتازة..
-لو أن القاضي سمح له..
توقف عن الكلام كي لا يثير أشجاناً أخرى جديدة لديها،خنقته العبرة، أخذ نفساً عميقاً وأتبعها بتنهيدة طويلة:
-ماذا يتوقع المحامون؟
-سنة..وفي الأغلب سنة ونصف!
-الجلسة القادمة، ستغادر معنا إلى البيت.
تدخلت سلام، لإطفاء أجواء ضاحكة، بعيداً عن التوتر:
-اشتقنا لمشاكساتك، وتعليقاتك..
-لا تخافي.. سأعوّض عن كل ما فات..
لم يضحك من قلبه، منذ اعتقاله.. طار قلبه فرحاً وهو يرى وجهه شام ضاحكاً، باسماً، وعينيها تلمعان أملاً.
قدمت له قطعاً من الحلويات الشامية، ملفوفة بمنديل ورقي. وضع إحداها في فمه، أغمض عينيه وهو يتذوقها:
_آه.. يا زمن.
تركهما في ساحة المحكمة شبه الخالية، تكابدان قيظ آب اللهّاب، وتخفيان بتلويحة الأكف ألماً وحزناً.، بدأ يترك آثاره الشديدة على وجه شام، وعلى صحتها بصورة مؤثرة، ركب السيارة وانزوى في ركن قصي. رمى رأسه إلى جانب الصندوق الحديدي المتحرك وسط جلبة الأقفال والأصفاد. لم تكن له رغبة في الوقوف على النافذة الصغيرة، ليملأ عينيه - كما اعتاد- من منظر المدينة، أو تنّشُقِ هواء الحرية. أحس بطعم المرارة في فمه. أخرج الحلويات من جيبه، قدّم للسجناء الذين يرافقونه قطعة قطعة، والتهم الباقي، ثم شرب جرعة ماء، غسل فيها طعم المرارة، والحلو

معاً، نفض يديه وأطرق ملياً. وقبل أن يسبح في نهر الذكريات، توقفت السيارة داخل الساحة الترابية لمجمع السجون.

مرّ الشهر..كأنه دهر. تبدل الطقس، ودخلت الأيام منتصف الخريف. وخلاله ذاق الأمرين، قهراً وحرماناً وحزناً. حتى الرسائل التي كان يرسلها مع حسين، صارت تصل متأخرة أسبوعين أحياناً..وثمة رسائل لم تصل أبداً ليد شام. انتابه إحساس بأن الرسائل تصل المخابرات أولاً. فآثر في الفترة الأخيرة أن يسلمها بيده، في المحكمة. عصراً، أخرج بزته وقميصه، رشّ رذات من الماء عليها، ثم أخذ يضغط بيده ممسداً الثياب، بدلاً من المكواة. مددها فوق الحصيرة، تحت فراش فائق . رتب رسائله وقصائده الأخيرة، ثم كتب رسالة جديدة أشبه بالوصية وهو ينتظر في الغد جلسة النطق بالحكم:
" إن كان الحكم ثلاث سنوات فأقل، فدعِ الأمور كما هي..وإن كان الحكم قاسياً، أي من ثلاث إلى ست سنوات، وأكثر.. فالجأي لأي أسلوب ممكن لمواجهة الحكم. افتحي نار جهنم عليهم، اتصلي بالمنظمات الدولية، وبالصحافة..لا تدّخري جهداً،وإن شئتِ، أو رأيت أن مصلحتنا تقتضي مغادرة البلاد مع الأولاد، فلا تترددي. أهتمي بنفسك، وبالأولاد..".
طوى الأوراق الثلاث بعناية فائقة، بشكل يسهل إخفاؤها وسحبها، أو تغيير مكانها عند الإضطرار لذلك. وفي الليل حلق شعر رأسه وذقنه. بات ليلته يتلو الأدعية، نهض مع أول خيوط الفجر، ونفسه تلهج بالدعاء إلى الله. كان قلبه عامراً بالأمل، تزاحمت الصور في مخيلته لشكل الحكم الذي سيقع عليه، بدا مفعماً بالحيوية، مستعداً لبدء حياة الحرية من جديد، إن أطلق سراحه، بعد ساعات. سيعانق شام على باب المحكمة، يركب السيارة إلى جانبها. وتمضى به إلى البيت وعيناها تلمعان فرحاً.. ولن تنبس شفتاها الباسمتين بأي كلمة!
صعد إلى سيارة النيابة، مع ثمانية سجناء آخرين، اثنان ينتظران مثله النطق بالحكم في قضية تبديد أموال عامة، والستة الآخرون، ما زال المصير مجهولاً بالنسبة لهم. ظلت السيارة رابضة في مكانها تحت الشمس حتى التاسعة صباحاً. ثم انطلقت عبر البساتين وطرق خلفية لاستلام اثنين، كل واحد من سجن. كانت السجون الثلاث ترسم مثلثاً متساوي الأضلاع، لا يتجاوز ضلعه خمس كيلومترات، لكن السيارة استغرقت وقتاً طويلاً، حتى وصلت أخيراً إلى المحكمة في العاشرة والنصف صباحاً!
ارتدى سترته وهو يترجل من السيارة، أمام الحارسين، وجد سلام أمامه مباشرة فاتجه إليها رغم اعتراض الشرطي:
-دقيقة..

مدّ يده مصافحاً، ثم سحبها تاركاً رسائله في كفها التي انغلقت عليها بسرعة تامة، لم يلحظها أحد. نظر إلى الرصيف المقابل. كانت تقف على بعد خطوات قليلة. أشار لها أن تأتي إليه. رفضت، فحسب أنها متعبة. أشارت بسبابتها إلى السماء، ثم رفعت يديها بالدعاء:

-ربّ يفرّج..اتركها على الله..

قالت سلام بلسان شام، فيما كان الحارسان يحثان السجناء الثمانية على المضيّ بسرعة نحو المدخل. كان المبنى مزدحماً، والقاعة تغصّ بالحضور وجلسة الاستئناف منعقدة. فيما القاضي يتلو أحكامه. أودع القفص مع رفاقه، وسط تساؤل عن محاكمتهم:

-انعقدت جلسة محاكمتكم باكراً.. وغادر القاضي.

-ومصيرنا؟

-لا أعرف.

قال الشرطي المرافق لهم. وقف قريباً منهم، ثم غادر القاعة وعاد يحمل أوراقاً.

-تأجيل الجلسة..لأننا تأخرنا في الوصول إلى هنا.. فغادر القاضي.

انتهت جلسة الإستئناف بعد الواحدة ظهراً. والإثنان اللذان ينتظران، حكم عليهما بالسجن مع وقف التنفيذ. أما عامر فلم يعرف مصيره. خرج في الطابور نفسه،عبر الممر الخلفي نفسه. لاحت منه التفاته نحو المكاتب المفتوحة على جانبي الممر، شاهد القاضي. خطر بباله أن يتوقف أمامه ويسأله عن الحكم. تردد..لكن رجال الأمن والشرطة المتحلقين من حوله، دفعوه لإزالة هذه الفكرة من رأسه. انعطف الطابور يساراً خلف قاعة المحكمة، فوجد سلام تقف في الزاوية، ودون أن يتوقف سألها عمّا حدث.

-ألم تعرف أنت؟

-لم أعرف شيئاً..

-مؤبد.

رمت عبارتها بسرعة، دون تردد، فنزلت على مسمعه كالصاعقة. أذهلته الكلمة، لم يصدق:

-ماذا قلت؟ مؤبد ماذا؟

-مؤبد.. مؤبد.

أزاحت عن نفسها عبئاً وحملاً ثقيلاً كانت تنوء به. فاتحة بذلك الطريق، أمام انزياح العبء ذاته عن كاهل شام. الآن أدرك فقط.. لِمَ لَمْ تبادر شام إلى تحيته وعناقه، مثلما كانت تفعل في المرات السابقة!

ضرب كفاً بكف وهو يخطو في الممر، وأخذ يردد:

-لا حول ولا قوة إلا بالله.
-ارتفع صوته أكثر، وردد العبارة ذاتها عدّة مرات.
- خيراً..
-خيراً.. من أين يأتي الخير في هذه المحكمة؟
شعر بالدم يتدفق إلى جبينه، وحرارته تتصاعد، انتابته قشعريرة ما، هي مزيج من البرد، والرعشة المجبولة بالهلع والخوف.. ارتجف صوته وهو يهدر بغضبٍ، نازلاً نحو فناء الانتظار:
-مؤبد! دولة عاهرة، ومحكمة فاسدة، لا شيء عندها سوى المؤبد والإعدام!
تهامس رفاقه السجناء:
-أخفض صوتك.
-ولماذا..هل بقي شيء بعد المؤبد؟!
ظلت شام بعيدة عنه، تراقب حركته وخطواته وحالته، لا تعرف كيف تتصرف حياله، ماالذي ستقوله له. أدرك في دخيلته أنها تعيش لحظات مريره، لا يمكن وصفها أو التعبيرعنها. وقف في فناء المرآب بانتظار السيارة، اقتربتا منه، كان يفصلهما سوران من القضبان الحديدية بينهما قرابة أربعة أمتار. التصق بالسور، فأبعده الشرطي.
-أريد أن أعرف الحكم..أريد أن أعرف الحقيقة.
عاد نحو السور، رفع صوته يسأل شام:
-صحيح..مؤبد؟
هزت رأسها، ثم حركت يدها يمنة ويسرة، نافية ذلك. رفعت كفيها في مواجهتة وعدّت بأصابعها دون كلمة واحدة، خمسة وعشرين عاماً.
تغير مزاجها وارتاح وجهها قليلاً، تناهى إلى سمعه صوتها يحثه على الأمل. شعر بحروفها ونبرة صوتها تتوحد مع دقات قلبه، وهي تزرع فيه وردة فواحة بالحب والحياة:
-لا تهتم..ستخرج، ستكون حراً رغماً عنهم!
سمح لهن الشرطي بالإقتراب لزيارته. ارتمت إلى حضنه، ضمها إليه بقوة. ارتفع نشيجها، واهتز جسدها من هول المصيبة. لم يعرف ماذا يفعل..اربكته الحيرة، والموقف الصعب. السجناء الآخرون من حولهما و الشرطة أمامهما..سقطت دمعته على رأسها. توقفت عن البكاء، مسحت دموعها ونظرات إليه بغرابة : إياك أن تضعف!
عضّ على شفتيه، لم يجب. رفع يديها إلى فمه وقبلهما، قبلّ عينيها ورأسها، وكأنه يعتذر عما يسببه لها من متاعب لن تنتهي.

-سنستأنف الحكم..تركت لك رسائل، وتوصيات.
-صارت بجيبي..سنخوض معركة ضارية مع القضاء ومع الأمن!
أنهى الشرطي الزيارة، مخافة تعرضه للأذى، عادت شام تقف خلف الأسوار. وفي الأثناء اشترت سلام لفائف اللحم المشوي، وعلب المشروب والماء، بما يكفى وجبة غذاء له ولرفاقه.
-رجعت إلى زوجي..
قالت سلام، باسمة عابثة كعادتها.
ثم أضافت عبارة أخرى، لم يسمعها جيداً، لكنه رفع يديه عالياً بالدعاء:
-آمين.
فرقعت ضحكتا شام وسلام عالياً:
-تقول لك: عقبال عندك!

ساد جوّ من الصمت القاتل، تبادلا النظرات المشبعة بالحزن والغضب، التصق كلاهما بالسور الحديدي. أصابعها تقبضان على الأسلاك العازلة بينهما.. كان الألم سيدّ المكان. تحرّك بتثاقل نحو السيارة، وقبل أن يصعد إليها اعترضته شام، دفنت رأسها في صدره، تشممت رائحته وبكت. أحسّ بدموعها تقطر بين جوانحه..تذكر قول ابن الرومي:

كأن تلكَ الدموع قطرُ ندى يقطرُ من نرجسٍ على وردِ

ما أن أُغلق الباب، وتحركت السيارة، حتى أستبد به الغيظ، واشتعل رأسه بنار الغضب:
-اللهم أجعل هذا المكان خراباً..
صمت قليلاً.. ظلّ يغلي في داخله. ثم انفجر مرّة أخرى:
-الحكم تمّ بهاتف من..من..
أمسك لسانه..نظر الجميع إليه، لملم كلماته ونطق بها:
-من كعب الحذاء!
أذهلت الكلماتُ السجناءَ، تلبسهم الخوف والحذر، أما الشرطي الذي يجلس بجواره، فقد تظاهر بأنه لم يسمع شيئاً!

12

وقف بحذاء الجدار، على رأس الطابور، في بهو البلاغات. ظل الضابط المناوب جالساً على كرسيه، وهو يعيد استلام السجناء التسعة العائدين. ثم قدم له الشرطي أوراق المحكمة:

-الأول..حكم مؤبد.

تبادل الضابط وعامر النظرات. ودون إذن خرج من الطابور، وتقدم منه بهدوء:

-أريد أن أرى منطوق الحكم.

فتح الضابط الأوراق، أخرج ورقة الحكم، وسمح له أن يقرأ فيها سطراً واحداً فقط: السجن المؤبد..زاغ بصره، تشكلت غمامة أمام عينيه. شعر بدوارٍ في رأسه..غاب عن الوعي لحظة أو اثنين، تماسك وحافظ على توازنه جاهداً..عاد إلى الطابور، وأطرق برأسه نحو الأرض.

عقدت الدهشة لسان الضابط، بدت على وجهه ملامح التعاطف وعلامات الإستياء. أمر الشرطي بإدخال السجناء إلى أقسامهم دون تفتيش، وأشاح بنظره نحو البوابة الخارجية، ولم يتحرك من مكانه.

ما أن اجتاز عامر بهو البلاغات، باتجاه الساحة العامة، حتى انتابه إحساس بأن ثمّة تحوّلٍ ما، قد حدث في داخله..توقف على بعد خطواتٍ قليلة من الضابط. باعد بين قدميه، ووضع كفيه على خاصرتيه. خُيّل إليه أنه صار أطول وأضخم، وأن رأسه قد انتفخ، وأن حاجبيه استدارا إلى أعلى قليلاً، وجحظت عيناه. شيء ما تغير فيه، لا يعرف ما هو. مايدركه الآن تماماً، أنه صار يُعرف بالسجين المحكوم بالمؤبد، صار إذن ملكاً من ملوك السجن. عاد دمه يغلي في عروقه، اشتعل غضبه حين سأله الشرطي عن قسمه، أجاب وكأنه ينهق مثل حمار في بادية:

-قسم؟ هذا إسطبل، ونحن بقر..هذه مزبلة كبيرة، ونحن صراصير..

أشار بيديه في اتجاهات عشوائية مختلفة، كان التوتر النفسي والعصبي قد بلغ أعلى مستوى لديه. الساحة الفارغة تمتد واسعة، بعيدة، مترامية الأطراف.

عاد يصرخ في وجه الشرطي المذهول:

-أدخل القسم الذي يعجبني..تفهم أم لا؟

أشار الضابط للشرطي من بعيد، أن يتركه يذهب حيث يشاء..استعاد هدوءه، وتفّطن إلى أنه تجاوز حدوده. تساءل في نفسه، عن كل هذه الشجاعة التي نزلت عليه مثل مطر الصيف..دفعة واحدة. خطى في الساحة، خطوات بطيئة واثقة، متجاوزاً الألم الذي يعتصر جوانحه. اتجه نحو القسم الخامس، نظر من ثقب الباب، فبادره نجم بالسؤال:

-ماذا حدث معك؟

خنقته العبرة، لم يعد قادراً على الكلام، جفت الحروف في حلقه. أحسّ بها تذوب في حنجرته. إنه السؤال الأول، في وضعه الجديد. لا بد أن ينطق بالكلمة المرّة، ظل ممسكاً عن الكلام، فتح الشرطي الباب، فاستقبله نجم بادي القلق:

-مؤبد..

-قل كلاماً آخر يا رجل!

لحظات، وانتشر الخبر كالنار في الهشيم. التفّ حوله السجناء، سادت دقائق من الصمت حتى استوعب الجميع الأمر، قال أبو حيان، وكأنه في عزاء:

-يؤخذ عنك السوء..
ردد العبارة الأخيرة، كل من حوله. قاده نجم نحو الغرفة، يتبعه فخري وأبو حيان ومجيد..بدا له المكان أكثر ظلمة وكآبة ورطوبة.. جلس وأدار وجهه نحو الجدار، حضن رأسه بكفيه وانكمش على نفسه، مسحوقاً، ذاهلاً و تائهاً ، تحت وطأة الشعور بالظلم والضياع. وبأن كل شيء قد انتهى! فجأة نهض إلى الحمام، رمى الماء البارد على رأسه، غسل وجهه ويديه. خطى في الممر نحو الباب، فاستوقفه أبو حيان لتناول الغذاء:
-يجب أن تأكل..الدنيا لم تنته.
-أبو حيان، أتركني قليلاً.
لحق به في الممر المظلم، أمسك بيده، فأفلت منه ليواصل خروجه إلى الساحة. التفّ عليه قاطعاً طريقه، سدّ الباب بساعديه، انتفخت أوداجه المحمرة، وهو يرفع صوته أمام الجميع:
-وحق كلام الله، لن تتحرك..
خفض صوته، وأنزل ساعديه، أخذ بيده من جديد:
-هيا، سمّ بالرحمن، وارجع معي.
أخذ العرق يتصبب من جسده المشعر، من رأسه حتى أخمص قدميه. ابتلت ثيابه، وهو يلهث: أعجبك هذا المنظر؟!
لم يجب، عاد معه بهدوء إلى الغرفة.. جلس فيما يأخذ أبو حيان حماماً بارداً. وضع الطعام أمامه. فأخرج من الكيس لفافتي لحم مشوي، قدّم إحداها له، والتهم الثانية بصمت ومرارة.
-آه..تريد أن تختلي باللحم لوحدك..كباب حرّية!
قال أبو حيان ممازحاً، ليبدد الأجواء المكفهرة التي تضغط على روحه، فردّ بسخرية واستهزاء:
-كباب حرية.. حلوان الحكم، وعيد ميلادي، مرّة واحدة.
-متى عيد ميلادك..
-بعد غد.. ألا ترى أن الحكم بالمؤبد، هدية ثمينة.
-حكموك بالمؤبد، كي تشعر بنا، وتعيش إحساسنا!
رفع عامر رأسه فجأة في وجه أبي حيان، ثبت عيناه في عينيه، نظر فيهما نظرة عتبٍ ولوم. بلع ريقه، تنفس من أنفه، أشاح بوجهه عنه، وعاد يحدّق فيه. غالبه إحساس بأن أبو حيان الآن، يبدو له سعيداً، أن يحكم صحفي وكاتب بالسجن المؤبد، بحكم مماثل له، وهو تاجر المخدرات، فقط كي يشعر ويحسّ بحالته. أهي شماته، أم ماذا؟ حكم لا تتمناه، حتى لعدوك..قال لنفسه.

-لا تؤاخذني.. أنا قصدي..
تمتم بارتباك، انتابه شعور بالخجل من كلماته.
-لا عليك، إنس الأمر.. لا تهتم!
قطع عليه مبرراته، لم يدعه يكمل كلامه. فما قاله ترك أثره كحدّ السكين المحماة على الجمر، في روحه المتعبة. تلبد الجو وأحسّ بالنفور منه، ثم تلاشى كل شيء بعد قليل.
قام أبو جيان من مكانه، غسل الصحون، ثم همس في إذنه : تريد الاتصال بالبيت؟ إذهب، نجم بإنتظارك.
مثل قردٍ أبله، تنقل قافزاً في الممر. رحبّ به نجم بلطف، وقدّم له الهاتف الجوّال. جاء صوتها متعباً واهناً أول الأمر، أحس بالأسى مثل خيوط تلتف حوله قلبه فتهصره. استقوى على الألم، رفع صوته وشحذ همته، كي يرفع من معنوياتها. لكنه وجدها أشدّ صبراً واحتمالاً منه. تبدد التعب، وأخذ صوتها يلمع في أذنيه. يرّن مثل نغمة صافية لأشجانِ ماءٍ رقراقةٍ تتحدر من قمة جبل، بزهو وخيلاء، نحو مجرى النهر..غسلت كلماتها الناعمة الودودة جراحه وجراحاتها. أحسّ بيديها تأخذان به، تشدّ من أزره. فتحمل على كاهلها عبئاً إضافياً.
تكاد دمعتيه تتحدران، وهو يحادث رامي وريم. لم تكن أسئلتهما كثيرة أو ملحاحة هذه المرّة، كانا سعيدين فرحين بالحديث معه. أغلق الهاتف وقصد الباب مغادراً القسم.
وقف الضابط أمامه:
-ماذا تفعل هنا.
احتفظ بصمته، أطرق برأسه وهو يغالب جفاف الحلق. بادره القول:
-إن كنت تريد البقاء في القسم الخامس.. لا مانع.
امتلأ قلبه فرحاً، وهرع يجلب أغراضه.
أول الليل، أفسح له السجناء مكاناً للنوم في الممر. قبالة الباب مباشرة، شبران فقط، طوى بطانيته فراشاً له، مدّ رجليه فتداخلت مع أرجل السجين المقابل له. فاضطر إلى ثني ركبتيه طوال الوقت، قبل أن يسمح له أبو حيان بوضع رأسه على فراشه. فشعر براحة مطلقة. أغمض عينيه، فتوالت صور الذكريات، تتدافع مثل طيور بيضاء في سماء غائمة، ساعة المغيب..
"حيّ الشراكسة قبل أكثر من أربعين سنة. كان آخر أحياء المدينة في الجنوب الغربي. مجموعة من البيوت المتلاصقة، طاحونة عند المنحدر. المقبرة، والمسجد القديم وأمامه مباشرة السجن وأسطبل خيول الشرطة..كان عامر يقف أمام البيت المقابل للسجن..يلهو ويعبث بالتراب والحجر..يرمي بصره نحو النهر القريب، عبر المقبرة أو المنحدر. ومن أمامه كان عدد من السجناء يمرون في طابور ثنائي،

مكبلين بالأغلال، إلى سلسلة طويلة في الوسط تربطهم معاً. يحرسهم شرطيان مسلحان ببنادق انكليزية قديمة، في طريقهم إلى المحكمة.
ما أن يراهم أطفال الحيّ حتى يتجمعون حولهم، يهللون ويصفقون بأيديهم، ويطلقون عقائرهم بالحداء:
" محبوسين سبع سنين..
محبوسين رايحين راجعين.."
يمشون خلفهم بضعة أمتار، حتى ينهرهم الشرطي. يتظاهرون بالخوف والهلع، ويعودون أدراجهم راكضين..
كان منظر خيّالة الشرطة آسراً، ما أن يسمع صهيل الخيول العربية الأصيلة، حتى يقف بالباب، تتابع حركتهم عينيه بشغف، وينتظر عودتهم عند دكان العم محمد طعان. ذات مرّة لاح له شرطي قادم من جهة المشفى، يحمل على ظهره المقوّس شاباً مقطوع الساق. حدّق فيه جيداً، وقد خيل إليه أن الأمر خدعة. لكنه سمع العم محمد يبسمل ويحوقل، ويضرب كفاً بكف. أذهله الأمر، وزرع الخوف في قلبه وهو يرى الشرطي يمضي به داخل السجن. اقترب من زاوية الشارع فبدت له ساحة السجن. وضع الرجل تحت شجرة الصفصاف، غاب عنه برهة، ثم عاد برفقة شرطي آخر، لنقله إلى الداخل..
لم يعد يطيق النظر إلى السجن، ولم يعد يشاطر أطفال الحيّ حداءهم خلف السجناء المرفوقين الذاهبين إلى المحكمة. وكلما رأى أحد رجال الشرطة قريباً من الدكان، أو مع والده هرب إلى البيت باكياً.
بعد سنوات كان الطريق إلى اعدادية الرشيد يمرّ بالمحكمة، وبغرفة النظارة تحت الأرض، فصار عامر يلتّف من الناحية الأخرى، الملاصقة للمركز الثقافي عبر الحديقة، كي لا تعود إلى ذاكرته صورة السجين بساق واحدة..".
يطلق آهة مرّة من صدره، يفتح عينيه ثم يغلقهما على شريط آخر من الذكريات. قبل أشهر، ولسنوات طويلة، كان يعبر الطريق الذي لا يبعد عنه الآن، سوى أمتار قليلة.. نحو النادي البحري في غوط الرمان. وإلى شواطيء الرمال الذهبية المميزة بالهدوء، والصفاء والنقاء والجمال المنثور على الضفاف، نساء تقطر الشهوة والرغبة من أجسادهن التي تتلوى في الماء كحوريات البحر. ومن بيته وسط المدينة ينطلق شرقاً مرّة في الأسبوع. في الصيف يكاد كل يوم يمرّ من أمام السجن المدني. يضطر للتخفيف من سرعة السيارة بسبب الازدحام الدائم على بوابته المركزية. أو بسبب تجمع المياه الأسنة شتاءً. يخفق قلبه، وترسم مخيلته صورة لأحوال السجناء في الداخل، وشكل العنابر التي يقبعون فيها، فيثير في نفسه شجوناً مرّة، لكنها أقلّ مما يحسّ به لدى مروره بالسجن العسكري، الذي يضمّ السجناء السياسيين.

الطريق إلى البحر، تمرّ من هنا..عادت إلى روحه نسائم الحرية، الموج الذي يتكسر عند حواف الأقدام العارية، المدّ البحري الذي يمحو رسوم الأطفال فوق الرمال، ويذيب قصورهم وقلاعهم بطرفة عين. عبق الزنبق البري الذي يزهر أواخر الصيف فوق الرمال، وروده الأثيرة، تلك التي اعتاد اقتطاف حزمة منها كل مرّة، يزين بها البيت، بعطرٍ فواحٍ ينعش الروح. يتذكر الآن أول مرّة، اكتشفت فيها شام الزنبق البري قبل أن تنجب رامي بيومين فقط.

"-يا إلهي.. ما أجمل المنظر..

أشارت بيدها، وهي تلفت انتباهه. نحو الشريط الرملي المحصور بين البحر وإسفلت الطريق.

-توقف لحظة.

-الليل يهبط، والطريق بدأت بالازدحام!

نزلت من السيارة تنوء بحملها، ومشت بخطى متثاقله نحو الورود البيضاء المنتشرة فوق الرمال. تلمستها بأصابعها الصغيرة الناعمة، جذبتها رائحتها الذكية، فقطفت مجموعة منها، ضمتها إلى صدرها وعادت إليه وهي لا تكف عن استنشاق عبيرها الأخاذ:

-ما أجمله، لم أر مثله فواحاً.. من قبل.

-زنبق بري.

علّق، وهو يسترق النظر بين الوردات الجميلات، وعينيها اللوزتين اللتين ترقصان فرحاً، أدار محرك السيارة ومضى نحو المدينة التي بدأت أضواءها تتلألأ من بعيد.."

تأخر في الاستيقاظ صباحاً. هزّه أبو حيان من كتفه: انهض..الشرطة تريدنا في الساحة.

تأوه.. تثائب، وغمغم كلماته بنعاس ثقيل، كان متعباً ويشعر بالمرض، أحسّ أنه لايستطيع النهوض والخروج.

دخل الضابط المناوب فهبّ جميع نزلاء الحجرة وقوفاً. وظل هو في مكانه ممدداً على الأرض. حدّج في الوجوه البائسة يعني ذئب يبحث عن فريسة، نزلت نظراته على الأرض، قريباً من قدميه:

-ما به.. هذا؟

مال عليه أبو حيان. وأجابه بصوت خفيض يخبره أنه حكم عليه بالمؤبد أمس، ولم ينم ليلة البارحة. اقترب الضابط خطوة إلى الأمام، انحنى فوقه ، سحب الغطاء وتبين وجهه. كانت حرارته مرتفعه وجسده بارداً، يرتجف ويتعرق، ساعده أبو حيان على

الإنتقال إلى فراشه، رمى عليه غطاءً ثقيلاً. أعطاه حبة مضاد حيوي وحبة بنادول، ابتلعهما مع قليل من الماء، ثم عاود النوم وهو يهذي.

13

" يا حرية، يا زهرة نارية،
يا طفلة وحشية، يا حرية..
غيرّوا أساميكن إذا فيكن
ولون عينيكن.. إذا فيكن
طلعنا ع الضو.. طلعنا ع الريح

طلعنا ع الشمس.. طلعنا ع الحرية..".
يتهادى صوت فيروز إلى قلبه، مثل موجة نهر دافقة، مثل أبواب موصدة تفتح عند الفجر على مهل، ومثل أصفادٍ تذوب وتتلاشى. يمتلأ بالنشوة، يأخذ نفساً عميقاً، يرفع رأسه إلى أعلى ويغمض عينيه، وهو يلصق الراديو بإذنيه. كأنه لم يسمع هذه الأغنية من قبل.
-كيف يا ترى؟
تساءل في نفسه. لعله سمعها كثيراً، ولم يتمعن في كلماتها، أو أن الأغنية تأخذ حالة خاصة جديدة بها، لأنه سجين! لم يفسد شغفه بصوت فيروز. آثر الإبحار في الحلم، وتنشق النسيم البارد في الساحة الخالية هذا الصباح. ما يزال السجناء نيام، والشمس تطلع رويداً رويداً من خلف الأسلاك الشائكة. وشجرة الصفصاف التي تظهر أغصانها العالية، لمن يتكيء إلى الجدار الجنوبي الأخير.
مضت أربعة أيام..الأحد يوم الزيارة. ينتظر المناداة عليه، بعد أن صار محكوماً. وطوال فترة التوقيف، منعت المحكمة زيارة شام أو محاميه له، بصورة قطعية.
وقبيل الظهر بقليل، نودي، فأسرعت خطاه نحو الباب. وجد شاباً يحمل ورقة صغيرة باسمه:
-هات أغراضك.. وعلى القسم الرابع..
صُعق لكلماته، نظر في وجهه مستفسراً، وعينيه ترمشان بتوتر. تدخل نجم وفخري، حاولا فهم ما يجري، دون فائدة. تلكأ في تنفيذ الأوامر، فحثه الشاب على الإسراع في جلب حاجياته، فهي أوامر المدير.
-ولكنه يوم الزيارة!
حاول كسب مزيد من الوقت، بغية إجراء اتصال هاتفي مع شام، فلم يرد أحد عليه في المنزل، تملكه غضب وضيق شديد، اكفهر وجهه وهو يغادر. كانت السماء صافية في الصباح..والآن غائمة كأنها مطبقة على صدره، أوقفه الشاب أمام باب القسم الرابع بانتظار المفتاح. لم يصبر، فأخذ يُعلي صوته احتجاجاً واعتراضاً على ما يجري له، رمى حقيبته وفراشه على الأرض. هبت رياح باردة، أعقبها هطول ناعم للمطر..ظل في مكانه، يطلق كلماته في وجه الشرطة. اقترب النقيب خليل من غرفة الحراسة، نظر إليه، وإلى الشاب مستفسراً.
-نقله المدير إلى الرابع.
قال الشاب، ثم أضاف يخاطبه: هات أغراضك عن المطر.
ردّ بعصبية:
-خليها، إن شاء الله طوفان..
-ما بك؟ تعال هنا..

أمره النقيب خليل.
-ما بي؟ كل يوم نقل من قسم لآخر..مضايقة وإزعاج مقصود.
-ما قضيتك؟
-سياسية، ومحكوم مؤبد.
قالها دفعة واحدة، اختصاراً للأسئلة.
تشاور النقيب مع الشاب. ذهب إلى الإدارة وعاد بعد قليل.
-تعال، لن ندخلك الرابع، سآخذك إلى قسم آخر ترتاح فيه، وتجد من يهتم بك، ويساعدك. اتبعني.
مشى خلفه حتى اقتربا من القسم السادس الذي يقع خلف العيادة، وتطل عليه من الأعلى مكاتب الإدارة. فتح الباب الأول نحو الممر، ثم الثاني ودلف إلى القسم الخاص بالسجناء المحكومين بالسجن المؤبد في جرائم المخدرات والقتل. كانت الساحة صغيرة جداً لا يتجاوز طولها خمسة عشر متراً وعرضها ثلاثة أمتار! مسقوفه بشباك الحديد على طبقتين. بدا له المكان أشبه بكهف، انقبض صدره. فسمعة هذا القسم غير مريحة! ونزلاءه ممن قضوا سنوات طويلة في السجن، أو كانوا محكومين بالإعدام، منهم من نزل عن حبل المشنقة، عاد من الموت. الشعور بالخوف لم يكن من المكان، أو الناس الذين يعيشون فيه. بل الخوف أن يمضي السنين الطويلة..مثلهم!
لا يريد أن يصير مثلهم..أو مانتهوا إليه. لم يعترف بحكم المؤبد، ولن يعترف به. لم يعترف بالمحكمة من أصلها..المكان كئيب حقاً، وضيّق. والوجوه الصامتة تنظر إليه بفضول، تردد في تحريك قدميه. ظل لابداً مع حقيبته والبطانية البالية التي يتخذها فراشاً له! تقدم خطوات، فوجد شعبان يلعب الورق، حيّاه وجلس بقربه..واصل لعبه. ثم التفت إليه بعد دقائق مرحّباً به، فأخبره أنه حكم عليه. نظر إليه بدهشة، ثم انتقلت عينيه إلى الحقيبة، وقعت أوراق اللعب من يده واستدار نحوه كلياً:
-بماذا حكمت؟
-بالمؤبد..
قال بصوت خفيض مرتجف مرتعش. غصّ فأغلق فمه على النشيج الداخلي، قمع دمعته، مسحها على الفور. سحب شعبان سيجارة وأشعلها، وهو لا يصدق ما يسمعه. وضع أصابعه على صدغه:
-.. ونقلوك إلى هنا؟
-هزّ رأسه موافقاً.. لم تعد لديه القدرة على الكلام، وكلما مرّ الوقت أزداد وضعه تأزماً، وارتفعت درجة توتره. نادى بصوت عالٍ، فأطل همام من باب الحجرة

المقابلة لهما، ما أن شاهده، حتى علت وجهه ابتسامة عريضة، لوح له بيده ثم تقدم منه معانقاً، ضاحكاً بصخب:
-أخيراً فكرت بزيارتنا؟
-سوف يبقى معنا..
قال شعبان باقتضاب فابتعد همام على الفور، وكأنه أصيب بمسّ كهربائي. أخذ ينقل نظراته بين الإثنين والأغراض:
-جئت لأبقى معكم.
أقتاده من يده نحو غرفته، اتكأ إلى فراشه وراح يجيب باختصار عن كل الأسئلة الملحة، المتوالدة من فميهما.
شعبان وهمام سوريان، تعرّفا إليه عندما سمعا بوجوده، زاراه عدّة مرات. شعبان قضى سبع سنوات في زنزانة منفردة في قضية قتل ثم خُفّض الحكم إلى خمس عشرة سنة. أما همام فمحكوم بالسجن المؤبد، بسبب جلبه المخدرات، قضى منها اثنتي عشرة سنة!
ازدرد لقمة، وشرب الشاي، ثم خلد إلى النوم في فراش همام. وعند المساء، بدا أكثر حيوية، لأول مرّة ينام فيها بعمق وراحة، على فراش جيد، ويضع رأسه على وسادة حقيقية منذ اعتقاله! رتب همام وشعبان أمور مبيته، أدخلا حقيبته، وحضرّا العشاء:
-عندي بطانية.
-تركناها في الخارج.
-ليس لدي فراش!
تبادلا النظرات، ثم قال شعبان بحياء:
-وسخة جداً. غداً نغسلها، والليلة نتدبر أمرك. قدموا له فراشاً وغطاءً نظيفين، وأشار إليه مشرف الغرفة إلى المكان المخصص له: الممر المؤدي إلى الحمّام. وعليه أن يترك شبراً واحداً بالتمام والكمال، معبراً لخطى المترددين إلى دورة المياه! لم يعترض أو حتى يتبرم، وحين أغلق الباب ليلاً..رمى الفراش على الأرض، ومدد جسده عليه:
-مؤقتاً.. ما أن يغادر أحد الغرفة، حتى تأخذ مكانه.
الجميع محكوم بالمؤبد، فمن سيغادر؟ قال في نفسه ساخراً وراضياً بقدره ونصيبه. المهم أن المكان الجديد أكثر من أشبارٍ ثلاثة، يستطيع أن ينام براحة، ويتقلب فيه كما يشاء..لكن عليه أن يتقيد بشيء واحد: آخر من يبسط فراشه، وأول من يلّمه صباحاً.

يضم القسم غرفتان كبيرتان متماثلتان، وحجرتان صغيرتان مفتوحتان على بعضهما، بينهما الحمام، وسطحهما منخفض جداً، ونوافذها صغيرة. لكن ماؤها حلوة. أما

الأخريتان فالماء فيهما مالح وملوث.. غرفته هذه، صارت بدخوله تضم واحداً وثلاثين سجيناً كلهم مؤبد:
مغاربة، تونسيون، سوريون، جزائريون، ليبيون، وهندي واحد. وسجين سياسي واحد، التقاه في الليلة الأولى لا يداعه القسم السابع.
الفناء الصغير الذي تدور به الشمس على استحياء، في زاويته الشمالية الغربية، يضجّ بالحيوية والنشاط، وينقسم سكان "السادس" المائة وسبعة إلى مجموعات، قلّة منهم يمارسون الرياضة، فيما يقضي همام وقته بين الرياضة وصناعة السفن والطائرات، من قطع الخشب التي تهرّب إليه، ومن عيدان الثقاب،ومثله كثيرون. أما طاهرالجزائري الذي تلازم السيجارة فمه، مع فنجان القهوة، فلا يكفّ عن صناعة صناديق تذكارية صغيرة مزخرفة، أنيقة وجميلة. أما عليوة وبرهوم فيقومان بصناعة نماذج مصغرة لبرج إيفل، ومساجد.. وإضفاء زخارف وألوان مختلفة..
جلس بجانب همام، ساهماً بنظراته في المدى القصير المغلق، وبالجدران المرتفعة من حواليه، والسقف المشبك بالحديد والأسلاك الشائكة..يراقب تارة أصابع همام وهي ترتب عيدان الثقاب، أو تضغط على شفرة الحلاقة المقسومة نصفين، يحفّ بها الخشب، بأناة وصبر وتمهل يبدو شديد الملل:
-شعبان..ما يزال نائماً ؟
-أووه..لا تسأل، بعد الظهر أو العصر..
قطع كلماته ونهض من مكانه فجأة، هو الآخرين. سرت حركة غريبة في القسم ما أن سُمع صوت القفل يفتح، لحظاتٍ وجلس في مكانه، بعد أن أخفى الأدوات الحادة التي يعمل بها. دخل نائب المدير مع شرطيين. وقف وسط الساحة، ثم تقدم خطوتين، تجمع حوله السجناء، قال محذراً:
-اسمعوا.. أنا لن أفتش الآن. خذوا حذركم..كفوّا عن البيع وإلا قلبتها على رؤوسكم.. فوق تحت..والله مجدداً.. لن أبقي لكم على شيء.
واصل حديثه وهو يغادر، أُغلق الباب، ودُفع المزلاج، وارتفع اللغط بين السجناء، يتبادلون الإتهامات فيما بينهم.
-ما الحكاية؟
سأل همام بصوت خفيض.
-أبق بعيداً.. لا تسأل ولا تتدخل، الأمر لا يعنيك.
التقط الدرس الأول في حياته الجديدة. لكنه تعلّم درساً أهم، فكلّما كانت درايته بأحوال السجناء وأسرارهم كبيرة، كان قوياً وقادراً على فرض ما يشاء! ازداد اللغط والجدال أمامه، بين الزاوي والريفي:
-أنت بعت الحبوب من تحت الباب.

-أنا لم أبع شيئاً منذ أمس.
احتد النقاش بينهما، وتعالت أصوات المتحلقين حولهما بين مؤيد لهذا، أو لذاك.
وتطور إلى مناوشة بالأيدي..سرعان ما قفز زكريا الأعور بجسده الضخم، وفصل بينهما آمراً بالصمت والهدوء. أطل شرطي الحراسة من فوق السطح برأسه:
-ماذا يجري..
-لا شيء.. إذهب لشأنك ابن عمي.
قال الأعور للشرطي، وهو يمسك بأذني الزاوي والريفي بأصابعه ويضرب رأسيهما ببعض:
-لو سمعت مشكلة من هذا النوع، يا ويلكم!
وقف في الساحة وسط الجميع، هدر بصوته الأجش، ثم ضحك بصوت عال، مشبع بشتائم ساخرة، تبعه الآخرون بضحكات خفيفة، ومضى نحو غرفته.
اقترب منه شعبان باسماً، أشار له بعينيه:
-بعد المغيب، تأتي إلى غرفتي مباشرة.
تناول عشاءه، غسل يديه وفمه على عجل، ومضى نحو شعبان، أفرد له مكاناً بجانبه.
كان عامر يتحرق شوقاً لمعرفة الأمر الهام الذي يريد مفاتحته به. قال وهو يقدم كأس الشاي:
-رقم هاتفك.. كم؟
أحسّ برعشة خفيفة سرت في جسده. برقت عيناه فرحاً وهو يستعد لمحادثة شام، و الأولاد أيضاً..من جديد:
-سآتِ..تريد شيئاً؟
تردد في الطلب:
-أريد فراشاً، وغطاء، ووسادة!
سمع نحيبها المخنوق، تهدج صوتها. لاذت بالصمت تستعين به على الحزن والألم.
تلعثمت الكلمات في فمها. انتابه إحساس عميق بالندم لطلبه. ظل يوم السبت يروح ويجيء في الساحة، ويقف أمام الباب من حين لآخر. انتهى وقت الزيارة، ولم يأت أحد. بعد قليل فتح الباب وسمع اسمه، فقفز من مكانه نحو الممر.
اقتاده الممرض الى العيادة، وأشار إلى كومة من الأغراض في زاوية الغرفة.
-هذه لك.
حمل الفراش والبطانية والوسادة، وأكياس أخرى مليئة بالخضار والفواكه، وكثير من الأطعمة. ساعده اثنان من العاملين في العيادة حتى باب السادس، ثم تولى همام وشعبان البقية. لم يدرك عامر ما الأمر حتى المساء، دخل الممرض إلى القسم، فبادره بالقول:

-جاءت زوجتك بعد فوات الوقت. فتولى الطبيب إدخال البضاعة لك.
طبيب السجن شقيق لأبي طارق، صديقه منذ سنوات طويلة. تعرّف إليه في صفوف الثورة الفلسطينية، ثم التقى بشقيقه الطبيب حين زاره لمرّة وحيدة في منزله، قبل عشرة سنوات، لم يره خلالها أبداً، حتى دخل السجن! استدعاه إلى العيادة. وكانت فرصة مميزة للخروج قليلاً من القسم، وتنشق هواء صحي ونظيف: نهض الطبيب مرحباً به،مدّ يده إليه مصافحاً:
-لم تعرفني؟
كان شعره كثًا طويلاً، ويرتدي جلابية صيفية ناعمة.
-تغيرّ شكلك كثيراً.
لم يجب، غضّ بصره، عضّ على شفتيه، انتحى به الطبيب جانباً، طلب له كأساً من العصير وأغلق الباب. عندما انتهى الوقت، شدّ على يديه وهو يلحّ:
-أي شيء تريده، فقط أبعث لي خبر، مع كمال..الدواء سيؤمن لك، الشيء الوحيد الذي لا أستطيع أن أخدمك فيه هو الزيارة. صمت قليلاً، ثم أضاف بأسى: أنت تعرف الظروف، هناك مراقبة شديدة عليك، وعلى أسرتك، لكن لا تخف، زوجتك والأولاد بخير، أطمئن.
هزّ يده بكفية، ابتسم، لوّح له بيده وهو يغادر العيادة نحو القسم الرابع، يحمل كيساً من أدوية الربو، والحبوب المهدئة والمسكنة لأمراض شتى.
بعد أسبوعين من الحكم بالمؤبد، زارته شام وسلام، حملتا إليه أشياء كثيرة، إضافة إلى القهوة العربية، ورسائل من ريم ورامي، وصورتهما معاً.
-حرصت أن تكون الزيارة خاصة.
قالت شام، وهو يدرك أنها كانت تنتظر قراراً ينهي حظر زيارته من قبل المخابرات. وأنه الآن يُراقَب عن كثب، داخل السجن مثلما هي تلاحق أيضاً، بلا شك!

14

انتصف النهار وما تزال أبواب الغرف مقفلة. ومنذ الفجر تنهمر شآبيب المطر مصحوبة بالرعد والبرق. كان السجناء يتناوبون الوقوف أمام الباب، والتطلع عبر النافذة الصغيرة. ويتبادلون الحديث مع الغرفة المقابلة. أكثر عامر من تردده إلى الباب، يدس أنفه بين قضبان الحديد، يشمّ رائحة المطر ويمدّ أصابعه لتبتل بالماء، فيمسح بها وجهه وجفنيه.

مع اشتداد المطر وإغلاق الأبواب، فاضت مجاري المياه، فأخذت الحمامات تقذف ما فيها من قاذورات داخل الغرفة، انتشرت رائحة البول والبراز، وامتزجت بدخان

السجائر، فانخفضت كمية الأوكسجين. بدأت الروائح النفّاذة تحرق العيون ويستنشقها السجناء. ضاق صدره، وأخذ السعال الحاد يجرح حنجرته، ثم انتقلت عدوى السعال إلى الآخرين. استنشاط غيظاً مما يحدث، خرج عن طوره وكسر صمت المكان.
صار يسبّ ويلعن الحكومة والشرطة، والسجن. نظروا إليه بدهشة وهلع..وظلوّا صامتين. قفز نحو الباب والتصق به، مدّ بصره للأعلى بحثاً عن أحد، رفع عقيرته بالصراخ: يا شرطة..يا شرطة..
لم يتلّق جواباً..فلم يعد يحتمل نفسه، أو قادراً على كبح جماح غضبه:
-يا أولاد الكلب، تعالوا افتحوا..المجاري فاضت..يلعن أبوكم يا أولاد الكلب..
صار صراخه أشبه بالعواء، ارتفعت أصواتٌ من داخل الغرفة تناديه، ثم أحاطوا به، جروه بعيداً عن الباب وأغلقوا فمه بأكفهم، وأقعدوه أرضاً في مكانه. توقف عن المقاومة، والصراخ. هدأت نفسه قليلاً، فانهالت على رأسه كلمات التقريع:
-تريد أن تفضح الدنيا يا رجل.
-ستعاقب أنت، ونحن..بسببك.
-لا تعد لمثل هذا..
فتح الباب بعد ساعتين، لاستلام وجبة الغذاء، ظل طوال الوقت صامتاً يغلي. خرج إلى الساحة، وما أن رأى الشرطي أمامه حتى انفجر في وجهه. همّ الشرطي بالقبض عليه وسحبه خارج القسم إلى الضابط المناوب. فوقف نبيل حائلاً بينهما:
-الرجل حالته صعبة..ازرعها بذقني!
قال له، ثم استدار نحو عامر، فوجيء به يرفع يديه نحو الأعلى وفمه يرتجف:
-أنا حالتي ليست صعبة، لستُ مجنوناً..
جذبه نبيل بقوة، بعيداً عن المكان، ورجاه أن يصمت، ففعل.
-تعال..أدخل الغرفة!
قال له ودفعه أمامه..انتظر خروج الشرطي وإغلاق الباب:
-هديء أعصابك..ما زلت جديداً، وسوف ترى أشياء كثيرة..علينا أن نحتمل.
صمت قليلاً، ثم أشار إلى الهاتف:
-خذ اتصل بالبيت.
توقف المطر، انقشعت الغيوم، فبانت صفحة السماء مشرقة، ورمت الشمس أشعتها على الوجوه، فانفرجت الأسارير، اعتدل مزاجه بعد المكالمة. عاد إلى الغرفة، فأخبره المشرف بأن دور التنظيف يقع عليه. لم يتردد، أخذ علبة الصابون، واتجه إلى الحمامات. انحسرت المياه قليلاً ولكن فوهة المجرى ما تزال مغلقة، ومنظر البراز يملأ المكان، طافياً على سطح الماء! وقف حائراً للحظات، ثم أشار إليه الكوكا، أن يستعمل يديه !

أحضر سطل القمامة، أخذ يلتقط المخلفات بأصابعه، يشيح عنها تارة، وينظر بعين مغمضة تارة أخرى. شمرّ ثيابه عن ساعده، ودفعها في الفتحة لأكثر من نصف متر يستخرج القاذروات، ويرمي بها في السطل، فبدأت المياه النتنة بالمرور تدريجياً.
غسل يديه ورجليه جيداً، ثم فرك أرضية الحمامات وجدرانها بالصابون. صبّ الماء عليها، وجففها.. أفرغ محتويات السطل في الخارج وغسله. ثم أخرج الحصائر، كنس الأرض ومسحها، أنهى واجب التنظيف كاملاً بساعتين، ودخل الحمام، اغتسل بالماء البارد. بدل ثيابه، وأخذ يحضّر قهوته.
الشتاء قاسٍ كالألم. أول الليل عاد المطر يهطل، والبرد يشتد. البطانية لا تقيه ولا تمنحه الدفء، ارتدى قميصاً داخلياً آخر بلا فائدة. خلف رأسه الحمام والماء المنسكب فيه على مدار الوقت، يعلوه نافذتان صغيرتان، وأمامه الباب بشباكه الضيق، والفتحة بين الأرض والباب، تدخل منهما الرياح الباردة، تدور في الغرفة وتخرج من نوافذ الحمام، وعامر في ممر الريح. توالى الرعد والبرق..امتلأ قلبه بالرعب للحظة، وهو يتخيل صاعقة تنزل فوق السجن. ستحرق كل شيء والأبواب مقفلة. أرسل بصره عبر النافذة، فغابت روحه مع المشهد: رأى خيوط المطر المنسكبة من السماء، يعكسها ضوء الحراسة الذهبي المبهر. وتتقاطع مع شبك الحديد، ومن زاوية الشبّاك العلوي، لمح البرق يلمع، فابتسم، وامتلأ قلبه حبوراً.
أغمض عينيه على أمنيةٍ عزيزة. اشتهى أن يسير حافياً في غابة تحت المطر، فوق العشب الذي يخفي الطين، سيركض، سيترك الطين يلهث خلفه. سيركض قي العتمة الموحشة.. لن يخاف، ولن يحتاج إلى ضوء. قلبه سيقوده نحو التلّة ذات الأشجار الكثيفة، التي رأى القمر يختفي خلفها آخر مرّة. أحس بقطرات المطر تدّق على جفنيه وهو يعدو بعيداً، وحيداً وحراً في الغابة، بلا حرّاس..
فتح عينيه، همهم بكلمات، يجادل فيها ماإذا كنا محكومين بالأمل أم بالحرية، بل الإثنتين معاً: " الإنسان محكوم بالحرية والأمل ". تمنى أن يفتح الباب، وينادي عليه الشرطي لينقذف في الشارع حراً حافياً، مثلما اشتهى، وحتى عارياً. الأحلام لم تعد تولد مثل قبل. صار يتغير لونها، ولم تعد تأتِ في الليل..لأن النوم غادره في رحلة طويلة وبعيدة!
أصاخ سمعه لصوت المطر، وعينيه لا تحيدان عن شآبيبه. ألحانٌ تعتمل في داخله مثل وردة تتفتح على نافذة في الضلوع..الغصّة تضغط على صدره. الدمعة تختنق في الحلق. يتقلب في فراشه، يدفن رأسه في الوسادة، ويسقيها بدمع العين. ولدت الكلمات، كما تلد الأرض أعشابها:
-الله يرسل المطر من أجل السجناء..لكن الآخرين يختطفون الشتاء بأكملهِ..

انتشلته من تمنياته وأحلامه، ضربتان خفيفتان على طرف فراشه، وصوت مشرف الغرفة مجدي:
-انهض الماء ستصل إليك.
هبّ واقفاً، يدرء عن نفسه وعن فراشة وأغراضه، الماء المتدفقة من تحت الباب إلى داخل الغرفة. مياه الأمطار الغزيرة لم تعد المجاري قادرة على تصريفها، ارتفع منسوبها فانسربت نحو الغرفة. رُفعتِ الفرش بلمح البصر، وبدأ البحث عن أية أشياء يمكن أن تسد فتحة الباب دون جدوى. فاضت الحمامات من جديد. المطر لا يزال ينهمر بشدة، دبت الفوضى، ارتفعت الأصوات المحتجة باللعنات. بدأ السجناء يتناوبون على طرق الباب بقوة، بقبضاتهم، وبأقدامهم. علا الضجيج يصمّ الآذان، وقف أحدهم في الغرفة المقابلة يسأل:
-ماذا هناك؟
-الماء.. الماء دخلت الغرفة..اطرقوا معنا..
تواصل طرق الأبواب، يتعالى ويتناوب، حتى سمع السجناء صوت الشرطة تدخل القسم، وتنادي:
-طيب.. طيب ماذا حلّ بكم.
وقف الشرطي على نافذة الباب، يستطلع الأمر:
-الغرفة فاضت فيها الحمامات، ودخلت إليها الماء. الغرفة غرقت..إذهب وأحضر الضابط المناوب، أو المدير.
رد عليه الأفطس بنزق، ثم انشغل بنفسه، يلملم أغراضه التي ابتل جزء منها. أشعل سيجارة ووقف ينتظر متكئاً إلى الباب:
لن يتأخروا.
قبل أن يكمل جملته، وصل عمال المجاري، بدأو بفتح الأغطية في الساحة، ومدّ الأسلاك الحديدية عبر المجاري، يدفعونها عدة أمتار في الأنابيب، ثم يسحبونها للخارج أعادوا المحاولة عدة مرات، فبدأت بتصريف المياه..
لكن الجزء المواجة للباب من الغرفة، كان قد غرق تماماً.أخذ السجناء يتعاونون فيما بينهم لنزح الماء وتجفيف الأرض. جلب سخانة همام وأشعلها، بدأ يجفف طرف الفراش المبلل.
فتح الباب فجأة، ودخل العقيد مسعود، مدير السجن. ومعه رئيس مصلحة السجون، وضباط آخرون..ثلاثة عقداء والضابط المناوب، النقيب خليل، والملازم فيصل وعدد من الشرطة. دخل الجميع الغرفة، وقفوا في الممر. جالوا بأعينهم في المكان، النوافذ، الحمامات..دخل الأدنى رتبة إلى الحمامات، التقط السخانة وخرج بها. مرّ أمام عامر، استوقفه فلم يأبه له:

-إن شاء الله تحترق يديك.
قال عامر بصوت خفيض. نظر إليه الملازم فيصل بدهشة واستغراب، لكنه لم يعلق.
-خففوا من خيوط الكهرباء..يمكن أن تتسبب لكم بحريق.
لم يجب أحد بشيء. لكن عامر لم يستطع ضبط نفسه:
-لنحترق، ماذا يهمّ بعد المؤبد..أليس أفضل لنا.
أدار رئيس مصلحة السجون الحديث، نحو أمر آخر، طالباً الإلتزام بقواعد السلوك، خاصة بعد تكرار محاولات الهروب. وجد نفسه يرد عليهم، مرّة أخرى:
-نحن لا نهرب.. جماعتكم، المدعومين منكم هم الذين يهربون، أما نحن..فماذا لدينا؟ نهرب من السجن الصغير، إلى السجن الكبير؟!
كلماته نزلت على رؤوسهم، كوقع الصاعقة، كلمات أربكتهم، فاستداروا بتمهل نحو الباب، وبدأو بالخروج واحداً إثر الآخر. وقبل أن يضع قدمه على على العتبة، نظر رئيس مصلحة السجون إلى عامر، وسأله بصوت ليْن:
-ما قضيتك؟
-سياسي..
هزّ رأسه، تجرأ ولحق به:
-السخانة..
-أي سخانة!
-أجفف بها الفراش المبلول..
-أعطه السخانة، أرحنا منه.
رمى كلماته نحو الضابط المناوب، ومضى في سبيله.
الهزيع الأخير من الليل.. الفجر يقترب، ولم ينم أحد حتى الآن. الدوخة تلعب برأس نصف الغرفة، حشيش وحبوب، مساطيل بعيون منفوخة حمراء ساهرة، ساهمة في ملكوت الله. الهدوء يخيم، حتى همام ورفاقه يلعبون الورق بصمت تام. سمع عادل خشخشة في الزاوية التي يقبع فيها، أخذ سحبة من سيجارة الحشيش ثم أعطاها لعادل.
رفع الفراش فقفز في وجهه جرذ، صاح بهلع ورمى الفراش:
-جرذ..جرذ!
شبّ الجميع من أماكنهم، عيونهم على الأرض بحثاً عنه بعصا المكنسة. لم يلبث أن ارتفع صراخ من الحمام، وخرج النمس عارياً تماماً، يستر عورته بكفيه:
-جرذ، جرذ كبير دخل عليّ.
أسرع همام يرمي عليه غطاءً، دفعه بعيداً، ودخل الحمام بحثاً عن الجرذ الذي تمكن من الوصول إلى أعلى، بلمح البصر. بدأت مطاردته، حوصر، ثم برمية فنيةٍ

بالحذاء، جاء أجله، قضى عليه أحمد المتلول. رفعه من ذيله ورماه في سطل الكناسة.
ارتفعت أصوات النصر، مهللة:
-أحمد..يا متلول
يا خنّاق الدجاج
فوق التلول
-ما علاقة الدجاج!
-لا بد أنك كنت تسرق البيض، وتخنق الدجاج..
ضحك الجميع على خنّاق الدجاج، ونسوا النمس العاري الذي انسل إلى فراشه خجولاً. غطى رأسه، وتظاهر بالنوم.
بدأ النهار يطلع، وعاد المطر يهمي خفيفاً، رهاماً ناعماً متواصلاً. اقترب موعد الإفطار، دار المفتاح في القفل، وسُحب المزلاج. وقف نائب المدير يسدّ المدخل بجسده:
-انهض.. انهض أنت وإياه.
ترجل إلى العتبة، استنشق رائحة الغرفة، حرك رأسه وزنده مهدداً محذراً:
-صباح يا فتاح.. تنامون على الحشيش وتصحون عليه! رائحته جاءت بي من الممر..
حدّق في الوجوه، وأمر الجميع بخلع ملابسهم، كل الملابس، والخروج إلى الساحة:
-برد.. برد سيدي، ومطر.
-المسطول لا يهمه البرد والمطر..هيا بسرعة!
تدافع السجناء نحو الجدار المقابل، يحتمون بشرفة الإدارة، من الرذاذ البارد، والهواء الذي يدور في المكان، يلفح الأجساد العارية المرتجفة، والمطر يتساقط عليها، كنقر الدجاج لحبات القمح.
-تعالوا إلى هنا..
أشار إلى وسط الساحة: وجوهكم إلى الجدار، ولا تتحركوا.
أعاد إغلاق الحجرة وغادر، بقي العراة حفاة، بدأ الهمس يسري بينهم، ثم أخذت الضحكات المكبوتة تنفلت من بين شفاهم. وتبدد معها الحنق والغضب.
-تضحكون، ها..
قال من بعيد وهو يدخل من الممر، ومعه ثلاثة عناصر من الشرطة.
-ادخلوا فتشوا الحجرة، كل شيء..
بعد ربع ساعة، تجرأ عامر واقترب من الباب، رمى نظرة حذرة من بعيد. اشتعل الغضب في صدره، صار يروح ويجيء. لم يعد يحسّ بالبرد والمطر:
-قلبوا الغرفة، رأساً على عقب!

-ارجع إلى هنا.. إبق هنا.
نادته الأصوات المشوبة بالخوف، المترقبة بقلق ظاهر، أصوات تريد السلامة لنفسها بأقل الخسائر، لا يعجبه ذلك. روح التمرد تغلي في داخله، هم من طينة، وهو من طينة، فكر وقال لنفسه: استكن تسلم..هذه ليست لي.
لا يمكنه الخنوع والخضوع للأمر الواقع، هو محكوم بالمؤبد، لم تعد للأشياء التي تلي ذلك أهمية. وها هي فرصة سانحة، ليواجه السجان. صار يقترب من الحجرة أكثر، يقف بالباب لحظات، ويقفل راجعاً وصوته يعلو:
-لا يجوز.. هذا غير معقول.
أمامه يمرّ الشرطي حرب محملاً بالمصادرات.. يرى أشياءه الخاصة المصادرة منه: ركوة القهوة، غلاية الماء، شاي الكيس، علبة المناديل المعقمة! حاول اعتراض الشرطي، خرج نائب المدير وصرخ في الوجوه المتطلعة إليه:
-من هو الكلب الوسخ، الذي كان يتكلم.
لم يجب أحد، أعاد سؤاله. كان عامر في مقدمة السجناء تقدم خطوتان نحوه، رفع يده وقال:
-أنا من تكلم..أنا لست كلباً، ولا وسخاً.
لأول مرّة، يجد نائب المدير أحداً يواجهه. اعتاد على الخنوع والصمت والإذلال والإهانة، أن يفعل ما يشاء. كان مجرد ذكر اسمه، يثير الخوف في النفوس. عقدت لسانه الدهشة حدّق فيه بعيني ذئب كسير:
-ما الذي تقوله؟
-أقول أن ما فعلتموه..هكذا تقلبون الدنيا، غير معقول..
-غير معقول؟ ماذا تريدني أن أفعل؟
ارتفع صوته في وجهه، أخذ يهدر تدريجياً، ليستعيد زمام الموقف الصعب الذي صار فيه. عامر سجين سياسي وهو يخشى..ما يخشاه!
-تريد أن تعلمني شغلي؟
مدّ يده إلى جيبه، وقرّبها من عينيه، فتحها فبانت قطعتي حشيش ملفوفتين بمنديل.
-تفضل إنظر ما وجدت في الغرفة..إنظر إلى هذا أيضاً.
أخرج من جيبه الثاني جهازي هاتف نقال..ألح عليه أن يمسكها بيده ويتأكد منها، رفض خشية أن يلفق له قضية حشيش بالبصمات التي سيتركها على القطع. أحسّ بالموقف يخذله، كاد أن يتراجع، لكنه استجمع شجاعته:
-وما علاقتي أنا بذلك.. لا أدخن، ولا هاتف لديَّ.
-غيرك عنده.
-من حقك أن تفتش، ولكن ليس بهذه الصورة!

دبت الشجاعة في قلوب السجناء، فتحلقوا حوله ونائب المدير، اختلطت الأصوات المحتجة، ضاقت الحلقة عليهما، انسحب إلى الخلف وهو يردد محرضاً الآخرين على الكلام:
-هذا معتقل!
شقّ نائب المدير طريقه نحو الممر، بصعوبة بالغة، وعند الباب اعترضه عامر مرّة أخرى، فصاح في وجهه:
-ماذا تريد؟
عقدت الحيرة لسانه ما أراده هو مواجهته، وإحراجه لا أكثر. فماذا يقول له؟
-أريد الملعقة.
-لن أعيدها لك.
صرخ بنفاذ صبر، وخرج لا يلوي على شيء.
عاد الجميع إلى الحجرة، بدأوا البحث عن ثيابهم لارتدائها، كانت الغرفة في فوضى لا يمكن تصورها. كل شيء مبعثر، لا أحد يعرف أشياءه. قرر استمرار المواجهة، حرّض السجناء على طلب المدير. طرقٌ شديدٌ على الباب بالقبضات والأقدام. جاء النقيب حسين، تطلع من الباب نحو جبل الفوضى. بدت على وجهه إمارات الإستنكار، وهو يحاول امتصاص الغضب:
-سنبدأ إضراباً عن الطعام.
-لا بد أن يأتي المدير.
-نريد لجنة تحقيق..
تعالت الأصوات من حوله، وعدهم بعدم تكرار الأمر. مضى للخروج، وعامر يلحق به، يتفوه بما لا يقال:
-هذه عصابة! ألا يخجلون من الحديث عن حقوق الإنسان؟

* * *

لم يقوَ على بلع لسانه، كأنّ حمّى أصابته، لا يعرف ماذا يفعل. يقف وسط الغرفة، ينظر إلى تلّة الفرش والثياب والحقائب، يضع يديه على خاصرتيه، يخرج، يخطو في الساحة قليلاً ثم يعود، لسانه لا يكف عن رمي اللعنات والشتائم. استبدت به جرأة التحدي، وروح التمرد. كل شتيمة ولعنة تخرج من فمه، ثمنها ثلاث سنوات سجن! والواشون القوادون لا أكثر منهم سوى الصراصير والديدان التي تعشش في كل مكان من السجن.

هكذا ببساطة، لا يمكن أن يخنع مثل السجناء الآخرين، صحيح أنهم يفوقونه تجربة ومعاناة، وما مرّ عليهم من تعذيب، لم ينل منه إلاّ القليل. لكن معظمهم يخافون المواجهة، يخافون أي شيء له علاقة بالسجان. أكثرهم جهلة..ينظر إليهم بقلب يأسف لحالهم. الضياع يأكلهم، يفتتهم شيئاً فشيئاً، والمخدرات تلعب بهم، تسيطر عليهم، ولا يستطيعون الفكاك عنها.

ليس السياسي الوحيد بينهم، أربعة آخرون: الطيب ضابط في الجيش، عادل رجل أعمال يقيم في الاسكندرية، لم يعرف بعد ماذا يعمل،لكنه كثير الأسفار. أما الرابع فكان شاباً عاطلاً عن العمل! الضابط هادئ ومتماسك، لا يدخن، لا يجادل ولا يخالط أحداً، ولا يتدخل في شيء. أما الثلاثة الآخرون فليس لهم من همّ سوى تأمين المخدرات: حبوب، وحشيش فقط. الرابع لا بأس لديه في خلط أي شيء مع كل شيء. غالباً، وهو يفكر بأحوال هؤلاء السجناء، تخطر على باله رواية فقهاء الظلام " لسليم بركات حين يستمع إلى أحاديثهم. أو يتذكر كتاب" مجمع الجهلة" لعلي مصطفى المصراتي حين يراهم يقتتلون لأتفه الأسباب. وأحياناً يستعيد مشهد "أسعد فضة" يقف وسط ساحة السجن، في فيلم "القلعة الخامسة". صورة تسكن مخيلته منذ ربع قرن.. ربما، لكن الساحة الآن أمامه صغيرة وضيقة، ولا أحد هنا يشاطره الأفكار، لا أحد يقرأ: الكتاب لديهم، كي يجعلوا منه وسادة، أو دفتراً للعب الورق!

-لن أسكت..

-ستسكت.. أنت هنا لتتعلم كيف تلّم لسانك، وتقصّه.

قال همام.. صمت قليلاً وهو يبحث عن سروال داخلي ضائع. أضاف:

-أنت أستاذ..لكن خذها مني، أنا أميّ، ولي في هذا المكان اثنتي عشرة سنة، بالتمام والكمال..تعلّم مني.

-لن أتعلم شيئاً من هنا، ولن أسكت.

قال بنزق، وشبَّ على الفور من مكانه كالملدوغ، ومشى بخطوات سريعة نحو باب القسم، وأخذ يطرقه بشدة.

نظر الشرطي عبر النافذة الصغيرة، التي لا تظهر سوى عينيه:

-أريد المدير.

-المدير مشغول.

-قلت لك أريد المدير.

تركه الشرطي يصرخ، ويخبط الباب بكفيه، دون أن يرد عليه، تأجج غيظه، ودون أن يشعر فتح الباب. وجد نفسه وجهاً لوجه أمام النقيب حسين:

-أنت تريد المدير؟

-فقدت مني أشياء.

-ابحث عنها تجدها، لم يأخذ أحد شيئاً.
-لم يعد هناك أنبياء..
-ماذا تقصد؟
-ما سمعته!
فقد النقيب أعصابه، انهال عليه ضرباً موجعاً، أكفّه ترن على خديه، صفعة تتلو الأخرى، لم يعد يرى أمامه، يرفسه بقدميه، وقبضته وعصاه تنال من ظهره وكتفيه وبطنه، وفمه..سال الدم من وجهه..لم يتفوه عامر بكلمة لاذ بالجدار خلفه، السجناء من حوله ابتعدوا إلى الوراء، عقدت ألسنتهم الدهشة، كان النقيب حسين يضرب ويلهث، وبين الضربة والأخرى يصرخ، يعوي:
-ماذا قلت..ها؟
في ذروة الهيجان، دخل الشرطي عجيل، ليأخذ عامر الى المدير.
النقيب حسين طويل القامة، قوي البنية. أما هو فكان ضعيفاً قصيراً، هبطت كفّه على كتفه بقوة، وجرّه من ثيابه للخارج، دفعه أمامه بركلة، ألحقها بصفعة، ثم مشى بخطوات مديدة سريعة نحو الإدارة يجره إلى جانبه، وقبل أن يصعد الدرج لمح المدير أمامه، لكنه أدار ظهره. صعد به نحو مكتب نائب المدير، أدخله ورماه أمامه على الأرض.
-هذا الكلب يشتم الدولة، ويشتمنا، و..
أسكته نائب المدير بإشارة من يديه، ونهض من وراء مكتبه، تقدم نحوهما مذعوراً:
-ما هذا؟ أخرج وأتركه لي!
لم يكن النقيب حسين يعلم أنه سجين سياسي، وأنه- ربما- أوقع نفسه في المحظور.
خرج من المكتب، أغلق الباب خلفه، مدّ نائب المدير ساعديه نحوه وأجلسه على الكرسي. قدّم له كأساً من الماء كي يهدأ، وأعطاه النقيب صالح مناديل لتجفيف الجرح، ومسح الدماء التي تسيل من جبينه على وجهه.
-أنت جلبت ذلك لنفسك.. لماذا لم تأت إليَّ؟
-لم يقبل الشرطي، ولا النقيب حسين.
-أطلبني أنا..ولكن في المرة القادمة، لا تتهور..
-لا يمكنني السكوت..
قاطعته ضحكة العقيد ومساعده وهما يغيّرن أجواء الحديث بلطفٍ غير معهود.
لايريدون للحادثة ان تأخذ منحى آخر، فالمسألة تتصل بانتهاك الحقوق وبممارسة التعذيب. كانت أجواء البلاد تمرّ بأوضاع تهدف إلى تحسين سمعتها! قبل أيام فقط، أطلقت جمعية حقوق الإنسان حملة لمناهضة التعذيب..وهو يريد أن يستثمر تلك الظروف، مدركاً أن تلك الإجراءات ليست أكثر من ذرّ الرمال في العيون!

-اسمع..
قال نائب المدير، وهو يجلس بجانبه، ويتحدث إليه بودٍّ لافت:
-لا تحمل السلمّ بالعرض، ما لك والحديث عن حقوق الإنسان، والدفاع عن الآخرين. دعك منهم، واهتم بشؤونك..
-أولئك حُثالة..
قال مساعده.
-وأنا منهم..
-أنت إنسان محترم..وإذا أردت شيئاً تعال، لن نقصِّر معك.
أخذه نائب المدير من يده وخرج به، كان الضابط يقف في البهو، اقترب منه: النقيب حسين رجل طيب، ولم يقصد إيذاءك أو الإساءة لك. لذلك سنتجاوز الموضوع، وتعود إلى قسمك الآن.
قبل أن يضعا قدمهما على أول درجة للنزول، ظهر المدير أمامهما، نظر إليه وقد أدرك تسوية الأمر، أو أنه كان ينتظر ذلك بفارغ الصبر:
-ما به؟ إذا كان مشاغباً، ضعه في الإنفرادي أسبوعين.
قال كلماته ومضى في طريقه دون أن ينتظر جواباً، كان يتظاهر بالسيطرة على الأمور، وعلى أنه حاسم، رغم ضعفه التام في إدارة السجن. دخل إلى العيادة لتنظيف الجروح. حاول الممرض جمع مخلفات القطن الملوثة بالدم لرميها، مدّ كفّه وأخذها على الفور: أتركها لي، أنا سأرميها.
عاد إلى غرفته، رمى نفسه في الفراش، وسحب الغطاء على رأسه. تقدم منه همام:
-ضرب الحكومة، ليس عيباً.
اعتدل في جلسته، نظر حواليه وقال بصوت عالٍ:
-لا مشكلة لديّ، ولست خائفاً من شيء، أو من أحد..لكن المشكلة في القوادين..الكلام الذي دار بيننا داخل الغرفة، وصل للإدارة بسرعة..والواشي عرفته، وسوف أفضح الذي خلّفه..
اغتسل، بدّل ثيابه، أكل لقمتين، شرب القهوة، وخلد إلى الراحة قليلاً. حضّر نفسه للزيارة في اليوم التالي: جمع الأغراض، والعلب الفارغة التي سيعيدها إلى البيت، دسّ في طياتها القميص الملوث بالدم، وقطع القطن والشاش، أخفاها جيداً وقدمها إلى الشرطي عجيل عبر نافذة الزيارة، لحظات سكنت فيها أنفاسه..حتى استلمتها شام.
كانت تفصل بينهما طبقتين من شباك الحديد، وفي الوسط ممر، يمكن للشرطي أن يروح ويجيء فيه لمراقبة الزائرين..لصق رأسه بالشباك:
-سأقولُ لك شيئاً، لكن أبقي متماسكة.
أشار بأصبعه إلى الجرح:

-انظري إلى هذا..
روى لها ما حدث، اغرورقت عينيها الجميلتين بالدموع:
-لم أحكِ لك لتبكِ! أبلغي لجنة حقوق الإنسان.
صباحاً - بعد يومين - كان عامر والنقيب حسين، يخضعان للتحقيق فيما حدث. لم يدّع أحدهما ضد الآخر. سجّل عامر موقفاً ضد الشرطة، كي لأتلجأ إلى التعذيب.
صارت الإدارة، والضباط وأفراد الشرطة، تحسب له ألف حساب. ولم تعد لتفتيش القسم الذي يقطنه، مرّة أخرى، بالطريقة التي حدثت من قبل!
استقبله نائب المدير في مكتبه، إثر التحقيق:
تهيأ..عندك زيارة خاصة، الساعة الواحدة بعد الظهر تأتي زوجتك.
أسرع إلى غرفته، حلق ذقنه. أخذ حماماً بارداً، ارتدى ثياباً نظيفة، وقف عند الباب ينتظر. اقترب منه نبيل باسماً:
-تعال يا رجل، خذ قليلاً من العطر، زيارة خاصة، لا تصحّ لأحد!

15

دون سابق إنذار، الغيت الزيارات لمدة أسبوعين! شُددت الحراسات، وقُيدت حركة السجناء، إلى أضيق نطاق. بدأت الإدارة تجري العدد ثلاث مرات في اليوم. تم التفتيش الدقيق على كافة الشبابيك، وأزيلت كل أغطية النايلون التي تقي من المطر، أو أي شيء آخر مربوط بالقضبان الحديدية، بما في ذلك شفاطات الهواء.
صباح اليوم، اكتُشف هروب سبعة سجناء من قسم الإعدام. هربوا ليلاً من الزنزانه!
انقلبت الدنيا رأساً على عقب. أُلقي القبض على طاقم الحراسة المكلف بقسم الانفرادي، ومنع الضابط المناوب من مغادرة السجن، دون إذن من النيابة. أُدخل

جميع السجناء الذين يقومون بأعمال الإدارة والخدمة والصيانة، وألغيت امتيازاتهم بالنوم في أماكن عملهم. ساد جوّ من التوتر والقلق والترقب، مع احتمال قيام حملة تفتيش واسعة لا تبقي على شيء.

آخر الليل، دخل الوردي ومعه الأخبار: ألقي القبض على أحدهم خلف سور السجن، مرمياً على الأرض، بسبب طلقة أصابته عند المطاردة. أما البقية، فقد لاذوا بالفرار!

مصطفى يتجاوز عمره الستين سنة، أب لثمانية أبناء، لا يتوقف عن التفكير في الهروب. وكلما فشلت محاولة، خطط لأخرى. وفي كل مرّة، تساعده زوجته على الهرب. لكنها في المرّة قبل الأخيرة، ألقي القبض عليها بعد أن وشى بها أحد السجناء الذي تعهد بإدخال الحبال، والكماشة، ومقص الحديد، ونصلة المنشار مقابل مبلغ من المال. لكن القاضي رأف بحالها فأطلق سراحها.

كان قسم الإعدام، حصيناً إلى درجة شديدة. لكن مصطفى استطاع إقناع ستة آخرين من المحكومين بالإعدام، على البدء بتنفيذ مشروع الهرب الجديد. وفّر كل شيء، من الأدوات إلى الطعام. كانت مهمة المجموعة أن تقوم بنشر القضبان الحديدية الأربعة، لنافذة الزنزانة الملاصقة للسقف.

ليلاً، ما إن يبدأ بث الفيلم الأجنبي في قناة أبو ظبي، ينشغل الحراس في مشاهدة الفيلم. يعلو صوت المسجل في الزنزانة ويصعد أحدهم على كتف آخر، ويبدأ بنشر الحديد بهدوء وقوة ودقة، يتبادل السجناء الأدوار، فيما يقوم الثلاثة الآخرون في الزنزانة المجاورة بحفر الجدار بين الزنزانتين. انحصرت مهمة مصطفى في مراقبة المكان عبر نافذة الباب الصغيرة، وتحضير الشاي وإشعال السجائر، وتقديمها للآخرين..استمر العمل أربعة أشهر.

تُركت القضبان متصلة بالحديد، بصورة يمكن كسرها بسهولة في اللحظة المناسبة، وتم تمويه أماكن النشر بربطها بأشرطة قماش ملون وقديم.

طوال تلك الفترة، كانت المجموعة تأكل اللحم يوماً، وترمي به يوماً آخر للكلاب التي تحرس المسافة الفاصلة بين الإعدام وسور السجن الداخلي. عبر النافذة ذاتها، نشأت علاقة حميمة بينهم وبين الكلاب، لكنهم في الليلة الموعودة، أحضروا عدداً كبيراً من الدبابيس الناعمة، رشقوها في قطع اللحم، ورموها للكلاب، في الحادية عشرة ليلاً.

ترقب السجناء بهدوء انطفاء العواء المبحوح للكلاب، الحبال جاهزة، ومع الثالثة فجراً تحركت المجموعة ارتقى سعد كتفي أحدهم، نزع القضبان بسرعة، ربط الحبال ونزل إلى الخارج، تلاه مصطفى والآخرون. وبالطريقة ذاتها اجتازوا السور الداخلي، وجدوا أنفسهم مضطرين لعبور مسافة طويلة داخل المزرعة الملحقة بالسجن، نحو الجدار الخارجي والأخير..

ركضوا بخفة بين الأشجار، وما إن وصلوا الجدار حتى أحس بهم الحراس، تراكضوا باتجاههم، قفزوا على عجل واحداً إثر الآخر، تحت زخات الرصاص المتراشقة حولهم، لكن مصطفى أكبرهم، وأقلهم قدرة على التسلق صعد الجدار بصعوبة، وما إن همّ بالقفز خارجاً، حتى أصابته طلقة في ساقه، رمته خارج السور، وتكسرت ساقيه، همد في مكانه لا يقوى على النهوض، فوقع في أيدي الحراس غنيمة طازجة وشهية!

مرّ أسبوع، ولا تزال الزيارات مغلقة. وكل يوم تقوم الإدارة بحملة تفتيش على أحد الأقسام. لم تعد تدخل أطعمة سوى طعام السجن، ولا أي شيء آخر، المواد التموينية والدخان، والشاي والسكر والقهوة..بدأت تنضب. ثمن السيجارة الواحدة، صار يساوي علبة دخان كاملة. الحشيش اختفى تماماً بعد اليوم الثالث، مالت الأجواء نحو التوتر داخل القسم. أصبح النزق سيد الموقف، ولأتفه الأسباب يثور أحدهم، فتندلع المشاحنات.

النمس لا يزوره أحد منذ سنوات، ولا يستطيع شراء الدخان بسعره النار. عيناه الحمراوان تدوران في محجريهما، والحبوب المخدرة صارت في خبر كان..فقدانها عطّله عن المتاجرة بها، وعن تناول نصف حبة أرتان كل ليلة. عصر اليوم الثامن، كفّ ثيابه عن ساعده، وقف أمام حلّة الشاي الفارغة، مدّ يده يلم عشبة الشاي المترسبة في قعر الإناء. عصره جيداً بكفيه، مدّ قطعة من القماش على الأرض، وفرش عليها العشبة، وجلس بقربها. عند موعد الإغلاق وضعها قرب الجدار المقابل، وأخذ يروح ويجيء في الليل، ينظر إليها عبر نافذة الباب. جفت مع الصباح تماماً، تلمسها بأصابعه كما تتلمس المرأة قطعة الذهب. جمعها في كيس صغير، وصار يلف القليل منها في ورقة ويدخنها مثل سيجارة..نكهة الشاي في فمه، دخان كثيف..بلا كيف يملأ الرأس الذي يكاد ينفجر من الألم..لا فائدة، لكن عدد مدخني الشاي صاروا أكثر خلال يومين!

عامر لا يدخن، لكن طعام السجن حار جداً، يسبح السوس في حساء الفاصوليا البيضاء، والصراصير والذباب بهارات مفضلة في وجبات أخرى. أما التراب لا يقبل الإنفصال عن حبات الكوسا واللفت والبطاطا..إن وجدت. اخترع وجبته الخاصة: أبريق من الشاي مع بقايا من البسكويت، والحلاوة، والخبز اليابس، تخلط مع بعضها جيداً. وإن توفرت قطعة من الجبن..فتلك وجبه رائعة.

اليوم الحادي عشر، قبيل الظهر، دخل المدير رفقة نائبه وشخص آخر مدني، تجولوا في القسم، عاينوا بأعينهم السقوف والجدران، غرفة غرفة..لدقائق معدودة، نادى المدير على الوردي، اصطحبه معه، وغادروا القسم. ثم عاد الوردي بعد ساعة، وقف بالباب، يحمل بيده أوراقاً، نادى الجميع:

من يسمع اسمه، يستلم فراشاً ووسادة، ويوقع هنا.
تدافع السجناء نحوه وعمت الفوضى..
رفع صوته عالياً:
-اسمعوا..لم أكمل كلامي بعد..الحصار علينا انتهى..والزيارات مفتوحة منذ الغد!
علت الصيحات مهللة، مستبشرة، أطلقت الأفواه صفيرها، وصفقت الأكف، فرحة بانفراج الأمور.
كان الفراش الأسفنجي رقيقاً، ذي وجه قماش رث، والوسادة كذلك. لكنها في كل الأحوال جديدة، وأفضل من لا شيء. أخذه عامر ورماه فوق فراشه، ثم اتجه نحو الباب، نظر عبر النافذة الصغيرة فرأى أسرّة حديدية تُنقل نحو الأقسام الأخرى.
أسرع نحو الوردي، وأخبره:
-ينقلون أسرّة إلى الداخل.
ترك طعامه، ارتدى حذائه وخرج على الفور، ولم يمض وقت طويل حتى كانت الأسرّة الحديدية تدخل إلى القسم، وتوزع على الغرف. نام السجناء الليلة على الأسرّة، لأول مرّة! كانت الدهشة تعقد الألسن، والأسئلة تدور في العيون التي لا تصدق ما تراه: وسائد وفرش وأسرّة، وفك حصار دفعة واحدة، في مساء واحد؟ ما الذي يجري؟ تساءل في نفسه. لم يصبر، لم يقو على دفن السؤال في صدره، اقترب من الوردي، فهمس له:
-غداً، لجنة تزور السجن.
-لجنة ماذا؟
-لا أعرف.. لكن الدنيا مقلوبة في الساحة والإدارة، ومدخل السجن، دهان جديد، تنظيف، وزراعة نباتات وزهور..!
الصباح التالي، كبرت المفاجأة فيه، تغيرت وجبة الإفطار، أضيف إلى الحليب والقهوة والبيض، جبن وزيتون، بعد أن كانت تقدم منفردة كل يوم. وألصقت الإدارة منشوراً داخل القسم يبين الوجبات اليومية طوال الأسبوع، أنواع اللحوم والخضار، وكمياتها لكل سجين. فُتحت الأبواب، نظّفت الساحات والممرات، ورُشت بالماء.
دخل الممرض برداءٍ أبيضَ نظيف ومكوي، يدّق أبواب الغرف:
-مَنْ مريض؟
وقبل أن يسجل اسماً واحداً، استُدعي فهرول خارجاً، تبعه المرضى، أوقفهم الشرطي عند الباب:
-فيما بعد.. العيادة مشغولة.
-ذيب الشرقاوي شنق نفسه!

قال أحد السجناء العاملين في الساحة، رمى كلماته بصوت خفيض وانسحب بعيداً عن الباب.
ذيب اسمه المستعار، محكوم عليه بالإعدام، ثم خفّض إلى المؤبد في قضية لا تستحق الإعتقال. شغبٌ في مباراة لكرة القدم، تحولت إلى مواجهة مع قوات الأمن. اعتقل العشرات بعد تمزيق صورة الزعيم، ومُسح النادي من جذوره، سوّي بالأرض تماماً. كان وحيد أمه التي دقت كل الأبواب، ولم تعد سوى بالوعود الكاذبة. استبد به القلق والتوتر العصبي، لم يعد يحتمل..فتخلص من العذاب مرّة واحدة!
شباك غرفة الأسعاف والملاحظة يفتح على الممر، داخل القسم. جلس ثلاثة من السجناء القرفصاء تحت النافذة، يسترقون السمع، وبين الفينة والأخرى، يطلون بأطراف عيونهم إلى الداخل، حيث جسد ذيب الشرقاوي ممدداً على عربة الإسعاف، مغطى بالملائة البيضاء..
-حوّل الجثة للمشفى.
-والتقرير سيدي؟
-هبوط حاد في القلب.
كل يوم، في الغرفة ذاتها، سجين ميت، والتقرير الطبي، لا يحمل سوى عبارة واحدة "هبوط حاد في القلب". قال لنفسه وهو ينقل خطواته المتثاقلة نحو الحجرة. تملّكه الأسى وهو يرى شباباً يقضون بسبب الأمراض التي لا يعالجون منها، أو نتيجة لاستفحال آثار التعذيب، التي يتستر الجميع عليها!
اضطجع في سريره طلباً للقيلولة. الساعة تقترب من الثالثة والنصف بعد الظهر، مدّ الطيب السوداني رأسه عبر النافذة، وأطلق العنان لصوته:
-عامر..اللجنة جاءت!
قفز من مكانه، لحظاتٍ وكان يلتصق مثل غيره بالباب الخارجي، أفسح له السجناء قليلاً كي يصل النافذة الضيقة. لم يرَ هو، ولم يرَ أحدٌ غيره، أحداً في الفضاء أمامه. نادى على الممرض:
-أين اللجنة.
-دخلت القسم السابع.
بعد قليل مرت اللجنة، شاهدها: امرأتين، ومن حولهما ضباط كثر. طرق الباب، تعالت الطرقات، نادى أحدهم على اللجنة:
-تعالوا..هنا قسم المؤبد..
مرت اللجنة، ولم تلتفت إليهم على الإطلاق. نزل الصمت على الجميع، مثل مصيبة كبيرة. تبددت آمالهم، ضاعت أحلامهم بأن يصل صوتهم لمن يمكنه أن يرفع الظلم عنهم، أو يخفف وطأة السجن عن صدورهم!

قبل الغروب، جاء الشرطي عجيل ومعه عامل الصيانة وقام بإغلاق نافذة الباب الصغيرة، إغلاقاً تاماً بصفيحة حديدية، كي لا يتمكن السجناء من رؤية الساحة. لكن- مع ذلك- خلّف اللحام ثقباً صغيراً في زاوية النافذة.

-ما هذه اللجنة يا عجيل؟

-والله لا أعرف..يقولون من الأمم المتحدة.

-لا تحلّ ولا تربط.

انسحب بهدوء. جلس إلى جانب همام وشعبان، وهو يردد العبارة ذاتها. كانت المرأتان تمثلان مجلس حقوق الإنسان في الأمم المتحدة، رئيسة المجلس، وسفيرة ليبيا فيه!

-لا خير يرتجى منها.

-إذن.. لماذا جاءت؟

-لذرَ الرمال في العيون.

قال بعصبية. ملأه شعور بالإحباط، خلد إلى السكينة، ولم يعد قادراً على الكلام في الموضوع. أخذ يفكر فيما يمكن أن يحدث لهم بعد زيارة اللجنة. تولدت لدية خشية أن تعاود الإدارة التضييق عليهم، وأن تلجأ مجدداً إلى التعذيب والعزل، أكثر من قبل. قرر أن يستثمر وقته في القراءة والكتابة ما أمكنه، وأن يأخذ ذلك شكل التحدي، بروح متمردة، لا تعرف المهادنة والخنوع..

سمحت له الإدارة بزيارة المكتبة الهزيلة، المتواضعة، التي تعلو أرففها الغبار. وخلال أيام ساعدته ظروف الانفراج على إدخال الصحف والمجلات والكتب، بصورة سرية قبل أن يعلن المدير أن وسائل الإعلام أصبحت منذ الآن متاحة!

جلب عامر عدداً من الكتب والمنشورات المتصلة بحقوق الإنسان. أمسك بها بيديه، وقف في منتصف الحجرة، لوّح بها أمام الجميع وقال بصوت عالٍ:

-تعرّفوا إلى حقوقكم.. أنا مستعد لإعارتها لكم..لكن احذروا القوادين!

في الصباح، أخذ واحدة من الصحف، وقليل من معجون الأسنان، ولصق الجريدة على الحائط.

-اقرأو.. وكل يوم سألصق لكم صفحات جديدة.

لم يخالجه أي شعور بالخوف، مما يقوم به. ثمة شيء ما يعتمل في داخله، يدفعه للقيام بذلك، بل بما هو أكثر، ولن يعيقه شيء عن النضال داخل السجن، ضد التعذيب، والقهر، والإذلال..وأن يبدأ بتعريف السجناء بحقوقهم، أن يزرع الشجاعة في قلوبهم:

-أنت تقوم بالتحريض.

-قال له الوردي ناصحاً ومحذراً.

-محرضاً من أجل الحرية..لا بأس بذلك.

-سيجرونك إلى المحكمة، وتجد نفسك في قضية ثانية.
-أنا لا أدفع بهم نحو التمرد، وعليهم اتقاء شرورهم بالمعرفة.
-أية شرور؟
-شرور أنفسهم، وشرور سجانيهم!
تتالت زيارات اللجان إلى السجن، تكاثرت كالذباب، دخل التلفزيون، وتراجعت حملات التعذيب والتفتيش، وتبدلت بعض الشيء معاملة السجان. كل لجنة كان يقف عامر متحدثاً أمامها يشرح مشكلات الآخرين، وعذاباتهم.
-تحدث عن مشكلتك لوحدك..
-قال له المدير ذات مرّة.
-بل عنهم..أن يصل صوت هؤلاء..أهم من مشكلتي.
لجنة صحية، لجنة لمراقبة الغذاء، لجنة لإصلاح وترميم السجن، لجنة للتحقق من عدم التعذيب، لجنة من خارج البلاد، لجنة من الداخل. لجنة رسمية، لجنة شعبية.. تأت وتذهب ولا فائدة. وفي كل مرّة تنتشر الإشاعات القوية: عفو شامل، قريباً. ترحيل للأجانب إلى بلادهم..وكل ثلاثة أشهر تتجدد الإشاعات، تخفق القلوب، وتتحضر النفوس..ترتفع المعنويات، وتعلو الهامات، ثم تنحني وتنكسر، ليزداد الألم والحزن، وتدخين الحشيش.
الطيب السوداني ببشرته الداكنة، وقامته الرفيعة الطويلة، يكسب من غسيل الثياب لميسوري الحال. لكنه شغوف بالحديث عن السياسة، تحليل الأخبار، إلى درجة الملل. أذنه المقصوصة سهواً من أيام التعذيب، تلتصق بالراديو، ولا يمكن لأي نشرة من إذاعة لندن – خاصة - أن تفلت من سمعه. يقف عند الباب، في أوقات الراحة. وما أن تأتي لجنة، حتى يهرع إلى الداخل، وينادي مثل ديك الصباح:
-عامر، لجنة جديدة..
-لن أخرج.
-يا رجل، كيف لا تخرج؟ هذا موضوع يهمك!
آثر أن يرتاح في مكانه، كان قد خرج لتوّه من الحمّام. أخذ يتناول إفطاره بهدوء تام. القسم يغلي بالأخبار التي تروح وتجيء، وتكبر شيئاً فشيئاً عن اللجنة الجديدة. مرت ساعتين، ثم دخل الوردي، وقبل أن يدخل الغرفة، نادى عامر، وقف بالباب وهمس له:
-لجنة حقوق الإنسان، تسأل عنك، ويطلبونك حالاً.. تعال معي.
سار خلف الوردي نحو الإدارة، صعدا الدرج. أمام مكتب المدير، رأى د.جمعة رئيس اللجنة، حدّق كل منها بالآخر، علت منهما صيحات الترحيب، تعانقا، ووسط دهشة ضباط الشرطة قاده نحو الداخل، وقدمه لأعضاء اللجنة:

- كاتب وشاعر وصحفي، وصديق.
صمت قليلاً، ربّت على كتفه، وأضاف: ومحكوم بالسجن المؤبد..
-لم نتعرف عليه من قبل..
-ستتعرفون عليه، قريباً سيفرج عنه، ستنتهي هذه المزحة السخيفة..المهزلة!
قبل أن تغادر اللجنة، اصطحبها عامر إلى القسم السادس، شرح لها عن مشكلات السجناء، فرداً فرداً، أطلعها على واقع الحياة، والتعذيب، والعدالة الغائبة. قاد رئيس اللجنة نحو غرفته:
-هذا سريري..
-هذا أفضل بألف مرّة، مما كنتُ عليه أثناء سجني!
قال ضاحكاً وهو يمسح المكان بعينيه، عيني الخبير الذي عاش ثماني سنوات محكوماً بالإعدام، في قضية سياسية، تحت الأرض. وقبل أن تغيب الشمس، كان السجن بأكمله، سجناء وسجانين، يعلمون بأن اللجنة التي جاءت اليوم طلبته، وأنه قد أدخلها إلى القسم السادس، حيث المؤبدين، رغم أنف الإدارة! لكنه، كان يستعيد في الذهن، رواية اللجنة لصنع الله إبراهيم، اللجنة التي قادت السجين للجلوس على فوهة زجاجة الكوكاكولا المهشمة..أو هكذا تراءى له مصيره!

16

غرقت بغداد في الفوضى..
سقطت دمعة القلب، في لهيب الفاجعة!
شيء من الروح..ضاع. تبدد بعض الذاكرة، واحترق الفؤاد حتى دبّ الجنون فيه. تراءى لعينيه وميضٌ باهتٌ، ربما سرابٌ بريٌّ. أو إحساس باختلال الروح والعقل معاً. تحجرت الدمعة في مقليته.. التصق لسانه بسقف حلقه، أصابه الذهول بشلل مطلق! عيناه جامدتان تحدقان في التلفزيون، تتابعان الدبابات الأمريكية، تعبر شوارع بغداد، تحتل المدينة، منطقة إثر أخرى. رآها تجتاز جسر الجمهورية نحو

عمق المدينة إلى شارع السعدون، تاركة خلفها ميدان التحرير بجداريته التي لم يدر بخلد جواد سليم، أنها ستشهد مثل هذا اليوم.
تتقدم المجنزرة من دوار الفردوس، تليها أخريات تقذف جنوداً غرباء في الساحة، يحتلون فندقي فلسطين والشيراتون. يرفع الجندي الأمريكي علم بلاده فوق رأس صدام، يلف السلاسل الحديدية حول عنقه، تتحرك الدبابة يتكسر الصنم البرونزي الأجوف..ويسقط بين الأقدام !
اليوم ذاته.. التاسع من نيسان قبل عام سقط هو في قبضته المخابرات. واليوم ذاته قبل أكثر من ربع قرن اغتيل غسان كنفاني في بيروت.غسان الذي أحبه واحبّ أعماله الأثيرة لديه. كما أحبّ بغداد التي احتلت لها مطرحاً في القلب..اليوم ذاته، قبل خمسين سنة مجزرة دير ياسين..كل تلك الأحداث المرّة تجمعت هذا اليوم، أمام مشهد الضياع في الذاكرة! جمع قبضتيه وضرب صدغيه بقوة، وهو يكزّ على أسنانه.
استجمع قواه ونهض من سريره. أخذ يروح ويجيء في الغرفة التي ضاقت بالأسرّة.
خرج إلى الساحة، فارغة على غير العادة..كل السجناء متسمرين في مواجهة الشاشة التي تنقل صور اجتياح بغداد، على الهواء مباشرة. أمسك بالباب وضرب رأسه به، مرّة، اثنتين، ثلاثة، اتجه نحو ركن منزوٍ في الممر الخالي، انطوى على نفسه، مثل حلزون ضائع خائف. كان مسحوقاً من شدّة الضعف والعجز، من شدّة الإهانة، من الانكسار الجديد الذي لحق بالعرب!
الإستبداد يجلب اكثر من ذلك..لقد قاد صدام حسين بلاده نحو هذه الهاوية..كما يفعل الطغاة في كل مكان. وليست دمشق بعيدة عن هذا الألم ولاالقاهرة ولاطرابلس..
قبل عام وشهر تماماً، اجتاز تقاطع وزارة الإعلام، ومشى بخطى وئيدة، يتنشق رحيق بغداد ودجلتها. توقف عند كهرمانه، صعد جسر الجمهورية، إلى شارع السعدون، وصولاً إلى فندق فلسطين، الطريق ذاتها التي عبرتها الدبابات اللأمريكية، نحو ساحة الفردوس. لكنه لا يتذكر أبداً أنه شاهد تمثالاً وسط الساحة..لم يلفت الصنم اهتمامه.. فالأصنام التي تحتل ساحات دمشق وتلال المدن ومداخلها شاهدة على القهر وتبعث على القرف. توقف عند كهرمانه وجرارها، وأمام جدارية جواد سليم في ساحة التحرير..لكن التمثال لم يره.
هل يبكي سقوط بغداد، مثلما بكى غزو لبنان عام 1982، مثلما بكت أمه هزيمة حزيران؟ العجز الذي يقيّده مرّكبٌ إلى درجة لا تحتمل. عاد إلى سريره، سحب دفتر اليوميات، فتح صفحة اليوم، وخط بالحبر الأسود الأنيق "بغداد سقطت.. وفتحت أبواب الجحيم.." أغلق الدفتر، أسبل جفنيه، أسلم نفسه للألم، حاول أن ينام، لكن معدته الخاوية خانته، فقام يبحث عن طعام!

تلك الليلة قاوم الحزن والألم، انتصر عليه بالكتابة. شحذ قلمه، وضع أمام عينيه أوراق الدفتر، وكتب أولى مقالاته منذ الاعتقال، قبل عام.. قرر أن يستعيد حيوية الكتابة، أن يحيي روحها في داخله. صار يكتب مقالاً أسبوعياً، تتسلمه شام، تخرجه من مخبئه السري الذي تمرّ به عبر نافذة الزيارات. تعيد طباعته على الحاسوب، وتنشره باسم مستعار..باسمها هي. أخذ الأصدقاء على اختلاف أهوائهم وحسدهم، يتصلون بشام، كلما نشرت مقالاً جديداً. يستفيضون في شرح أهميته، وإبراز تميزه الأسلوبي، والفكرة المبتكرة..

-مقدرتك في الكتابة، تفوق مقدرة عامر..ربما كنتِ أنتِ من يكتب له.

ضحكت شام، وضحك عامر، عبر شبك الحديد الذي يفصل بينهما، وهي تروي له قصص الأصدقاء، والمقالات، والنشر.

-هكذا أستقوي على سجني، وسجاني.

-أريدك كذلك.

قالت تشجعه على مزيد من الكتابة، تنقل له أحدث الإصدارات من الكتب والمجلات المتخصصة، يتابع كبرى القضايا الدولية، فيكتب عنها.

-سأستعيد سيرتي الأولى..بأفضل.

قال لنفسه.

طوال الوقت يتنقل بين قنوات الجزيرة، العربية، وغيرها. بفضل السجن تعرّف إلى مطربات جديدات. إلى شكل جديد لحياة الفن لم يلحظها كظواهر من قبل: روبي، هيفا، نانسي.. فتيات جميلات ناعمات، يمارسن الغناء أو الإغواء، أو الإغراء.. أعاد اكتشاف أصواتٍ أخرى، كلمات ولحن، صار يستمع إليها بعقله وقلبه. لديه الآن وقت طويل متاح لذلك: فيروز، ماجدة الرومي، أصالة. صباح فخري، وآخرون.. صار يستمتع بالأغنيات. يجد لها معنى آخر. وأصوات جديدة بالنسبة إليه: بشار زرقان يلوّن فضاء الروح، ولينا شماميان، تلك التي تنحدر من غيمه فيروزية ثرّة، يصدح صوتها بأغاني التراث الخالدة!

مذيعات يتفرس وجوهن، يلصق عينيه بالتلفاز، يلاحقهن من محطة إلى أخرى. يلاحظ أناقتهن، تسريحات شعرهن. يعدد الشامات على وجوهن. هذه لها خال فوق شفتها العليا، ولتلك شامات ثلاثة ترسم مثلثاً على رقبة بيضاء طويلة. وأخرى حيرّته ألوان عينيها: مرّة زرقاء، ومرّة خضراء، حتى التبس عليه الأمر، وضاع في ملكوت الجمال.

-يا إلهي.. كلهن جميلات!

استوقفته قناة العربية، بمراسلها الذي يحمل اسمه ذاته. لا حرف ناقص، ولا حرف زائد: عامر عبد الله. ارتفعت معنوياته وهو يراه على الشاشة، واسمه يلمع. يشعر بأنه هو، لا فرق بينهما إلاّ بالسمنه، وكثافة الشعر على الرأس.
-هذا قريني. عندما اعتقلتني المخابرات، خرج من عقاله، كسر جرّة الجن وخرج..حين يظهر على التلفاز ، يضطربون ويستبد بهم الخوف والقلق:
"-اعتقلناه، فطلع علينا آخر..كأننا لن نخلص منه".
الكتابة والموسيقى داخل السجن، كانا يغذيان روح التمرد في داخله، فتنمو شجرة الحرية، وتتمدد أغصانها، لتظلل الفضاء من حوله. لن يترك للسجن أن ينال منه. لن يدعه يقتنص حريته التي تكبر يوماً إثر يوم، يتعرف ويكتشف مديات وآفاق جديدة في رحابها.
الحرية صارت بالنسبة إليه، مطلقة في الروح، داخل السجن، ممارسة بلا حدود، برؤى مختلفة، تفعل وتقول ما تشاء. دون حذف، أو حتى رقابة ضمير مذعور.
الخوف غشاوة تقشعها الحرية. صار سيد نفسه، السجين هو كذلك. المكان ليس سوى فضاء آخر، لا يمثل الفضاء الذي خارج، الجدران والأقفال تخلق رؤية أخرى للحياة، أكثر جدوى في عالم السجين..والحرية أيضاً، أن يكون سيد الوقت كله.
لكن وسائل الترفيه: الصحف والتلفاز نقلت إليه أخبار النكد..صحافيون، كتاب وأدباء، يقتلون ويسجنون ويختطفون وآخرون يموتون..كثير منهم أصدقاء ومعارف..ومن لا يعرف، فهو زميل مهنة، أو رفيق درب، لكن فضائح غوانتانامو، وأبو غريب فاقت كل التصورات بلا وجل:
-تعالوا..انظروا ما لدينا..ربما أفظع من تلك الفضائح.
الحروب تدور رحاها في العراق، وأفغانستان، والصومال، وفلسطين، ولبنان. العالم مسعور برائحة البارود والدم، وجرذ البيت الأبيض، يمدّ رأسه ولسانه، يتوعد ويهدد! العالم فجائع، والعولمة تسحق الفقراء الذين يموتون على وقع خطاها، ويختنقون بعطور اجتماعاتها. ويُقتلون برصاصات حماتها! العالم قطعة جبن تتقاسمها، تتخاطفها الفئران السمينة!

مرّت ثلاثة أشهر، لم يسمع خلالها صوت أخيه. صارت شام تتصل به كل ثلاثة أيام، أو يومين مرّة على أحد الهواتف النقالة الموجودة سرّاً في القسم. خاصة لدى السجناء المحكومين بقضايا مخدرات، ممن لا تنقصهم المقدرة المالية على شرائه، وشراء من يهرّبه إليهم. كان سعيد يتصل من حين لآخر ليطمئن عليه، لكن انقطاعه هكذا، أرّقه .

ظلت الأسئلة تمور في ضلوعه دون أن تلتقط عينيه شيئاً مماتقوله، كلما فتح فمه بالسؤال عنه. أدرك فيما بعد لِمَ تدور الدمعة في محجري وجهها الناعم، ولم تكن إجاباتها مقنعة ابداً.
كيف يمكن له ان يذهب الى القاهرة لاستكمال دراساته العليا دون أن يجد طريقة للإتصال به، كل هذا الوقت. الإتصال الأخير بينهما، فضح الألم والمرارة التي حاول سعيد أن يخفيها، لكن صوته مشبعٌ بالأمل:
-قبل أسبوع كنتُ في بيروت..خمس منظمات لحقوق الإنسان، مستعدة للتدخل، ينتظرون إشارة منّا فقط.
-ننتظر جلسة الإستئناف الأولى، ونقرر. هناك فسحة من الأمل، والإشاعة قوية.

ليلة العيد، ألقى الزعيم خطاباً في ذكرى الثورة، قعد السجناء على الأرض، تحلقوا حول التلفاز، لصق وجهه في الشاشة، ران صمتٌ تام على المكان. صوته وحده يعيد الكلام نفسه، الأفكار ذاتها، الرؤية التي لم تتغير، لم يملّ إعادتها طول السنوات التي مضت..عنجهية وتكبّر، وتتفيه لكل ماهو حيوي وجدي بالنسبة للناس، الإقلال من مكانتهم، وعلى الدوام تجردهم نظرته إليهم ومعاملته من أي قيمة إنسانية..
ساعة ونصف وهو يتحدث، يلغوا.. شعر بالملل، همّ بالنهوض مثل غيره؟ لكنه ثبت في مكانه حين سمعه يقول:
-سجناء سياسيين؟ نحن ليس لدينا. إذا كان هناك أحداً منهم، أطلقوا سراحهم جميعاً. لا تبقوا أحداً منهم. العملاء، الجواسيس، الخونة، المتآمرين أطلقوا سراحهم فوراً.
تلك هي صفات السجناء السياسيين، في أي سجن يقبعون فيه، من أرض الشرق الواسعة، التي لا حدود لسحرها.. وقهرها.
الجماهير المحتشدة أمامه، لم تصفق! مرت كلماته بهدوء، حتى هو لم تخرج الحروف من فمه كاملة قوية، تحمل معانيها.. وعامر على الإطلاق لم يخفق قلبه، لم يشعر بشيء يعنيه.. أو أنه قد يخرج الليلة، أو غدّاً على أبعد تقدير.. ويصبح حراً!
صَدَقَ حدسه.. بعد أسبوع، وسط احتفال رسمي، وضجيج إعلامي، أطلق سراح واحد وستين معتقلاً. قالت السلطات أنهم آخر السجناء السياسيين لديها!
لم يغمض له جفن تلك الليلة، لن يخرج إذن..وأمامه سنة أخرى جديدة، حتى يصدر عفو ثانٍ..والله وحده يعلم! الزعيم وحاشيته، يتمنون للشعب كلّه أن يكون سجيناً..فكيف لهم أن يطلقوا بأيديهم سراح السجناء..أعداءهم السياسيين؟ توالدت الأسئلة في ذهنه، تكاثرت مثل ضفادع في مستنقع خفيض، بلا أجوبة. ضاق صدره، أحسّ بحبل من الهموم يجثم عليه، يكتم أنفاسه، يسدّ عنه أفق الأمل.

دار المفتاح في القفل، أخذ جرعة من الماء، ومشى نحو الباب، دفعه بكتفه وخرج.
نظر إلى ساعته وإلى المقدم والشرطيان المرافقان، الحنق والغضب ما زالا يشتعلان داخله منذ الليل. لم يبرد قلبه..التمرد يرسم خطاه وكلماته:
-الإفطار تحت الغبار، مفتوح للقطط والكلاب، منذ السابعة، معقول تفتحون الآن.. العاشرة!
وجه كلامه للمقدم، لم يجبه..ظل صامتاً يدخن، وكأن لا أحد أمامه. رأى الأعور عائداً بحصّة غرفته من الفطور:
- كان يجب ألاّ تستلمه..
انتفض المقدم، وأخذ يصرخ في وجهه، بأعلى صوته:
-تحرّضه على التمرد! يا وسخ، يا عفن. أنت تستأهل إعدام، أنت مؤبد قليل عليك، يا ابن الكلب..
رفع عامر سبابته في وجهه، وقاطعه: لا تشتم!
-إمش الإنفرادي..هيا، تعال خذه إلى الإنفرادي.
-أمشي بنفسي..لست خائفاً.
قالها ومضى أمامه مندفعاً، غير آبهٍ، بلا اعتراض.
-لو أنك أسفت واعتذرت له..خيرٌ لك، فلا يرمي بك في الانفرادي. قال له الشرطي.
-الانفرادي، ولا أذل نفسي له.. لم أخطيء، وأنت شاهد.
لأول مرة يدخل قسم الانفرادي هنا، أول زنزانة فارغة وضعه الشرطي فيها، أقفل الباب عليه وخرج. وقف في وسط الزنزانة دار حول نفسه، تفحص المكان، نظر نحو النافذة في الأعلى. الهدوء يلفّ المنطقة، سكون قاتل لم يعتد عليه منذ زمن طويل. الزنزانة خالية من أي شيء سوى البراز، أرض وجدران إسمنتية. في الركن فتحة حمام وأنبوب مياه ملغى، ووعائين من الماء. والنافذة الصغيرة في الباب، أقل من حجم نصف الكف، هي الوحيدة التي تربطه بالعالم ..لم يستطع من خلالها أن يرى الباب الرئيسي لقسم الانفرادي، إلاّ بصورة جانبية فقط. ضوء النهار ينسكب من النافذة العلوية. لا يمكنه التحرك من مكانه أو الجلوس، سوى القرفصاء بحذر، فالبراز الجاف يتوزع على الأرض. أغلق فتحة الحمام كي لا تخرج إليه الجرذان.
ثلاث ساعات مرّت، وهو واقف في مكانه، يفرك يديه ويقضم أظافره.
أسند ظهره إلى الباب البارد، وأخذ يحدّق في النافذة، حديد وراءه حديد.. يبحث عن لون السماء في رماد الروح. يكوي الحنين أضلعه وهو يتذكر شام، انسابت الكلمات من شفتيه يرنم أغنية، سمعها قبل أيام، خرج الصوت من حنجرته خافتاً مرتعشاً:
" هالأسمر اللون، هالأسمراني..
تعبان يا قلب خيوّ.. هواك رماني..

يابو عيون وساع
حطيت بقلبي وجاعّ
تعبان يا قلب خيوّ.."
رددّ الأغنية مرات..ولسانه يتذوق ملوحة الدمعات المنسكبات على خدّه، وفي القلب شوق حارق، وغصة مرّة!

17

رفض تناول الغذاء. نصحه الشرطي بأن ينفع نفسه ويأكل، فتح له الباب. رفض الخروج من الزنزانة، قلّب شفتيه عجباً:
-ماذا تريد إذن!
-أريد الخروج.
-إلى أن تنتهي العقوبة.
-أريد الحرية، دفعة واحدة.
لم يجب الشرطي، اكتفى بإغلاق الباب ثانية، ومضى في سبيله. الثالثة والنصف عصراً، بدأ ضوء النهار يخفت، والعتمة تمدّ خيوطها، سمع الباب الخارجي يفتح، لصق عينيه بالنافذة، تقدم مدير السجن من زنزانته، رمى بصره داخلها فالتقت عيونهما.
-افتح الباب.
أمر الشرطي، نظر إلى عامر، سأله عن اسمه، وطلب إليه الخروج. كان المدير جديداً لم يمض على استلامه المنصب سوى يوم واحد. أدخل سجيناً آخر في محله، طلب من الشرطي معاملته بصورة خاصة:
-هذا ضيف.. عامله جيداً.
التفت نحوه و أشار له أن يلحق به، مضى خلفه في الرواق الطويل، متجاوزاً صفين من الزنازين، انعطف يساراً ثم توقف في منتصف الممر، وأدخله زنزانة جديدة فيها سجين آخر يقتعد الزاوية. ما أن رأى المدير حتى أخذ يتوسل إليه:
-ستبقى هنا حتى تتعلم التعدي على شرطي.
-لكنه اعتدى عليّ أيضاً.. هو الأول!
-جئت لك بواحد، كي تتسليا معاً.
قال كلماته الساخرة، وغادر المكان، وهو يرد على نداءات السجناء الآخرين، بعبارات هازئة، وضحكات صاخبة. وقبل حلول الظلام أرسل الضابط المناوب سجيناً ثالثاً إلى الزنزانة، قلب الهدوء إلى ضجيج تام. شعر عامر بالضيق منه، ومن تدخين الإثنين معاً.
-كيف سنقضي هكذا، الحمّام مكشوف، والأرض باردة، ولا ضوء!
-قال وليد متأففاً، ثم خبط بقبضتيه الباب بعنف، وصلت صرخة من بعيد تجيب على الطرْق. وقف بالباب شاب صغير لايتجاوز العشرين: تدبر لنا ستاراً للحمّام.
عاد بعد قليل بقطع من القماش البالي والنايلون، صنعا منها ستاراً يعلو متراً ونصف ، يحجب الحمام قليلاً عن النظر، ويستر من يستعمله.
على ضوء السيجارة الشحيح، تبين عامر بعضاً من سحنة وليد، بملامح وجهه الخشنة، وخطوط الدم المرتسمة عليه. وجبينه المضمَّد، يده ترتعش كلما رفع

السيجارة إلى فمه. شديد التوتر، ورغم مرور الوقت لم يهدأ. ظل يتوعد الضابط، بتصفية الحساب معه.
-ورحمة أبي، لن يفلت مني، سأضربه ولو علقوّا مشنقتي.
-ماذا فعل بك.
-ضربني حتى سال دمي..أمسكني وأنا أحاول ضرب نفسي بالسكين، فدفعته نحو الحائط.
-الحق معه..إذن!
- اتركونا من هذا الكلام.. ألا يوجد حبوب هنا، حشيش؟
قال مفتاح، ثم نهض نحو النافذة وخاطب الزنزانة المقابلة: برهوم..حبتي أرتان..

العاشرة والنصف ليلاً، فتح الشرطي الباب، وظهر فيصل يحمل بيده فراشاً، دفعه نحو عامر، وقدم له كيساً مليئاً بالخبز وعلب التن والجبن. أخبره أن المدير أقرّ عقوبته باسبوعين هنا.
مدّ الحصيرة على الأرض، ووضع الفراش فوقها، ملاصقاً للجدار أمام الباب مباشرة، وترك المساحة المتبقية لوليد ومفتاح. ساد جوّ من الإرتياح، لقد صار بإمكانهم النوم، والإضطجاع وتدبر أمورهم بشكل أفضل، وضعا أحذيتهما تحت رأسيهما وشرعا بالتدخين دون توقف.
-جعنا.. أعطنا ما نأكله.
قدّم لهما علبة تن وخبز، فالتهما الطعام بشراهةٍ اكتملت بالتلمظ، ولحس الأصابع.
الصباح التالي خرج مفتاح، شدد عامر على الشرطي الجديد أن يبلغ الضابط المناوب، بإضرابه عن الطعام:
-ألا تعرف أنه ممنوع؟
ثار في وجه الشرطي:
-يلعن أبو الممنوع، والذي حطّ الممنوع.
تعالت الصرخات من الزنازين الأخرى، ساخرة من الشرطي، ترك الممر على عجل، وعاد أدراجه، حدّق فيه وليد، وسأله:
-إلى متى ستظل مضرباً عن الأكل.
-لا أعرف
-طيب.. كل مما لديك.. ولا تأخذ طعام السجن!
-لن أتذوق شيئاً..حتى الماء.
-تعجبني انت..الشرطي خاف، وأكثر خوفهم من الإنفرادي!

نفذ الدخان، توترت أعصاب وليد، حتى السجناء الآخرين صاروا يشكون قلّة السجائر، بعد ساعتين حصل على نصف سيجارة، ارتاح قليلاً، حاول الحصول على حبوب مخدرة، أو قطعة من الحشيش، رفض برهوم إعطاءه ثانية، مالم يسدد ثمن حبتي أرتان الأمس.
حاول وليد الحصول على دخان من خارج الإنفرادي فلم يفلح، لم يرسل له أحدٌ شيئاً.
حاول تهريب ربع كيلو من الحشيش إلى داخل السجن، لم تنفع كل الاتصالات التي أجراها. استبد به الضيق والغضب ضرب رأسه بالباب، صرخ، لم يعد قادراً على ضبط نفسه، حاجته للمخدر وللسجائر تكاد تفتك به سحب شفرة ناسيت من داخل كعب حذائه، لوّح بها أمام عيني عامر:
-اسمع، سأجرح أوردتي..عندما ترى دمائي تسيل، دقّ على الباب بقوة، كي ينقلوني للعيادة.
الخوف والرعب يملآن قلبه، لا يريد أن يرى الرجل يموت أمامه، أو بين يديه، وهو لا يستطيع في الحالة المتردية هذه، أن يثنيه عن ارتكاب الحماقة، لكثرة هيجانه، وحاجته للمخدرات، لكنه استعدّ لطلب النجدة. مرَّت اللحظات التالية بطيئة، طويلة.
مرّر وليد بيده المرتجفة، نصل الشفرة الحاد، فوق شريان معصمه، أزاحها بسرعة، وفجأة رأت عيناه الدم ينفر من يده، تأوه بصوت مكتوم ضغط بكفه الأخرى على الجرح، رمى الشفرة في فوهة الحمام، وأخذ يخبّط الباب بقدمه:
-لا تقل لهم عن "الشفرة"..سأقول جرحاً قديماً.
هدأت نفس وليد، لم يأتِ أحد، فأسرع يبلل منديلاً بالماء ويغسل الجرح، مزّق قطعة قماش وربط بها ساعده أعلى الجرح، رفع يده كي يخفف من تدفق الدم في العروق، تركه ممدداً على فراشه، جلس إلى جانبه يرقبه بقلق، حتى غلبه النعاس.

أنين وعويل يملأ أذنيه، المكان المظلم يضيق به، أحس بالجدران تقترب منه أحياناً، وتتبدد فلا يراها، تصبح مثل غيمة تسرع بالرحيل، الباب مفتوح عن آخره والممر عريض..عريض جداً، وأشخاص يروحون ويجيئون فيه، يرتدون ثياباً بيض، جلابيب واسعة، يقفون أمامه، ينظرون إليه، تندّ عنهم تأوهات، يحركون رؤوسهم بأسى ويمضون، حاول أن يتفرس في وجوهم، لم يكن لأحد منهم ملامح، اقترب من الباب، جثى على ركبتيه يتلمس العتبة، ثمة ماء خفيفة عكرة جارية في الممر، وضع أصابعه فيها، فوجد رملاً جافاً وحاراً، سحب يده بسرعة فأثار الرمال في الهواء، اختفى الأشخاص ذوي الجلاليب البيضاء، لم يعد يرهم، أغلق الباب عليه بشدة، فارتجفت الجدران من حوله، مالت الأرض به، فصرخ برعب شديد، دفن وجهه في الفراش، سمع أصواتاً خافتة، ارتفعت الأصوات شيئاً فشيئاً، اختلفت فيما بينها، حرّك

رأسه نحوها، رأى وجوهاً كثيرة تدور حوله، عيوناً كبيرة تحدّق فيه، وأفواهاً دائرية تتحرك وتهمهم، لم ير الجلابيب، ثمة كساء رمادي يغطي قاماتهم، مثل خيمة، صار يراهم على صورة ذئاب في البرية، ذئاب تعوي، تلحق بالقمر، ثم تنقضّ عليه..قام من مكانه واندفع نحوها يضرب بيديه يميناً وشمالاً. ارتطم رأسه بشيء قوي صلب، وقع على الأرض، فتح عينيه فوجد نفسه عند الباب، امتدت إليه يد الشرطي، نهض، ثم عاود الجلوس، كان منهكاً متعباً لدرجة شديدة.

-خذ جرعة ماء.

تمتم، اطمئن الشرطي عليه، أقفل الباب وانصرف. مسح جبينه ووجهه المتعرّق، قرفص في الركن مرتعداً، تذكر قصص الخارجين من الإنفرادي بسلام، و أرواح الموتى التي تزور المكان في كل ليلة، أولئك الذين قضوا سنوات طويلة في هذه الزنازين، قبل أن ينفذ فيهم حكم الإعدام، في الساحة القريبة، خلف الانفرادي مباشرة.

لم يعد للنوم، طلع الفجر، كان شخير وليد متواصلاً، دفعه على كتفه برفق، تقلّب في فراشه، وتوقفت أنغام شخيرة، نهض عامر نحو الحمام، أطلق الغازات من بطنه، فخرجت متلاحقة كدوي المدافع تمزّق إطباقة الصمت. غسل وجهه ويديه، حرك جسده اليابس، دسّ إنفه في الشبّاك الضيق..ما يزال الجميع نائماً.

اقتربت الساعة من العاشرة، فتح باب الزنزانة وأطل منه الرائد صالح:

-ما الحكاية؟ معقول تضرب عن الطعام؟

-وهل لديّ طريقة أخرى؟

-المدير قرر إنهاء العقوبة، اليوم بعد الظهر، لكن عليك أن تنهي الاضراب.

-المدير نفسه اتخذ العقوبة دون سؤالي، لم يتحقق من أصل المشكلة..لن أنهي الإضراب حتى أخرج.

-إذا لم يكن من أجل خاطري..فمن أجل زوجتك، إنها قلقة، في الخارج منذ الصباح.

-لم أرتكب خطأ، ولن آكل حتى أخرج..الآن أريد الحرية..أريد إطلاق سراحي..

مرّت ساعات بعد الظهر بطيئة..لم يأمر المدير بخروجه من الإنفرادي، فازداد تمسكاً بالاضراب، لكنه اليوم الرابع وقواه لم تزل كما هي، لم تَخِر، ولم يصبه دوارٌ أو إعياء، يشعر بالجوع فيتجاهله، وبالعطش فيغسل فمه بالماء..يبلل شفتيه ووجهه، ويركن إلى الصمت، الحديث مع وليد ممل، لا فائدة فيه، يستهلك بعضاً من قواه، لم يعد يسايره في الحديث إلّا لماماً بكلمات مقتضبة. قرر أخيراً أن يضع حداً لوجوده في الزنزانة، رسم خطته في ذهنه بإحكام، واتفق مع وليد على تنفيذها.

جُلب بعد قليل " رزوق النمس "، رمى به الضابط من كتفه على أرض الزنزانة، وهو يتوسل إليه، تعالى نحيبه، نهض والتصق بالباب، عيونه مليئة بالخوف، جسده النحيل يرتجف، أخذ صراخه يلحق بخطى الضابط وهو يبتعد، ويغلق باب خلفه:
-لا تتركني هنا.. إرحمني الله يرحم أبوك.
استمرت نوبات العويل والنحيب، حتى هدّه التعب، اقترب منه عامر، ربّت على كتفه:
-نمس ما بك، تبكي يا رجل.
-أنت لا تعرف شيئاً.
-ما الذي لا أعرفه؟
-الإنفرادي..
عاد للنحيب وهو يلطم خديه، امتزجت الحروف بالرضاب المتطاير من فمه، وهو يضيف: الإنفرادي جهنم، لا يُسكن، مقبرة تدفن فيها حياً.
سبع سنوات وخمسة أشهر وسبعة عشر يوماً قضاها النمس في الزنزانة، سنتان منها موقوفاً مكبلاً بالقيد الرباعي: يديه ورجليه. احتمل من التعذيب ما لا يمكن لإنسان، على وجه الأرض احتماله، آثاره ظاهرة في حروق جلدة الرأس، معصميه، كاحليه، وخوفه الدائم من كل شيء حوله، الرعب يسكن أضلعه، منزوٍ طوال الوقت، بعيداً عن الناس، خُفّض حكمه إلى السجن المؤبد، لكن الحياة دبت في عروقه قبل أشهر، انتزعه العم أحمد المصري من حالته البائسة، أخذ بيده، وفتح له عينيه على الحياة مجدداً.
-إحدى عشرة سنة، ورجعت تعيش في الوهم يا نمس؟
-أي وهم! ما عشته في هذه الزنزانة، بالذات، لم يره أحد.
الكابوس الذي عاشه عامر الليلة الماضية، ها هو النمس يفسره له، أرواح الأموات الذين أُعدموا تطوف في المكانِ كلّ ليلةٍ، يؤكد أنه ظل يراها طوال السنوات التي قضاها في المنفردة، حين كان لوحده فقط، أشباح الليل التي تسكن معهم يسمعون أحاديثها وخطواتها، فلا يغمض لهم جفن حتى يطلع النهار.
-يأتي الليل.. ويجيئون، ستراهم.
أمسك لسانه، كاد يبوح بكابوس الليل الذي أرهقه، آثر الصمت، ودفن الخوف في أضلعه، دخل الوسواس في عقله، فقد يكون المكان مسكوناً بالجن حقاً.
-وماذا فعلت؟
-أمسكوني بحبوب أرتان.
-غبيّ..

-رآني الشرطي من فوق السطح، أول ما دفعت الكيس في إنبوب المجاري، صاح بي، وأبلغ عني، ضعت وضاعت الحبوب..
توقف عن الكلام، ندّت عنه تأوهات طويلة عميقة، وأردف: أربعين حبة..والله ليست لي، قلت له إضربني، إرفعني فلقة، إلا الإنفرادي..علقني بالباب، فلقة محترمة، ورماني هنا!
-تستأهل.
-أنا أستأهل، لكن إنت مالك وللإفطار، بغطاء، بغبار، إن شاء الله بشياطين، مالك وللحكومة؟
-أشياء لا يجب السكوت عنها..
-أنت تدافع عنا، لكننا لا نستحق، تعتقد أن أحداً منا يقف معك؟
-أعرف ذلك..ولا يهمني، إنما ستتغير الأمور حين نتكلم، صدقني.
بدا النمس غير مقتنع بما يقوله، يرى في كلامه فلسفةً، لا يفهمها هو ولا غيره.
ليلاً، وقف عامر وسط الزنزانة، فرد يديه مثل طائر، وأخذ يدور حول نفسه، مرّت دقائق دون توقف، أعاد المحاولة ثانية وثالثة، قال لوليد:
-لا فائدة.. مازلت متوازناً.
-ماذا تفعل؟
سأل النمس، اقترب منه، انحنى نحوه وأمسك به من قميصه:
-اسمع يانمس.. قصّ لسانك، تفتح فمك بكلمة واحدة، سأجعلك تبيت في الحمام.
عاد للدوران حول نفسه، أخذ وليد يطرق الباب بعنف، ويصرخ طالباً النجدة، ما أن فتح الباب حتى رمى عامر نفسه فوق الفراش. وقف الضابط المناوب أمام النافذة.
-سيدي..الرجل لا حركة، ولا كلمة منذ أكثر من ساعة، مرميّ على حالته هذه.
أمر بإحضار الممرض و أغلق الباب، أخذ يروح ويجيء في الممر، ابتعد قليلاً، فأسرع يدور حول نفسه من جديد، ثم أسقط نفسه على الأرض، مدّ الممرض يده إلى معصمه، يتفحص نبض عروقه، حاول إيقاظه. استمر في لعبته، لم تندّ عنه سوى تأوهاتٍ متقطعة:
-يجب نقله بسرعة للعيادة.
-أعطه علاجاً هنا.
-لا يمكن سيدي، مُضرب عن الطعام والشراب أربع أيام.
-إرفعوه إذن.
تعاون اثنان من السجناء على رفعه، وضعه أحدهم على كتفه مثلما يضع كيساً من السكر، رأسه ويديه يتدليان خلف ظهره، مشى به في الرواق، وأنزله عند الباب، أرخى جسده على الأرض الباردة، ظل مغمض العينين، وترك كتفه يميل بهدوء

على ساعده الأيسر ، رُفع فوق الحمالة وأدخل العيادة أخيراً. أجرى الممرض فحوصاً أولية: ضغط الدم، العينان، غرز إبرة في عروق يده، وأوصل كيس التغذية، غطى جسده بملائة، وأطفأ النور. أخرج الشرطة من الغرفة، وأغلق الباب.
سمعه وهو يقول للضابط بأنه يجب أن يقضي الليل هنا، تحت المراقبة، ولا يمكن المجازفة بإعادته إلى الإنفرادي.
فيما هو يضع كيساً ثانياً للتغذية، بعد ساعتين، همس في أذنه :
-خيراً ما فعلت.. ضغطك طبيعي، وجسدك لم يتأثر..غداً أقدّم ملفك الطبي للمدير وتخرج، إرتح الآن.

18

القلق يأكل كبده. كل الأجوبة التي بررت له غياب سعيد، لم تقنعه. صدّق على مدار عامين كاملين رواية حادث السيارة، وتلاسنه مع ضابط كبير في الجيش، وأن الأمر أدى إلى السجن! الحكاية ينقصها الكثير، ولا يعرف أحدٌ في أي سجن هو..ألحّ في السؤال على أمه ذات مرّة، وهو يقول لها ان قلبه مشغول عليه، فترد أنه بخير، لم يهدأ ولم يكتف :

-أين هو؟

-غائب..مثلك.

سكت، بلع ريقه واكتفى بتلك الكلمات. فتح المفكّرة وكتب: "غائبٌ مثلي..إما أنه في السجن، أو في القبر، وفي الحالتين غائب..نحن غائبان".

قرأ ما كتبه، أثارته الكلمات، أحس بشعور غامض لإنكارها، لكنها مجرد أفكار ساقتها لحظة الكتابة والتعبير. همّ بشطبها، تراجع عن ذلك، أقفل القلم والدفتر معاً. رجته شام أن يتجنب في المرات القادمة، إثارة شجون أمه بسؤاله عن سعيد.

-لا تعد للسؤال عنه..أرجوك.

شعورٌ آخر، بدأ يرسم صورة مغايرة لأحاسيس مربكة، ومرّة في داخله، مرّة يتخيل أنه يقبع في قبو معتم، لمبنى مخابرات قديم، أرضه ترابية ونوافذه عالية وطويلة.. والرطوبة شديدة، والممر المؤدي إليها طويل والدرج ضيق شديد الانحدار. أو أنه في سجن تدمر العسكري، وسط الصحراء تلهب نهاره رياح الشمس المشبعة بالرمال، وتسفعه برودة الليل التي يعشش في تلافيفها القهر والذل، تقصى عن أماكن السجون والمعتقلات السرية، أماكنها وأشكالها وظروف المعيشة فيها، وعمليات وحالات التعذيب التي يتعرضون لها.

انشغل العقل به، والروح..تبلورت لديه فكرة شبه كاملة، مع مرور الأيام، عن المعتقل الذي يمكن أن يكون فيه، أقبيةُ أبنيةٍ حديثة، وسط المدينة، مثل فرع المنطقة، غرف مكتظة، تعذيب متواصل او متقطع، والنظام فيها يفرض على المعتقل ثلاث ساعات نوم، وثلاث أخرى مقرفصاً، وثلاثاً واقفاً. بين الحين والآخر، يتصور سعيد واقفاً، يحدد الوقت، وبعد ثلاث ساعات يقنع نفسه أنه يأكل الآن، أو ممدداً بكرشه التي تريد مكاناً لوحدها..فما الذي يفعله الآن يا ترى؟ تخيله بشعرٍ طويل، وذقن

طليقةٍ..وأن جسده يميل نحو النحافة، يضحك الآن، يربّت على كرشه ويقول لرفاقه: -
-من زمان.. وأريد لهذه الكرش أن تختفي!
يغلق عينيه على الصورة الأخيرة، الضاحكة لسعيد، حين يمرّ به خاطر من نوع آخر، يقضّ مضجعه:
-يا للغياب!
تعتمل في داخله النار، تلتهب أحاسيسه، تمتزج مشاعره بدوّامة الأفكار التي تأخذه في آفاق واتجاهات شتى، يهدّه القلق، ويتلبسه الإرهاق، يدير رأسه نحو الجدار، ويدفن وجهه في الوسادة.
تلك هي قسوة السجن، تذوق مرارة العجز التام عن القيام بأي فعل، يُطمئِن به على أخيه..أقلّها أن يقف على حقيقة سجنه وظروف معيشته، وأن يمدّ له يد العون في محنته. قرر أن يبدأ البحث عنه، وهو في سجنه. سيبُلغ منظمات ولجان حقوق الإنسان، سيدفعها للتدخل من أجله، كبرت أحلامه، أو ربما أوهامه، وهو يتخيل العبارة الفريدة:
"سجين يدافع عن سجين آخر في بلد مغاير"!
أرخى جسده، حرره من الثياب، الرطوبة عالية تخلّف سائلاً لزجاً على جلده، ينزع شيئاً منه بالمنديل، فينز الجسد مزيداً من العرق. وقف بباب الغرفة، ليس هناك ظلٌ أو هواء. السديم يغطي السماء التي حال لونها إلى رمادي، أخذ حماماً بارداً أنعشه قليلاً، ولم تلبث الرطوبة أن ضغطت على صدره، فضاق..وضاقت الدنيا في عينيه، لعن السياسة والكتابة وأبو الذي اخترعهما. سبّ أخت الجوّ، وتمنى لو أن البحر يفيض، تمتد موجاته حتى تصل السجن فتغمره. أحياناً يرفع وجهه إلى أعلى، يشم بعمق، ويقول أنه نسيم البحر..البحر قريب جداً، لا يبعد أكثر من ثلاثة كيلو مترات.. اشتهى أن يرتمي في حضن الماء، مثلما يشتهي أن يرتمي في حضن امرأة، أية امرأة تطفيء لهيب الجسد..
هذا الطقس الحار جعله في أقصى درجات الشبق، وقف وسط الساحة، شَرع ذراعيه جانباً، ثم تمطى مثل قط ناعس، قطع الساحة ذهاباً وإياباً عدّة أمتار، علّه يخفف من تواتر الصور التي تسكبها مخيلته، كالزيت فوق نار الرغبات، الحرمان يسحق روحه المتمردة على الكبت، قدرةٌ هائلة تذوب قبل أن تفتتها طاحونة القهر.
أول المساء، تبدّل الطقس قليلاً، هبّت نسمة لطيفة، خففت من الحرارة والرطوبة، أخذ كتاباً وسطلاً صغيراً، وضعه على الأرض في الرواق قرب الباب، وجلس يقرأ روايةً، تجمع السجناء حوله لاستلام طعام العشاء. سنحت له الفرصة، وضع الكتاب تحت إبطه وقفز من نافذة الطعام، كادت قدمه تنزلق بسبب الزيت والحساء المراق

على حافة النافذة والأرض، صار خارج القسم. فجأة، قبل أن يتحرك التقت عينا الرائد بوبكر به:
-تعال هنا.
تردد، رسم ابتسامة صفراء، همّ بالعودة أدراجه:
-تعال هنا.
اقترب بحياء، يدرك أنه ارتكب مخالفة، هيأ نفسه للإعتذار، تجنباً للإهانة والعقوبة.
-أريد الدكان..
-من دون استئذان ؟
إحساسه بالخجل، أربك خطواته الوئيدة وهي تمضي في الساحة العامة نحو الدكان، مضى وقت طويل، شهور..لم يعبر فيها الساحة نحو الجهة الأخرى، حيث الدكان، والأقسام الثانية: الرابع والخامس، كانت الساحة التي يمتد طولها قرابة نصف كيلو متر، نظيفةً مرشوشة بالماء، وعلى يساره حيث كان ينتصب سور قديم من الآجر، له برجان، يعود للعهد الإيطالي..قد أزيل تماماً، وارتفع مكانه ونحو الخلف بناء ضخم من طبقتين: إنه السجن الجديد!
لم يشتر شيئاً من الدكان، عاد أدراجه الهويني، كأنه يقضي وقتاً للتأمل على كورنيش البحر، تمهل عند الرصيف العالي المقابل للنافذة التي قفز منها، حيث حوض النباتات الوحيد في هذه القلعة الرمادية المرّة. حوض الزريعة، رؤيته تفتح النفس، تريح النظر، وتمنح القلب قوة دفق عامرة بالحياة، زهور الزنبق شامخة تتعالى، وأوراقها العريضة الخضراء الداكنة، تميل بغنج ودلال على الساق، غابة مكتظة بالزنبق الأصفر، مدّ عامر يده إلى التراب، غمس أصابعه فيه، فركه، ملأ قبضته منه، قربها من أنفه وشمّ رائحته الذكية، أخذ نفساً عميقاً..عميقاً اختزن بداخله رائحة الحياة.
تلّمس أوراق الزنبق، دفن وجهه بينها، ومال برأسه على الوردة الصفراء..الذهبية الجميلة، ذات البهاء. مدّ يده لقطفها، ارتعشت أصابعه، تملكه إحساس بالأسى..لا يحب قطف الزهور، قطفها..ضمّها بين كفيه، خبأها تحت ثيابه وأسرع بخطاه نحو القسم، وعلى عجلٍ وضع الوردة في كاس الماء..صار المكان مجللاً بالبهاء. جلس أمامها، جثى على ركبتيه يداعب تويجاتها ويشم رائحتها..ويدرء عنها عيون السجناء الحسّاد. فرح بالوردة ورقص قلبه مثل طفلٍ يكتشفُ في الباديةِ البور، وردة برية، لأول مرّة!

عادت شام من دمشق، وقف قبالتها تماماً في قاعة الزيارات، دسّ أصابعه العشرة في الشبك الفاصل بينهما، تأمل ملامحها الناعمة، ثبت نظرته في عينيها اللوزيتين:
-ألم تعرفي شيئاً عن سعيد؟

هزّت رأسها بالنفي، وأشارت بسبابتها بالجواب نفسه. أطرق برأسه، أرخى جبينه على الشبك لحظة، لملم الأحرف في فمه، صعد الدم حاراً إلى رأسه:
-اسمعي.. يجب أن تبلّغي العفو الدولية عنه، اكتبي لهم اسمه، مواليد 1956، صحفي اختفى أو اعتقل منذ 17شباط 2003، ولا يُعرف عنه شيئاً.
لمعت الدمعة في عينيها، أشاحت بوجهها عنه:
-بهدوء.. بهدوء، لا تحرق أعصابك..!
قالت كلماتها تلك، وغيّرت الموضوع، تحدثت عن أشياء أخرى، عن الأطفال وترتيب موعد الخميس القادم كي يزوره رامي، أما ريم فما تزال صغيرة وتفضل عدم دخولها إلى هذا المكان..تكاد تمرّ أكثر من ثلاث سنوات، لم ير فيها صغاره، الذين كبرت معهم أسئلتهم الملحاحة.
مساء الخميس، جهز نفسه، وضع قطعاً من الشوكولاتة، والمعجنات، علبة مشروب، ماء، تفاحة وموزة في كيس. رشّ ثيابه بالعطر. الساعة السابعة، وقف بالباب دقائق وخرج مسرعاً متلهفاً، نجحت الترتيبات الخاصة لزيارة ولده. اقتيد دون حراسة إلى غرفة المكتبة، وجد رامي بانتظاره، قفز نحوه، رفعه بين يديه إلى حضنه، عانقه.. تشمم رائحته، فرك شعر رأسه، ربت على ظهره، انهالا بالقبل، أخفى عينيه الدامعتين لحظاتٍ عنه، ثم أجلسه في حضنه.
-اشتقت لك يا أبي.
-وأنا أيضاً.. كثيراً.
-لماذا ذهبت هكذا.. ألم تتأخر علينا؟
-قريباً.. ثق يا بني، سأعود.
أحس به يغالب الغصّة في حلقه:
-تشرب الماء؟ جلبت لك أشياء كثيرة، هنا في الكيس، انظر..
-ماذا تفعل هنا يا أبي.
-أؤلف كتاباً..أنظر هذه غرفتي، وهذه طاولتي..
يحاول إقناعه، بأنه ليس في سجن، وأن كل شيء متوفر له. وفي قرارة نفسه، يدرك أن رامي لن تنطلي عليه كل تلك الأكاذيب، رامي الطفل، يستقوي على الحزن والألم، يكتم لوعته بابتسامة وقبلة، يلوح بيده ويغادر المكان، مثل رجل وقور ذي مهابة!
كلمة من ريم، وأخرى من شام، وثالثة من رامي، ورابعة من سلام..كلمات متناثرة تشابكت مع قلقه، فأججت هواجسه المستثارة أصلاً. بعد ظهر الجمعة، اتصل بشام، بلا مقدمات قال لها:
-سعيد..الله يرحمه حيّاً كان أم ميتاً.

سكتت..ولم يتكلم هو، لحظاتٍ ساد الصمت فيها هنيهات كافية:
-مثلما قلت..
ردت بصوت خافت.
أحسّ بالحزن ينزرع في فؤاده، للتوّ فقد إنساناً غالياً وعزيزاً، غمامة من الهدوء حطت عليه، بما يشبه السكينة، شام في اللحظات العصيبة، تحاول تخفيف آثار الصدمة:
-كتب مقالته الأخيرة عن خطورة الطريق ذاته، الذي قضى فيه بعد ساعة فقط.
-لقد "وثّق كلماته بدمه"..
سمع أصواتاً تعلن دخول المدير الجديد، قطع مكالمته، ودسّ الهاتف على عجل تحسباً لأي تفتيش. تمدد في سريره وتظاهر بالنوم، أذناه ترصدان الأصوات داخل الغرفة وخارجها، لمعرفة ما يجري. خرج يستطلع الوضع، ويتعرف إلى شكل المدير الثالث خلال أربعة أشهر فقط!
كان العقيد "الحصان" يتوسط السجناء، يستمع إليهم فيما يمجّ سيجارته بشراهة، طلبات السجناء كثيرة، واحد يريد النقل إلى سجن المنطقة الشرقية، والثاني إلى الجنوبية، والثالث يطلب تخديمه في المطبخ، أو أي مكان حتى في النظافة، المهم أن يخرج للعمل. اقترب منهم وقد ساءه ما يجري أمامه، وقف قبالة المدير، وخاطبهم:
-تطلبون النقل؟ اطلبوا الحرية.
-أين لنا منها؟
-الحرية تؤخذ، ولا تعطى.
نظر العقيد "الحصان" بطرف عينه نحوه، اتكأ إلى الجدار وسأله:
-أنت الكاتب والصحفي؟
-نعم..أنا هو.
صمت برهة، ثم قال له:
-تقارير الوشاية وصلتك بسرعة عني.
ضحك، تحرك خطوتين، وقف أمام الممر:
-قريباً..الأخبار طيبة، وستخرجون بعد أشهر قليلة.
-سمعنا مثل هذا الكلام الكثير..طالما أن العدالة غائبة، لا ثقة لدينا.
-من قال لك أن العدالة غائبة؟
-لو كانت قائمة، لما كان كل هؤلاء الذين من حولك في السجن الآن..
لم يجب المدير، رمى عقب السيجارة على الأرض، داس عليه بقدمه، نظر نحو الرواق المؤدي نحو باب القسم، وغادر المكان. بعد قليل أرسل أمراً يطلب فيه استعداد القسم السادس، للنقل إلى المبنى الجديد. استشاط السجناء غضباً، تعالت

أصوات ناكرة رافضة، فالسجن الجديد على مسافة أمتار، أشبه بصندوق مغلق، ومغلف بقضبان الحديد. جدران عالية، والهواء فيه شبه معدوم، أما الشمس فلا تزوره أكثر من ساعة في الصباح، بسبب طريقة البناء المحكم الإغلاق!
انتدب السجناء ثلاثة، واحداً عن كل غرفة، ولحق بهم عامر. طلبوا مقابلة المدير، فلم يوافق. فكتب إليه يبلغه رفض سجناء القسم الانتقال، وأن أي محاولة لإجبارهم، ستقود إلى إضراب شامل.
أشعل المدير سيجارة، وضع الورقة في يده، ونزل إلى الساحة وقف أمام القسم، وأمر الضابط المناوب:
-هات السفله الأربعة.
الغضب واضحٌ على محيّاه، ونظرته التي حدّج بها كل واحد منهم، تبوح بمدى التوتر الذي يستبد به.
-كيف ترفضون؟
-سجن داخل سجن، أمر غير معقول، وغير مقبول!
أجاب عامر، فبادر للرد عليه، وهو يلوّح بعصاه:
-أنت تنوي إضاعة نفسك..وأنتم ما عندي كلام آخر لكم.
-ونحن لا يمكن أن نقبل النقل.
-أدخلوهم، وأغلقوا عليهم الحجرات، حتى ترجع لهم عقولهم..

آوى عامر إلى سريره، لا يشغله شيء مما يجري حوله، سوى الحزن الذي سكن أضلاعه، غياب سعيد أسقط كل أحلامه دفعة واحدة. عجز عن التفكير بشيء ما، أو التركيز في أي أمر، صدره يكاد ينفجر، يحسّ به ينوء بالألم، وقلبه متعب، ارتجفت شفاهه، سحب الملائة على وجهه وبكى بصمت.
وجد نفسه مدفوعاً للكتابة، أمسك بالقلم، وخط بالحبر الأسود:
"أصبح لي الآن حزني الخاص..ألمي وشجني المترع بلوعة فقدان أخي..حزنٌ أحمله فوق كاهلي وأغذّيه من دفق القلب، وأرويه بدمع العين. وأخلق من الحروف كلماتٍ مترعة بالذكريات، مشبعةٍ بالضوء الذي كان يشعّ من عينيه..".
خففت الكتابة آلامه، هدأت نفسه الملتاعة، فغط في النوم مبكراً إلى أن أيقظته نداءات بدر الدين لتناول العشاء:
-لا نيّة لديّ.
لم يدر أحدٌ بعد، بالخبر الذي قصم ظهره. لكنهم ألحوا عليه، أجبروه على النهوض، وتناول العشاء. أكل بضع لقيمات، أخذ كأساً من الشاي، وانزوى في الركن، أعطى ظهره للسرير، بدا وكأنه هائم، غائب في الغياب المرّ.

صخبٌ يملأ الغرفة على غير العادة، في مثل هذا الوقت، أصوات التلفزيونات، أغانٍ ومسلسلات، رياضة، كل واحدٍ على هواه..والمختلفين في لعبة الورق، فجأة ضجّ الجميع بالضحك، استعاد وعيه في المكان. كان النمس جاثياً على ركبتيه، يحدّق في الحصيرة، وينقل أصابعه من المربع الأحمر، إلى المربع الأصفر، بدت حركته كمن يعزل قطعة عن الأخرى، والبعض يرمي أمامه كسراً من الخبز، أو الحلوى، والبزر..يلتقطها ويجمعها في كفه الأخرى:

-ماذا تفعل يا نمس؟

-الحبوب..وقعت على العشب.

علت الضحكات مجدداً.

-انتبه، لا تقع في النهر، أمامك..

أحمد الفاسي فعلها، دعى النمس إلى كأس من الشاي، رمى فيه ثلاث حبات أرتان، كانت كافية لتفقده توازنه..فينفصل عن الواقع، وعن المكان. ظل ساهماً لساعاتٍ قبل أن يخلد إلى فراشه، لكنه لم ينم بسبب الحبوب، وعامر الذي لم ينم أيضاً، سمح نحيباً خافتاً، أصاخ سمعه ثم تجاهله. علا البكاء ثانية، اتجه نحو الصوت، كان النمس يبكي، ويهلوس بكلمات غير مفهومة، حاول إيقاظه، لكن هذيانه كان في أوجه، صبّ الماء على وجهه، وجذبه من يديه، تقطّع نحيبه، ثم صار يشهق، فرك له يديه، وأجلسه بالقوة:

-نمس، انهض ما بك؟

-سأموت..آه سأموت..

قال بصوت منهك، كمن يدنوا من الموت حقاً.

-أي موت؟ انهض من مكانك، غادر السرير.

-لا أقدر..رجلاي مشلولتان.

أزاح الغطاء عن جسده، تفقد قدميه، حركهما، لم ير فيهما شيئاً! حاول جاهداً سحبه من السرير، بلا فائدة. فكر في أن بقاءه على حالته هذه، قد تقوده إما إلى الجنون، أو انفصام في الشخصية، أو حتى إلى الشلل الذي يتوهمه الآن. أيقظ الوردي المتعب بعد نهار طويل من التمارين الرياضية، همس له بإذنه حكاية النمس، اتجه نحوه، وحمله بين ذراعيه بخفّةٍ، وأوقفه على قدميه مسنوداً إلى حافة السرير.

-أترى؟ أنت لا تعاني من شيء.

-أنا متعب.

-لا متعب ولا من يحزنون، كابوس؟ ام الحبوب التي بلعتها؟

-مشلول.. مشلول، أنا أموت..

لطمه الوردي كفين على خديه، ودفع به إلى الحمّام، وصب الماء البارد فوقه، أجلسه على العتبة، ثم أجبره على تناول كأس من عصير البرتقال. نظر عامر إلى ساعته، كان الفجر قد بدأت تظهر خيوطه الفضية الأولى، وتنسكب على حوافّ النوافذ العليا..

بعد غفوة خفيفة، حضّر القهوة، أخذ رشفة واحدة فقط، قبل أن يظهر الشرطي وينادي على الأربعة السفلة:

-المدير يريدكم.

انتظر الأربعة في البهو، للدخول إلى مكتبه..نصف ساعة، ثم خرج إليهم، وقف بباب مكتبه وأشار بيده:

-كعكوس وإبراهيم، نقل إلى السجن الشرقي، وأنتما إلى الانفرادي.

أدار ظهره وهمّ بإغلاق الباب على نفسه، ارتفع صوت الأربعة باللغط معترضين على ما قاله. لم يفلح الشرطي في اقتيادهم نحو الطابق الأرضي..

-اتركهم. .

قال المدير، دخل المكتب وعاد بعد لحظات، عاقداً يديه إلى الخلف.

-ما زلتم تتمردون، وتحرضون غيركم على التمرد؟

وقبل أن يجيبه أحد، رشّ كعكوس وإبراهيم بمادة غازية، صرخا بحدّة، ووضعا أيديهما على عينيهما، ثم راحا يمسحان وجهيهما بالثياب. توالت تأوهاتهما:

-آه.. لم أعد أرى، حرقتنا يا سيدي!

جفل عامر وخالد، تراجعا خطوة إلى الوراء، تملكهما الفزع، كانت للغاز رائحة قوية ومخرّشة، سقط على أثرها كعكوس وإبراهيم مغشياً عليهما في مكانهما، أصدر المدير تعليماته مجدداً:

-خذوهما، قيدوهما، وارموهما في سيارة النقل، وهذين الكلبين ضعوهما في المقبرة.

الانفرادي للمرة الثانية يدخله خلال ستة أشهر، أحدث العقيد الحصان، تعديلات على مدخله وبنى المقبرة، ذات السمعة المخيفة، ها هو يُساق إليها! فتح الشرطي باب الزنزانة الأولى، فظهرت المقبرة من الداخل. قسمت إلى جزأين علوي وسفلي ولكل منهما باب. تماماً مثل ثلاجة الموتى، أو قبرين فوق بعضهما، أدخل خالد في السفلي، أما عامر فقد تعلق بالباب، واستعان بكتف الشرطي حتى تمكن من الدخول إلى قبره العلوي:

-أخفض رأسك..ها؟

على الأرض، وبما عليه من ثياب، لا فراش ولا غطاء، ولا ماء. تمدد على ظهره، تفحص بعينيه نصف الزنزانة-القبر، رائحة عفونة ورطوبة، وبول، ثمة نافذة في

الباب. وأخرى دائرية بحجم الكف خلف الرأس، هي مصدر الهواء الوحيد، يمكن للسجين أن يجلس فقط، وأن يحبو إذا أراد قضاء الحاجة، الباب خلفه باب الزنزانة الأصلي. وضع كفه على الجدار، وأخذ يقيس ارتفاع القبر: خمسة أشبار، طوله ثمانية، وعرضه أربعة. أخذ نَفَسه يضيق، يعبّ الهواء بأكبر قدرٍ ممكن من فمه، توقف عن الحركة تماماً، أخذ يخنق السعال كي لا تضيق شرايين الرئتين. ارتاح قليلاً، طلب من خالد أن يطرق الباب:

-أريد بخاخ الفينتولين..وإلا وقعت في أزمة حادة.

-اصبر قليلاً، إن سمعت اصواتاً سأطرق الباب.

ظهراً فتح الباب، ثم النافذة الصغيرة، دفع الشرطي من خلالها طبق الحساء الصغير، نصف قطعة من الخبز، وقليل من الماء، دون أن يتفوه بكلمة واحدة.

-اسمع..

-لا تكلمني..ممنوع.

-كيف ممنوع، أنا مريض. أريد علاجي.

-علاج ماذا؟

-أبلغ العيادة، وهم يعرفون.. أنا أبلغتك.. وأنت، تدبرّ رأسك!

تذوّق الطعام، كان الحساء حاراً، فأبعده جانباً، أكل قطعة الخبز مع الماء، سدّ جوعه وعاد يسترخي على الإسمنت البارد، لم يمض وقت طويل حتى ظهر الممرض بالباب وفتحت النافذة الصغيرة:

-مدّ يدك من الباب.

ربط يده أعلى المرفق بشريط المطاط، وغرز الحقنة في وريده، انساب الدواء في دمه، اختلط به، سحب الحقنة، مسح مكانها بقطنة مبللة بالكحول، وغادر المكان.

تحسنت صحته تدريجياً، لكنها تردّت مع حلول الليل، والبرودة التي تتغلغل في جسده ضاق صدره، بدأ يطرق الباب، لحق به خالد، فظهر المدير أمامه:

-أريد أوكسجين..

-والحقنة التي أخذتها.

-لا تكفي..

أمر المدير بفتح أبواب المقبرة، أخرجه إلى العيادة، وظل خالد يعاني من الظلمة والرطوبة والضيق ، ثم أعيدا معاً إلى القسم آخر الليل.

بعد الظهر دخل الوردي، وقف في الساحة الصغيرة وأبلغ الجميع:

-الانتقال إلى القسم الجديد، بعد ساعة واحدة تماماً، جهزّوا أنفسكم.

ساد صمت مطبق، لم يفتح أحد فمه بكلمة، أو حتى اعتراض، ومضى كلٌ في سبيله يوضّب أغراضه.

مرّ يوم مضنٍ، متعب جداً بالنسبة له، غبار وفوضى، وحركة دائبة وصخب.. وبين الفينة والأخرى يأخذ جرعة من الفينتولين، وقليلاً من الماء مع حبة من الفيتامينات المتكاملة، يستقوي بها على ضيق التنفس، وعلى التعب الذي أنهك قواه، وهو يذهب ويجيء حاملاً أغراضه لمسافة مائتي متر.
الثالثة فجراً، أخذ يسعل، ثم انتابته نوبة من الربو، وكلما أخذ جرعة من الدواء، ازدادت الأزمة في صدره. شعر بأنه يكاد يختنق، ركض نحو الباب يستنشق كمية أكبر وأنقى من الهواء، عاد على فراشه، الذي يقع إلى كتف حاجز من الألواح الحديدية القريبة من غرفة الحراسة، أخذ يطرق الباب بيديه وقدميه. نهض السجناء من نومهم فزعين، تعالت الأصوات:
-افتحوا الباب..افتحوا الباب، عندنا مريض.
ركض عامر نحو الباب مرّة أخرى، تعاظم إحساسه بالاختناق، تراءى له الموت، رآه بعينيه يقترب منه، أمسك بعزرائيل بكلتا يديه، ورماه بعيداً عنه. اشتدت أزمة التنفس، بخاخ الفينتولين، والمراوح، واستنشاق الهواء لا فائدة فيه..فتح الضابط المناوب الباب على عجل. خرج جرياً باتجاه العيادة، ومن خلفه يركض الضابط والمدير والشرطة، دفع بقدمه باب العيادة بقوة، قفز نحو قارورة الأوكسجين، الممرض النائم يتثاءب، خطواته متثاقلة، عاد نحو الباب يستنشق الهواء، أخذ الشرطي يجري له تنفساً اصطناعياً، أبعده عنه بقوة، قوة من يواجه الموت، قوة من يتمسك بالروح، أخذت حنجرته تصدر أصواتاً مختلفة، فحيحاً مرّة، وسعالاً حاداً مرّة بين الشهيق والزفير، يرافقه أنيناً مكبوتاً. وضع الممرض إنبوب الأوكسجين المتدفق، على إنفه وفمه، أعطاه حقنة هيدروكورتيزون مع الأمينوفيلين، أحسّ بالدواء يجري في عروقه، بردت شفتيه ثم ارتجفتا، ثم صار جسده كله يرتجف. شبح الموت يدور حوله، الخدر يسري في شرايينه، الدواء يخلّف طعماً مرّاً في فمه، انكمشت شفتيه، شعر بدوارٍ في رأسه، وغثيان في معدته، تثاءب..تثاءب، ارتخت جفونه..ثم غط في نوم عميق.
فتح عينيه في الصباح، كانت يسراه تتصل بكيس التغذية وإلى جانبه شخص ممدد على السرير، مغطى بملاءة بيضاء من رأسه حتى قدميه، أدرك على الفور أنه يجاور ميتاً.
-مَنْ؟
-جبران..
تملكه شعور عميق بالأسى لموته، جبران المعتوه الذي يعاني من أمراض عدة بسبب التعذيب، كان يجذبه من يديه غصباً عنه، يعرضه أمام لجان حقوق الإنسان، ولجان التفتيش، وأمام الطبيب..لم يعالج! المدير لم يأبه ولم يرأف لحاله. لم يكن ينم ليلاً أبداً،

يخشى الأشباح التي يعتقد أنها تلاحقه. دكّه المدير في الإنفرادي، تعاظم ألمه، فقرر التخلص منه، دفعة واحدة، بخيط بنطاله، وعلى شبّاك زنزانته، في لحظةِ صفاءٍ عند الفجر..شنق نفسه !

19

البوعزيزي قلب الدنيا..
تلّمس صدره بكفه..كان نبض قلبه يدفق بالأمل : الحرية ع الباب..
لايدري أي إحساس بالألق، قد تملّكه وهو يتابع تنامي لهيب الوجع في صدور التونسيين. لم يعد للإحتمال معنى، فتناثرت كل أوراق الصمت الذي ناءت بحمله الضلوع لسنين طوال، دفعة واحدة، وكأن الريح القبلي لم تكن هبت من قبل في هذه الديار، الملوّحة بشموس التعب.
كانت المشاعر فيّاضة بالترقب، مع كل خبر أو صورة، من الغرب والشرق معاً، حيث الشوارع والساحات تتعرى من رهبتها وتلفظ حرّاسها الرماديين، والناس الذين اقتلعوا الخوف من دواخلهم، تصدح حناجرهم بالأمل: إرحل.
غير أن قوة ارتداد الكلمة Dégage في شارع الحبيب، جعلت من قاطن قرطاج مرتعداً، محلّقاً نحو خلاصه. ولم تتأخر ألحان الأغنية عن ذيوعها في أفواه الشباب، مثل قبلة دافئة على وجنة القاهرة..هكذا تجلّت الترنيمة في ميدان التحرير.
لم يحدث مثل ذلك أبداً، بالصورة التي يتابعها الآن على جمرٍ من قلق. كانت صنعاء تغلي..تغلي دون أن يتبخر الماء أو أن ينقلب القِدْر، وقد طال السهر بانتظار غيمة ترمي هدايا عشاقها في الدروب التواقة لنور الصباح!
هنا ثمة ماهو مختلف، مزيج من الخوف والفرح تركه يتقافز بين سريره وممر الحجرة والباب، يحدّق في النافذة الصغيرة المقابلة له، ثم يتفرس الوجوه بتطفلٍ لم يعهده في نفسه من قبل.. يبحث عن شيئ ما، عن عينين تشاطرانه مشاعر تداهمه، كلمات تستبد به وهو يلجم لسانه عن النطق بها لأي أحد..لاثقة في أي ممن حوله في هذه اللحظة بالذات.
أغلب الوجوه باهتة وشاحبة وصامته، تكاد تخلوا من أية تعابير دالّة على جسامة مايقع من أحداثٍ أصابت شعوباً بأكملها بالوجوم، فابتليت بلحظة بلادةٍ أذهبت التفكير هنيهة قبل أن تستعيد مقدرتها على إعادة التفكير لفهم مايجري، وليس لتفسيره. لم تعد هناك أية أهمية لماحدث في تونس بدءاً بحادثة البوعزيزي وصولاً الى هروب بن علي، أو لما يجري الأن في مصر واليمن..أخبار بنغازي شئ آخر، لكأن القيامة قد قامت. في بنغازي فعلاً قامت القيامة فلم يكن ماقبل ذلك المشهد مايشبه بعده، لا في الغد، ولا في التاريخ، وربما لن يتكرر!
يتذكر الآن صلاح وقد قطب جبينه واكفهر وجهه، قبل أن يرد عليه، وهو يتناول كوب القهوة الورقي من يده، داخل الغرفة المحاذية. الحجرة التي كانت لهم، قبل أن

تلحق بقسم الإعدام، وتصبح مأوى لكبار السن والعجزة، ممن ينتظرون تنفيذ حكم الإعدام بهم، حين تجيئ فيه ورقتهم:
-فأل الله ولا فالك ..انشالله سوريا.
قال له إن إزاحة الديكتاتور، سيكون ثمنها حرباً تحصد أرواح مئة ألف من الضحايا. لم يناقشه في جوهر الفكرة، بل استنكر تقدير الثمن وفظاعة الأمر..لمجرد التصور فقط. رغم إدراكه أن الزعيم " لحم خيمته مرّ " مستعد أن يحرق العالم كلّه، إذا تحسس الخطر.
كان السلاح منتشراً بصورة تنذر على الدوام بالخطر، خطر أن يقتتل الناس فيما بينهم بسبب الولاء للنظام، أو للقبيلة. لم يكن عناصر الجيش يمتلكون تلك الأسلحة الموزعة بكثافة بين أنصار الزعيم، ضمن تشكيلات ثورية، تلعب دوراً أمنياً واسعاً في إرهاب الناس، تكميم أفواههم، ومصادرة أرزاقهم.. وإخضاعهم بالقوة.
كان يرى الإحتقان في وجوه المقموعين، ويتكهن بانلاع نزاع مسلح في أي وقت. وعلى الرغم من ذلك أحسّ بشئ ما يعتريه، بالخوف، وهو يحدّث صلاح عن نبوءته التي صارت بعد سنوات يقيناً. لم يتورع النظام في فعل أي شئ ضد طلبة وأساتذة الجامعات الذين شنقهم مريدوه في الحرم الجامعي، أو ضدّ الأهالي المحتشدين في المدن والبلدات، أو المعتقلين الذين قام بتصفيتهم في السجون، ولم يتأخر عن هدم بيوت الذين أسماهم "العملاء والجواسيس الخونة".
هكذا فتح الأمن النار على الناس في الشارع وهم يتظاهرون، وخلال يومين انتقلت فيها حركة الإنتفاض ضد النظام في أكثر من ثلثي البلاد، وصار هناك مئات القتلى والجرحى في كل مكان. كانوا يتابعون الأخبار أولاً بأول، ويتلهفون لمعرفة المزيد بصبر ينفذ مع كل لحظة تمرّ. معظمهم احتفظ بصمته حيال مايجري، غير أن العيون فضّاحة، هو كان مبتهجاً في داخله، أن يوم الغضب أشعل ثورة. مبتهجاً أن الريح أخيراً هبّت، وقد طال انتظارها، كي تذروا الخيمة التي أَرهقت الناس، وأُزهقت من أجل ظلّها الهارب المختبئ في الصحاري..ألوف الأرواح.
وحده الوردي كان شجاعاً في التعبير عن أمنيته بأن تنقلب الدنيا على عاشور. كان هذا هو الاسم المتداول في الشارع بين الناس " للزعيم "، ولم يكن أحدٌ ممن في الغرفة قادر أن يقول رأياً مخالفاً له، حتى من أولئك الأقارب المقربين من عاشور ذاته، ومن أبنائه وجماعاته ومريديه، حسين واحدٌ منهم. تسارع الأحداث في البلاد سجل تطوراً لم يستوعبه السجناء للوهلة الأولى: لقد استعاد البنغازيون مدينتهم، سقط النظام فيها. لم تعد قنوات العربية والجزيرة كافية لإشباع فضولهم، فكانت الهواتف تنقل اخباراً لايستطيع الإعلام أن ينقلها أو ان يصل إليها، مباشرة من أرض الحدث. ولم يكن هناك اي مجال لإخفاء أي خبر كان ينتقل كالنار في الهشيم ، كالهواء، بين

أقسام السجن، يطير الخبر من فم إلى أذن..ومن شرطي الى آخر، كما تدور سيجارة ملغومة بالحشيش بين أصابع وأفواه السجناء، الذين لم يعد يدور بهم خدر الكيف، والدنيا من حولهم قائمة، والنار هبّت وغير ربك مايطفيها.
-خليه ينقلع..الزفت..بالك نرتاح منه..يكفينا أربعين عام.
علا صوت الوردي على سفرة الغذاء وهم يلتهمون المعكرونة، متحلقين وعيونهم شاخصة الى شاشة التلفزيون. تابع كلامه في ظل الصمت، أن لا التوانسة الذين قبعوا بن علي، ولا المصريين أشجع وأرجل من الليبيين. قال بحرقة أن النكت صارت تسخر منّا.
يختلسون النظر الى حسين خفية، ليرو ردّة الفعل من كلام الوردي، ومما يتوالى من أنباء. ظلّ هادئاً يمدّ ملعقته بصمت الى القصعة، دون أن يرفع بصره عن المائدة، منشغلاً عنهم بقطعة اللحم أمامه، ولم يتأخر كثيراً حتى كان أول من نهض باتجاه الشاي الأخضر.
أخذت أعمدة الدخان ترتفع لتشكل سحابات سوداء في سماء بنغازي، الحرائق تنتشر، والطيران يواصل قصفه للمدينة المتمردة أملاً بعودتها إلى حظيرة النظام. لقد فعلها عاشور، ولم يتوقف عند مواجهة المتظاهرين بالرصاص وقتل العشرات منهم. لكن تقدم الشباب لم يتوقف داخل المدينة، رغم القصف وعمليات الانتشار الأمني والعسكري..وقد مالت الكفة لصالح الثوار بعد الإستيلاء على الإذاعة والمعسكرات التي تقع داخل المدينة، واقتحم الأهالي سجن الكويفية وحرروا السجناء.
لم يستطع أحدهم النوم تلك الليلة، كان الاستنفار في حدوده القصوى، كل شئ كان على فوهة بركان. أقفل عليهم الباب في وقت مبكر، والجوّ البارد يجبرهم على التزام أسرّتهم طلباً للدفء. قطع الشيخ الصادق سكون الغرفة وهو عائد من الحمام، بنوبة مالوف، طالعة من أضلعه حرّاقة الهوى:

ياليلة الوصل عودي رفقاً لصاحب السعود
قد لاح لي فيك بدرٌ ما مثله في الوجود

كان صوته رخيماً جميلاً، يذكره بصالح عبدالحيّ وزكريا أحمد. يجيد عزف العود ويتحسر على أيام الشباب، قبل أن يصبح إماماً في الجامع ومختاراً للحيّ. تحنّ أصابعه للوتر، والطرب والكأس دون أن ينكر ذلك، بل رفض أن يؤم المصلين يوم الجمعة في السجن قائلاً إن ذلك لايجوز ولا يعنيه. قبل أن يُسرّ للقريبين منه أنه مرتاح من أعباء الإمامة، جاءت من عند الله..وأنه لن يعود إليها بعد الخروج من السجن.
كل شئ في البلد خرج عن السيطرة، من البيضا حتى الزنتان، وحركة الاحتجاجات تتصاعد وتتوالى، ومحاولة قمعها ومواجهتها تشتد بصورة أعنف. الثورة

تمتد..وعاشور يجنّ، يعطي أوامره بالقتل والحرق..بالتصفية كي يستطيع استعادة هيبته التي تكسرت على رائحة الدم والموت والقهر الذي طفر من صدور الناس.

سريره في مواجهة الباب مباشرة، لا يستطيع ان يرى سوى الحائط أمامه، ومدخل الحمامات. امتداد الغرفة خلف رأسه مباشرة، صحيح أنه يبعده عن وجوه وعيون الاخرين ومراقبتهم له.. لكنه الآن بحاجة لمراقبتهم كي يلتقط حركة عيونهم واكتشاف تأثير الأحداث فيهم. معظم من هنا يشتم عاشور ويتمنون رحيله، لكنهم حتى اللحظة لايجروؤن على البوح. كانوا يبوحون له هو الغريب..وكذلك بعض عناصر وضباط السجن. الخوف من التعبير مايزال يسكن القلوب، والوردي الذي لايأبه ولايخاف كلّفته شجاعته داخل السجن، عقوبة 3 سنوات بسبب شتمه لعاشور.
يواصل الشيخ ترنيمه لنوبة المالوف..يعيد ويعيد الدندنة لمطلعها ولايملّ.قطعها صوت العقيد خالد وهو يطل عبر نافذة الباب:
-ماشالله .. صوتك زين ياشيخ.
أومأ لعامر فنهض من فوره إليه، همس في أذنه أن التفتيش بدأ بالقسم الخامس وعليهم إخفاء الجوالات، وسيرسل بعد قليل من يأخذها ويخفيها، حتى تمرّ الغيمة. وأنهم سيبدأون بتشغيل جهاز التشويش على شبكة الإتصالات، الذي يقومون بنصبه فوق القسم التاسع منذ مغيب الشمس.
لم يك خبراً سارّاً على الإطلاق. بدات الهمهمة تعلوا سباباً وشتماً، كانت الساعة تقترب من الثانية فجراً، وعلى الفور بدأ الجميع الاتصال بذوويهم كي لايقلقوا بشأنهم، فلن تكون هناك شبكة بعد قليل. لكن المشكلة تبدأ هنا..كيف يمكن التواصل مع الخارج لمعرفة الأحداث، والأهم هو التواصل مع الأقسام الداخلية في السجن.
صباح الجمعة حمل أشياء جديدة، بدأ السجناء بالغليان، تمردوا منذ توزيع الإفطار احتجاجاً على الإغلاق، وعلى التفتيش الذي جرّد المغفلين منهم الهواتف الجوالة، فلم يجدوا طريقة لإخفائها. ثم لم يلبث الأمر وان تطور للمطالبة بالحرية أسوة بسجناء بنغازي. الإضراب العام شلّ كل شئ، وأربك الكلّ بمن فيهم السجناء السياسيين.
محاولات الإدارة للسيطرة على الوضع فشلت كلّها, كما لم تؤد محاولات التوسط التي جرت إلى اية نتيجة. بدأت الفوضى تعمّ الأقسام، ولم تسطع الحراسات اداخال النزلاء الى الغرف، فظلوا في الساحات وبدأوا الطرق على الأبواب. صارت الأصوات تتواتر محدثة صخباً كبيراً يختلط مع الأصوات ومع الحرائق الصغيرة التي أخذت تلتهم البطانيات، واخذت تتطور شيئاً فشيئاً كحركة تمرد واسعة.
في الطابق الثاني من القسم التاسع، تمكن النزلاء من هدم جدار كامل. أمسك بعضهم بأسرّة الحديد وراحوا يضربون بها الجدار بكل قوة حتى انهار. أصبح المشهد مفتوحاً

على الشارع العام أمام السجن، يفصلهم عنه خمسين متراً لاأكثر. ولكن الطابق الأرضي حدثت فيه جلبة أكبر، هنا المحكومون بالسجن المؤبد وجناح العقوبات المشددة للمحكومين بالإعدام، وهنا أخذ التمرد شكلاً مغايراً جداً ومخيفاً جداً. لم يكن أحد يسعى للهروب، هنا أمر مختلف تماماً، لقد انضموا الى الثورة!

امتلأت الساحة بكل عناصر السجن من ضباط وعناصر الشرطة، والأمن والمخبرين، وعلى رأسهم مدير السجون العميد يوسف، والعقيد بوزيدي يفتل ويرّن ويدور هنا وهناك. الارباك والوجوم والعجز يكبلّهم، لم يكن أحدٌ قادراً على السيطرة والتهدئة. فيما استطاع سجناء الإعدام والمؤبد اقتلاع أبواب الزنازين..قدرة ما، جبروت السعي الى الحرية ولّد تلك القوى والطاقات التي تقتلع أبواب الحديد..شئ لايمكن أن يُصدّق، لكنه حدث.

طُرد حرّاس التاسع خارجاً وأُغلقت البوابة من الداخل، دعّمَت بالأسرّة والخزانات والطاولات الحديدية العائدة لمكتب الحراسة، بحيث لايمكن اقتحام المبنى، وأعلن السجناء استمرار تمردهم حتى تحررهم.

لم يمض ساعة، حتى كانت كتيبة عسكرية تحتل مربع السجون بالكامل، نشرت المدافع حول الأسوار وعلى المداخل، وهجم الحنود بكامل عتادهم ينتشرون في كافة مرافق الادارة ونقاط الحراسة، وفرض قائدهم تجميد دور وحركة مدير السجن وضباطه. بدأ الرصاص يلعلع في سماء المكان، ومعها تعلوا أصوات السجناء في الأقسام وطرقاتهم على الأبواب، وتزداد الحرائق وترتفع أعمدة الدخان الأسود.

منتصف الظهيرة كان العشرات من أهالي السجناء والمعتقلين قد بدأو التوافد والتجمع عند البوابة الخارجية، مطالبين بإطلاق سراح أبنائهم، تصدت لهم الكتيبة العسكرية، فرشقوها بالحجارة، لاشئ هنا يمكن إخماده وضبطه والتحكم بمساره..كانت قناة الجزيرة تبث خبراً عاجلاً عن إفراغ السجن واقتياد نزلائه الى جهة غير معلومة، وسط حرائق وإطلاق نار وقتلى.

كان عامر يتابع الخبر ويلاحظ تضخيم الأحداث، وأحياناً عدم صحتها. لم يكن هناك إفراغ للسجناء، الموت كان يجول هنا، و التوتر والقلق انتاب الجميع، من احتمال القيام بذلك فعلاً، والنظام أيضاً يخشى أن تندلع طرابلس في أية لحظة. عندما أعلنت الجزيرة سقوط قتلى لم يكن ذلك قد حدث..ولكن العقيد شحاتة قائد الكتيبة، وقد نفذ صبره، اتخذ وضعية الرامي على ركبة واحدة، على بعد عشرين متراً من بوابة القسم التاسع التي تفضي إلى ممر بعمق سبعين متراً، اعتاد السجناء الجلوس فيه. ودون سابق إنذار..وحده أطلق رصاصاته باتجاه الممر عبر الباب الموصد، بطلقتين..ثلاثة دراكاً، ثم أفرغ مخزن الروسية بصليْة واحدة ألهبت كل شئ.

لحظات من الصمت المرير..ثم اندلعت الاحتجاجات أشدّ، كانت النوافذ المطلّة على الساحة العامة، تنقل أخبار القتلى والجرحى الذين أسقطهم رصاص العقيد شحاتة. تلاقت نظرات العقيد عبدالمجيد والوردي، ودونما اتفاق شقّا معاً نسق عسكريي الكتيبة باتجاه المسجد، ولوّحا للعقيد شحاته فأخذت أقدام القاتل طريقها إليهما.
-يارجل .. مالذي تفعله ؟
بادره الوردي، قبل أن يحدثه العقيد عبدالمجيد عن خطورة ما اقترفه، في حين أن الأهالي يواصلون تجمعهم واحتجاجهم عند الباب. كان جوابه بتفريقهم بالرصاص الحيّ في الهواء، ينمّ عن صلافة الجاهل بعواقب الأمور.
-انت تعرف ماذا تفعل؟
-عندي أوامر وصلاحيات.
أسفل المئذنة هنا، اتفقا معه على إخراج الجرحى والقتلى، وسمح للوردي وحده بنقلهم خارج القسم بمعاونة كعكوس. وأُعيد إحكام الباب من الداخل. هنا أسفل المئذنة وخلفها كانت كرامات السجناء تنتهك بالإغتصاب أواخر الليل، قبيل الفجر. وهنا كانت تقام حفلات التعذيب والتعري المرّة. وهنا حيث يقف العقيد شحاتة يدخن، ويراقب عملية سحب القتلى والجرحى الى العيادة، كانت تُمدد جثّة على الأقل كل يوم، لمن قضى بسبب التعذيب أو المرض والإهمال.
يئن محمد هارون، وأنين هذا التشادي البعيد عن أهله يتغلغل في مسامات وجعه وهو يقف الى جانبه. يمسك بكفه، فيما يشخب الدم من جسده نازفاً مثل خيط، بسبب رصاصتين أسفل بطنه، ينتظر على النقالة في ممر العيادة. وفي غرفة الطبيب لاشئ يمكن فعله مع فرج الزنتاني، الذي اخترقت الرصاصة كتفه واستقرت في عنقه. أربع جثث أخرى ملفوفة ببطانيات مرمية على الأرض، سمح شحاته بإرسالها الى براد الجثث، ورفض بتعنت نقل الجرحى. كان الممرض الباكستاني أيوب وحده عاجزاً عن فعل أي شئ!
محمد هارون، الهزيل الجسد المسالم والمتسامح لأبعد حدّ..الباسم بألم، جفّ دمه بعد ساعة ونصف..جاءه ماكان ينتظر، مات في مكانه. مسح عامر بأطراف أصابعه على وجنته اليمنى، وهو يغالب دمعته، نظر الى السقف دون أن تخرج آهة حبيسة في ضلوعه. أحسّ بصدره يطبق عليه من شدّة الألم، فاستدار نحو الباب وخرج.
لحظات وأطلّ من الباب رجلٌ مع حرّاسه، كان هذا المستشار الأمني لعاشور. هو ذا إذن أحد المسؤولين عن جرائم تصفية واسعة في البلاد، أهمها سجن أبو ابو سليم، فمالذي يريده هنا. ارتبك عامر ودبّ الخوف بقلبه، بسبب جريمته تلك هو هنا. وقف في منتصف الساحة وقد جمع الضباط من حوله، اقترب عامر والوردي ويوسف الجبالي، بناء على طلبه لفهم مايجري، تظاهر بعدم موافقته على إطلاق النار

والتشويش على شبكة الاتصالات، وبأن القائد لايعلم. كانت الحرائق ماتزال مشتعلة والسجناء يمورون بالغضب داخل الأقسام يطالبون بالخروج. لم تكن المفاوضات صعبة، فالنظام في وضع حرج، يخشى انتقال الثورة بسبب هؤلاء السجناء الى العاصمة!

كانت البيضا وبنغازي، ماتزالان مشتعلتان، وارتفعت مشاركة الناس أكثر بعد صلاة أول جمعة في الأحداث. كان هدير الناس مدويّاً في أنحاء العالم كلّه: الثورة المستحلية تتفتح كأوراق الربيع في حناجر الناس وخطاهم.

-تخرجون في مظاهرة مؤيدة للقائد في الساحة الخضراء..ومن هناك نطلق سراحكم.

-مالذي يضمن ؟ سأله الوردي على الفور.

-أنا أضمن ذلك بعد مشاورة القائد..أمهلوني ثلاثة أيام..نسحب الكتيبة من الداخل، ونوقف التشويش، وتلتزمون الهدوء.

-24ساعة..حتى عصر الغد.

من أين جاءته الشجاعة ليتحدث عامر بتحدٍّ وثقة، ورؤية هذا الشخص تثير رعبه؟ لم يكن المستشار الأمني ينظر إليهم وهو يتفاوض معهم، ربما كان هذا سبباً في الشجاعة التي لم تكن تنقص أيّاً منهم.

قال للوردي وللعقيد عبدالمجيد والعقيد خالد، أنه لايثق به، ويخشى أن يتم نقل السجناء الى معتقل أبي سليم العسكري الذي تم إفراغه أول امس، وأن تتم التصفيّة فوراً.

-هل يؤمن جانب من تفاوض مع سجناء 1996 ثم شارك في إبادتهم ؟

ليلة دامية أخرى مرّت بها البلاد. أما هنا فقد عادت الإتصالات، لكن الكتيبة لم تنسحب، ولم تعد للتدخل مع أحد، خاصة بعد أن رفض حرّاس السطح فتح النار على السجناء في الأقسام التي يطلّون عليها.

جاء الصباح متمهلاً جداً، وكأنه لايعرف أن الآلاف بانتظاره..بل الملايين! لا أعتقد أن أحداً في تلك الليلة قد نام، فكان انتظار النهار متعباً جداً، يتذكر عامر ساعات الوقوف أمام فرع الأمن العسكري في عزّ الصيف في العراء، من الثامنة صباحاً حتى يتم استدعائه بعد المغيب! يريد أن يخلص مماهو فيه، وليحدث ماهو مكتوب. لكنه اليوم يملؤه عبق جوّاني..الحرية حقاً صارت على الباب، لم يخامره شك بذلك. بدأت الأخبار بالوصول مع خروج الوردي للعمل في السابعة صباحاً لتنظيم قوائم بأسماء السجناء، تمهيداً لإطلاق سراحهم. أخذ الشك يساوره..قد لاتتضمن القوائم اسمه! ثمة تلاعب مخابراتي مرّة أخرى تلاحقه، ولم يؤكد أحدٌ أي شئ.

-لن تخرج..

قال له بوخريص، فنظر اليه بدهشة كمن لمن يسمع أو يفهم جيداً مايقول له، فكرر عبارته:
-قلت لك لن تخرج..الكلام لك.
استفزته العبارة، أحس بحرارة الدم تسري في جسدة وترتفع بسرعة، لتصل الى أنفه وعينيه، ويتملكه الغضب دفعة واحدة..صار أعمى وهو ينفخ كلماته بوجه زميله السجين منذ خمسة عشر عاماً :
-اطلع برّا..انقلع.
أشار له بيده نحو الباب. كان بوخريص الضابط السابق، جالساً في الباحة الصغيرة يشرب القهوة، مع عدد من الضباط داخل جناح السجناء، حيث عامر، ومن قهوته. لم تبدو أية تأثيرات على وجهه المتجهم أصلاً، كأنه غير معني بالطرد. ارتخى بكل برادة على الكرسي، واضاف ببلادة:
-لا أخرج..وانت انشالله ماتطلع.
رفع عامر صوته يملأ المكان:
-غصباً عنك ساخرج..وإلاّ سأقتلك!
هرع العقيدان خالد وجمعة من الداخل، يستوضحان ويهدئان عامر، فأصر عليه أن يريه عرض أكتافه، فما كان منه أن قفز بجثته الضخمة نحوه وهو يقهقه:
-أمزح..أمزح
لم يرق المزاح له، كانت أعصابه مشدودة للغاية، وأي تماسٍّ لها، يمكن أن يفجر أية ألحانٍ تعتمل في داخله. وعلى الفور ارتدى ثياباً خفيفة، وجهّز أهم أوراقه في حقيبة صغيرة ضمت كتاباته وبعض الكتب الجديدة التي لم يقرأها بعد، من أهمها روايات عبده الخال: ترمي بشرر، و يوسف زيدان: عزازيل، ورائحة القرفة لسمر يزبك.
ترك لوحاته التي قضى وقتاً طويلاً وهو ينجزها، وفيها بعض روحه وألقه.
اقترب المغيب..والسجن في حالة ترقب أقرب الى الهياج..والأهالي لليوم الثاني يواجهون بوابة مجمع السجون ويقطعون الطريق اليه. في الساحة العامة اختلط الحابل بالنابل مع وصول لجنة الشرطة القضائية، وبدأت بتنظيم الافراج عن الموقوفين ومرتكبي الجرائم الجنائية ذوي الاحكام التي لاتتجاوز خمس سنوات.
رأى عامر أفواجهم تخرج كريحٍ عصفت لحظة، فأطلقت غبارها في الأفق، يتقدمون من البوابة، وأصوات التهليل والفرح تتسابق نحو البوابة، تمرّ به تلك الأجساد العابرة كالطلقة، خشية أن يغلق الباب..لاشئ مستحيل هنا.
-ماذا تنتظر؟
حدّث نفسه، واستدار في الممر الطويل نحو الغرفة، رمى سترتة على ساعده، وارتدى حذاءه كيفما اتفق وقفل راكضاً باتجاه البوابة الداخلية الأولى، وسط الجموع،

تاركاً خلفه بوخريص، يحاول ألا يُري وجهه لأحد الضباط وعناصر الشرطة الذين يعرفونه، كلّهم كانوا يعرفونه. عليه أن يمرّ منفرداً بإشرافهم من باب صغير أول، يليه ثانٍ فثالث..كم من الأبواب سيعبر!

التقطه العقيد جمعة وحثّه على العبور ممسكاً بساعده، ودفعه في الباب، كانت هذه إشارة كافية لعناصر البلاغات لتمريره، فاستلمه العقيد خالد ليمضي به من الباب الأهم الذي تسيطير عليه كتيبة العقيد شحاتة. كان قلبه ينبض بمزيج من مشاعرالخوف، والشجاعة والمغامرة. كانت حمولته الخفيفة، تساعده على سهولة الحركة، فمر كالبرق من جانب العقيد شحاته وهو يعبر الباب نفسه باللحظة ذاتها..بقي عليه أن يقطع خمسين متراً وبوابة أخيرة تفضي الى الشارع العام. وضع البوابة المشرعة على مصراعيها بين عينيه..وقد أرخى الظلام سدوله، وأضاءت المكان الكشافات المبهرة، وركض في الساحة..ركض لاهثاً نحو الحرية.

كانت أصوات الرصاص، تصل مسمعه متقطعة ومتناثرة كأنها من بعيد. لكنها على أية حال قريبة جداً، فقد بدأ أهالي الضواحي بالتحرك ضد النظام، وتاجوراء هي الأقرب الآن بقاعدتها العسكرية الجوية الأكبر.

سمع صوتاً منادياً خلفه، لكنه لم يكترث، فخطواته تلهث نحو الباب، تنهب الأرض وتسابق الوقت، غير أن يدان قويتان على كتفيه أوقفتاه في مكانه، فجمد دمه في شرايينه. كل ماداربخلده اللحظة، أنه سوف يعاد الى المعتقل من جديد. أدارته الكفان الى صاحبهما الذي بادره بالقول: ماشي..من غير وداع !!

تنفس..لم يترك له العقيد عبدالمجيد أي مجال للكلام، عانقه وجرى خارجاً. كان كلما التقاه همس له: انت..مكانك ليس هنا! وطوال عامين كان نبيلاً ومتعاطفاً معه، شأن خالد وجمعة.

ابتلعه الطريق، لكنه وجد نفسه وسط مظاهرة مصطنعة مؤيدة لعاشور..أدرك أن النظام يعمل على استثمار هذا الحدث الذي أُرغم عليه، لدعم سيطرته على طرابلس، فاستدعى مايزيد على خمسمئة شرطي وقفوا متراّصين على نسقين متقابلين، لمسافة تزيد عن كيلو متر مربع من الطريق العام، بحيث تجبر الجموع المفرج عنها على عبوره وهي تهتف للزعيم..فيما تبث كاميرات التلفزيون ما تلتقطه مباشرة!

كل السواعد تنحني وتمتد لأعلى مضمومة الأصابع، والخطى عجولة، وثمة من يجرجر حقائب كبيرة، آثر ألا يتركها خلفه وفيها بقايا من ألبسة، وأشياء يومية، يمكنه الاستغناء عنها، يريد أن يبقي رائحة السجن وذكرياته جارية بين يديه وعينيه. دخل بينهم ولكن يده لم ترتفع، أحس بها لاتريد القيام بذلك، تلفّت حواليه، وبعد بضعة أمتار من المسير، انسرب من بين الشرطة خارجاً وسط الناس المحتشدين على جانبي الشارع بانتظار أبنائهم، و خلف أقرب شجرة انحنى الى الأرض، تشمم ترابها

وقبّلها، ارتدى حذائه وسترته ومضى يحثّ الخطى نحو أولاده والبيت الذي لايعرفه بعد سنوات الغياب، يمضي ولا ينظر خلفه !

20

وقف على الشرفه يستعيد مشهد البحرالمتوسط المترامي أمامه، كانت روحه تتلمس سحر المساء والبحر بأضوائه البعيدة، وبأنوائه التي تموج في صدره كالسنوات المرّة، فتجلوها ليلة مقمرة كهذه. هنا يتلمس أيضاً طعم الحرية، يشمّ رائحتها، ويمرر أصابع قلبه وهدب روحه على جسدها المنفلت في الريح، ويتحسس بهاءها الذي يأتلق كلما التصق بها على هيئة أثيرفوق صفحة ماء في البراري الشاردة.
مرهقاً أدركه الفجر، احتضن رامي وريم لكنه لم ينم. كان بحاجة ليعيد بعض الدفئ الذي اختطف منهما لسنوات طوالٍ عجافٍ، إن كان قادراً أن يعيد شيئاً انتزعته الأيام بصلافة وقهر. نهض الى الى الشرفة ذاتها يتناول القهوة ويراقب ولادة اليوم الجديد من العتمة الى النور. ويتذكر ذلك النهار الأخير الذي أطل فيه كما الآن على المدى البحري، واعتقل بعد ساعات قبل أن ينتصف النهار.
لكن هذا النهار مختلفٌ، جاءت به الثورة، كما لم يكن بحسبان أحد. استعدّ للخروج رغم القلق الذي يسيطر على المزاج العام في المدينة، كان خروجه ضرورة للحصول على أي إثبات لشخصيته، ولما يمكنه أن يغادر به البلد، أعطته السفارة بطاقة مرور لمرة واحدة وجهة واحدة فقط هي دمشق. اعتبرت ذلك مكرمة عليه، ولكنها كانت تخفي ماحققته بعد ذلك بأيام.
كان يوماً مشمساً ولطيفاً، لكنه لم يجرؤ على النزول الى وسط المدينة، أو شاطئ البحر، أو أي مكان آخر. ظلّ حبيس البيت، فيما يتابع أحداث الشرق بكل مافيها من تحدّ للديكتاتور الدامي.
حمل المساء خطاب التهديد الأرعن لابن عاشور، الذي أزاح غطاء المخادعة والزيف الذي كان يتجمّل به أمير النمور كإصلاحيّ. كان الغضب يتطاير من عينيه شرراً وهو يهدد بأصابع كفّه اليسرى، دون أن يعى أن الوقت قد فات، وأنه ليس ثمة عبيد لهم! أطلقت كلمته تلك، غضب البلاد بأسرها، لتقشع غبار الضيم.
رنّ جرس الهاتف، تلّمس خوفاً في صوتها المرتجف وهي تطلب منه ألاّ يغادر البيت، حتى تصل. كان الليل قد جرد الغيوم من حملها فأمطرت..لكن السماء كانت ملعباً لطائرات النظام التي رمت رشقاتها على الأحياء الآمنه في فشلوم وسوق الجمعة، وشهدت المدينة إعادة انتشار جديد للكتائب الثورية المسلحة، تحسباً لإحتواء انتفاضة المدينة التي بدأت بوادها تهلّ.

عليه أن يغادر البيت، فقد أمر عاشور بإعادة اعتقال السياسيين الذين أُطلق سراحهم أو تصفيتهم ! كان قرار إيمان وسلام حاسماً بالتوجه الى المطار دون أن يحمل أي شئ وخاصة الأوراق والكتابات، أي شئ. لم يتأخر عن ارتشاف القهوة وهو ينتعل حذاءه ويقبّل الأولاد على باب المصعد، ثم أخذت السيارة تنهب شارع الجرابة وتنحرف يميناً عند تقاطع رأس حسن، باتجاه طريق المطار، بسرعة صاروخية. كان على سلام أن تصل قبل أن تقلع الطائرة الى دمشق والوقت ينفذ، دوّار باب العزيزية كان مفتوحاً باتجاهيه دون توقف على إشارة المرور وقد قابلتها أسوار المعسكر وربضت على بواباته وزواياه الدبابات، وبطاريات المدفعية. من هنا تحكم العصابات المنظمة شعباً ينتمي الى حضارات عريقة، يمكن تتبعها في أوابد تاسيلي، لا يستسيغ عاشور تذّكرها، أو الاحتفاء بها.

تقترب السيارة من أخر إشارة مرور في المدينة، وتتمهل عند منطقة الفلاح. ثمة تغيير كبير عما كانت عليه قبل تسع سنوات، أطلّ بنظرته نحو يمينه يستطلع الأمكنة، وطلب الى سلام التمهل قليلاً، فعاجلته سلام بالقول أن مكان اعتقاله هنا قد أزيل..المنطقة بأكملها قد مسحت! لم يكن ثمة وقت لانهمار أحاسيس أولى لأيام الإعتقال، ولا لتوالد الأسئلة، فثمة قلقٌ آخر بأن يخرج سالماً من هنا.

طوال الطريق، كان ثمة عربات عسكرية وجنود ترابط على بعض المفارق، نقطة التفتيش الوحيدة التي استوقفتهم على مشارف المطار، لكن وجود امرأة تقود السيارة، سهّل العبور..وعلى مدّ النظر كانت جموع الناس تفترش الأمكنة في الساحات وداخل صالات المطار، الناس بأكوام الحقائب والعفش والممكن، تغادر البلاد على عجل. شبح الإقتتال في الشرق، أرعب الناس ويدفعهم للهروب بأنفسهم وأولادهم، وماغلا ثمنه وخفّ حمله..لكن الكثير منهم حمل مااستطاع!

شق عامر وصحبه بصعوبة بالغة الزحام الشديد، وعليه الانتظام بدورٍ طويل، بينما راحت سلام في اتجاه آخر لشراء تذكرة الركوب. مرّت عشر ساعات من الانتظار والصبر الممزوج بالخوف، وبالجوع والتعب، غادرت فيها طائرتين..ولم يتمكن من الخروج، كانت الوعود حارة بشأنه، لكنها الآن تتبخر: رفضت مديرة الخطوط قطع تذكرة له، وأنها لن تتحمل مسؤولية مغادرة شخص مطلوب أمنياً!

منتصف الليل، والمطر يهطل بغزارة وفقدان القدرة على القيام بأي شئ، والوقت ينفذ. العودة الآن الى البيت تعزز فرص إعادة الإعتقال..العجز والخوف يغسلان روحه، أما المطر لم يفعل شيئا لتهدئة أعصابه، أشعل سيجارة وجلس في الرواق الطويل ساهماً.

وثب واقفاً وهو يشير الى مستشار السفارة، فأوقفته سلام كي يأخذه برفقته، تحسباً لأي طارئ. كانت المناطق المحيطة تتعرض لعملية تمشيط أمنية وعسكرية وإطلاق

نار، ولن تكون العودة، ولا البيت آمنين، فبات ماتبقى من ليلته عنده. نهض مع خيوط النور الأولى، غسل وجهه ومضى عابراً الطريق التي أغلقت ليلة الأمس، من راس حسن، باتجاه الدهماني، عبر دوّار فشلوم، باحثاً عن آثار قصف المروحيات للحيّ..كانت بقايا الذخائر تملأ الطريق الذي تناثرت فيه، وأحدثت ثقوباً في الاسفلت والجدران المجاورة. لم يجروء على الدخول الى الدروب الضيقة، حيث الأضرار والإصابات المباشرة للهجوم الجوي على المدنيين.
لم تتأخر طرابلس في النهوض، ولم يتوانى عاشور في قمع حركة الناس بالقتل والدم. ومن على شرفته البحرية، رأى الرتل العسكري المؤلل، يتجه لتعزيز حماية مباني الإذاعة والتلفزيون، ووزارة الخارجية، ومكتب النائب العام، المتجاورة على نسق واحد في طريق الشط.
الهاتف يرّن مرّة أخرى عند الظهيرة، وعليه الوصول الى المطار مرّة أخرى، ثمة أمل بالخروج مجدداً، كما قال محدّثه الدبلوماسي الذي نام عنده بالأمس. لم يكن بحاجة لتدبر أي شئ، فقط كان عليه توديع الأولاد النيام، في ظلمة الغرفة، كانت كلماته مرتجفة وهو يوصي رامي، ثمة شعور بأنه قد لاتكتب له الحياة أو الحرية بعد قليل.
وجهه الى الجدار، وكفيه يحتضنان ولده، الذي استقام جذعه في لحظة الوداع:
-انت تبكي..بابا !
كانت دموعه تنساب بصمت، ولم يجب. سارع يمسح وجهه، وينهض مقبّلاً أصابع العازف الصغير. ووجنة الأميرة النائمة كوردة المطر..ويبتلعه طريق الرعب والأمل مرّة أخرى.

كل شئ تمام.. نصف ساعة، وصارت التذكرة بين أصابعه، يقف وسط مجموعة من السوريين المغادرين، ماتزال أمامه مراحل أمنية يجب تجاوزها، كان المستشار قد وعده بذلك. هنا تعرّف الى عائلة تهتم بفنون التشكيل والموسيقى، التصق بها كمن يتمسك بتلابيب ثياب أمه، في طريق غامضة مغبّرة. اندس بها وحجز مقعده كواحد من العائلة السورية الأرمنية.
كان عبور نقطة الجوازات الأكثر ضرورة وخطورة وحساسية، وفي هذه اللحظة غاب المستشار! ولم يكن ممكناً الانتظار..عبر مع العائلة ووقف في طابور طويل مرّة أخرى على شكل هلال..المسافة بين شبّاك الجوازات وأول الطابور ثلاثة أمتار، وفي هذه المسافة الفارغة تتركز كل عيون المسافرين ورجال الأمن والجوازات والجمارك. تصاعدت دقات قلبه، وعليه أن يتحكم بقلقه فلا ينكشف توتره، هدوء الأعصاب سوف يوصله درب السلامة.

هو في الوسط تماماً، تقدّم بيدروس وأنجز مروره بختم الخروج، خلفه أم بيدروس وزوجها. وقف الشرطي يبادل نظرته بين عامر وورقة السماح بالعبور وهو يرفع عقيرته مستهجناً وفي نيته إثارة مشكلة: ماهذه..أين جواز السفر؟
وقعت الواقعة.. قالها في نفسه، وقد تملكه أحساسٌ بالوصول إلى النهاية المحتومة. هنا يسيطير رجال الأمن ويديرون المكان بسطوتهم ونفوذهم، وسينكشف كل شئ!
-ماذا تفعل أنت؟
صاح شاب أربعيني من بعيد، وهو يتقدم نحو الشرطي، سحب من يده الورقة وأمره بختمها، ثم سلمها لعامر، وهو يشير لأم بيدروس: تعالي ياماما.
شئ مذهل كالبرق، خطف دهشته، وألبسه الذهول، وكأن الشاطر حسن حطّه هنا على بساط الريح، ليجلسه على مقعدٍ في الترانزيت.
-لكم فضلٌ كبير عليّ، سأقول فيما بعد لكم شيئاً عن ذلك.
قال للعائلة، ولم يمرّ وقت طويل حتى تعرّفت المرأة إليه، وأعادتهما الذاكرة الى أشخاص طواهم الغياب، ولم تفصح إلاّ في الطائرة أنها تعرف جانباً من قصته! وقد ظلّ منكمشاً في الانتظار، خلفه تماماً أعلى رأسه كانت تنتصب شاشة التلفاز الكبيرة، تبث الأغاني الثورية التي تمجد القائد، الذي ينتظر الشعب كما قالت القناة إطلالته التاريخية.
في تلك الليلة استخف عاشور بكل المشاعر، وبكل من ضحوّا بحياتهم، وخوّن كل مناهض له. هناك أطلق سخريته النكره، وهو يصرخ: من أنتم! أطلق توصيفاً مشيناً بحق الناس، لقد أسماهم بالجرذان، الذين سيلاحقهم ويقضي عليهم " زنقة..زنقة، دار..دار "! وهو يتهددهم بعجرفة وصلافة مشبعة بالازدراء، وهو يرفض الإقرار بأن الثورة لن يوقفها سعار القاتل.
ظل يسمع كلماته الرعناء، وهو يخطو نحو الطائرة، هنا لحظة الخلاص، وسوف يقطع حبل الخوف والألم والساعات المريرة. صعد الدرجات الأخيرة، تاركاً أم بيدروس خلفه تتأكد من حقائبها، لم ينتظر، فلكل لحظة هنا قيمة وثمن.
في باب الطائرة استقبله الشاب الأنيق مرحباً، مقرراً الاحتفاظ بورقة العبور لتسجيلها، وهو يبتسم:
-الحمدلله ع السلامة استاذ عامر!
أخذ مقعده وقد تجدد قلقه مما أثار ريبته داخل الطائرة، لايعرف مم تماماً، ربما من هذين المتشابهين الذين أحاطا به، بطريقة مثيرة..جلسا الى جانبه وأمامه، ثم لم يجدهما بعد إقلاع الطائرة. ربما من كلمات هذا الأنيق الذي مال عليه، وهو يقول بكل لطف:
-بعد ربع ساعة أريدك في مقدمة الطائرة.

دقائق سريعة قضاها في الإجابة على أسئلة ضابط أمن الطائرة، لكنها لم تنقض إلاّ وقد شحب لونه، وأحس بانخفاض الضغط، يدور برأسه. قال أنهم سيخدمونه، سيرسلون أحدهم ليسهل عبوره عبر شبّاك الجوزات..فقد نال من تعب الأيام الكثير.

الثالثة والنصف فجراً أمسك بيده، وحمل أشياءه باليد الأخرى، وهو يجتاز عتبة باب الوصول، هو الضابط الوسيم، الذي ختم ورقة الدخول بكل هدوء وسرعة، ثم انعطف به يميناً نحو مكتب الهجرة والجوازات:
-اجلس..ثمة اجراءات بسيطة، ثم تنصرف.
انصرف هو، ليتلق الخبر الصاعق، قبل أن يولد نهار فجر جديد، وتطوّق يديه وقلبه وروحه الأصفاد مرة أخرى، ويُرَحّل مع الصباح الى وزارة الداخلية في ساحة المرجة..قلب دمشق، ومن ثم يأخذه الطريق مخفوراً، عبر نفق شارع الثورة..الى حيث فتح له فرع الفيحاء بواباته على مصراعيها.
وقف قبالة الجدار لدقائق، فك قيده..ثم أخرج كل مافي جيوبه، وخلع ثيابه في مكانه. ريح شباط تصفرّ في المكان، وجسده ينكمش شيئاً فشيئاً، ويتغلغل فيه البرد ممزوجاً بالقلق والمصير الذي آل إليه:
-أنت موقوف !

الكتاب

تتناول الرواية حياة السجن، بكل ما فيها من مكابدات ومعاناة. وتركز على أربع مسائل أساسية هي: «التعذيب – القهر – الحرمان – انتهاك حقوق الإنسان وحرياته». وذلك عبر تقسيم النص إلى زمنين: من الاعتقال إلى الحكم، والثاني فترة السجن المؤبد، في جزأين و38 فصلًا.

كما تتناول بعض لمحات من أحداث الربيع العربي، الذي مزّق سطوة الطغاة، رغم فداحة الخراب وعظمة التضحيات..

تدور أحداث الرواية، في مكان محدد هو السجن، وإن تعدّدت أماكن الاعتقال. دون أن تغفل التداعيات المتصلة بالحياة العامة، والمجتمع الذي تتناوله.

عامر عبدالله، كاتب وصحافي، يتم اعتقاله من الشارع، وسط النهار، لأسباب سياسية، ليتعرض بعدها لشتى أنواع التعذيب والقهر، على يد المحققين، ثم يخضع لمحاكمة صورية غير عادلة، ليجد نفسه وسط المجرمين الجنائيين كعقوبة مضاعفة، يقضيها في عذابات الحرمان من الحرية والأسرة والعدالة.. وغيرها. إضافةً إلى أساليب القهر المادية والمعنوية، التي يستخدمها السجّان، مثل الانتهاكات البشعة لآدمية السجين، وحالات القهر والاغتصاب والجنون، التي يتعرض لها في المعتقلات والسجون.

يظل عامر عبدالله الشخصية المحورية، وفي كل فصل ثمة شخصيات يضيفها إلى الحدث الروائي، لتسرد صورة من الحياة المرّة والمهينة التي يعيشها السجين، في ظل القهر والاستبداد من جهة، والجهل والمرض والرذيلة من جهة ثانية.

يرى المؤلف هذا العمل، شهادة حية على تجربة عاشها خلف القضبان، كتبها داخل الأسوار، ونجح في تهريبها ورقة.. ورقة. وهو أيضًا شهادة تفضح القمع والاستبداد الذي تمارسه الأنظمة الديكتاتورية خاصة سوريا وليبيا..

ISBN 978-614-418-268-0
9 786144 182680
Jadawel جداول
www.jadawel.net